

علم اللغة الاجتماعي للدراسات الجامعية
مدخل

إعداد

الأستاذ الدكتور عاصم شحادة علي
الأستاذ الدكتور شمس الجميلي بن يوب

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية
الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

٢٠٢٠

إهداء

نهدي هذا الكتاب إلى العلماء والباحثين والدارسين في شتى أنحاء الأرض
وإلى كل من أسهم في نشر العربية لغة العلم والثقافة والدين
وإلى عشاق العربية ومتعلميها

شكر وتقدير

نقدم الشكر الجزيل إلى المعهد العالمي للفكر الإسلامي على ما قدّمه من دعم معنوي ومادي من أجل نشر هذا الكتاب، ونخصُّ بالذكر مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي في ماليزيا الأستاذ الدكتور الفخري داتو ويرا جميل عثمان، والشكر موصول إلى الزملاء الذين كان لهم رأي سديد في إعداد الكتاب، وإلى الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا كلُّ التقدير والاحترام لتشجيع المستمر في نشر الكتب بالعربية؛ لتكون نبراسًا يقود إلى المعرفة والعلم.

تصدير

الفهرس

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فتعد اللسانيات التطبيقية بمجالاتها من الموضوعات المهمة التي ترتبط باللغة؛ إذ يتناول كلُّ مجال فيها اللغة من الجانب الخاص بها، كأن نجد علم اللغة التعليمي، والتحليل التقابلي والمقارن، وتحليل الأخطاء؛ يتناول اللغات من حيث التشابه والاختلاف بينها، وبيان الأخطاء التي يقع فيها دارس اللغة، ثم وصفها، وكذا الحال في علوم اللغة؛ النفسي، والاجتماعي، والجغرافي، والحاسوبي، وصناعة المعاجم، والترجمة، وهي مجالات يحتاجها الدارس في الجامعات؛ إذ لم تُقدّم إليه بتفاصيلها التي ذكرها المتخصصون في كلِّ مجال، ولا سيما كتب اللسانيات التطبيقية بالعربية؛ للإلمام بها، ومعرفة دورها في فهم اللغة، ودور اللغة نفسها في بياها؛ من حيث وصف العمليات الفكرية التي تسبق إنتاج اللغة، وعلاقة اللغة بالمجتمع، وتنوعها، وازدواجيتها، وبيان اللغة المستعملة في مناهج الدراسة اللغوية للناطقين بغيرها، وانتشار اللغة ونحسارها في العالم.

ويهدف هذا الكتاب بعامة إلى تحديد مجالات علم اللغة الاجتماعي وموضوعاته التي يتناولها في المجتمع؛ إذ تطرّق إلى الفكر الاجتماعي في الدرس اللغوي الحديث والتراثي، وما فيه من تنوّع مصادر المادة، وجمع اللغة، والمشكلات التي يعرض لها علم اللغة الاجتماعي، واتجاه الدراسة اللغوية الاجتماعية، وتعليم اللغة في علم اللغة الاجتماعي، وتعريف علم اللغة الاجتماعي، والفكر الاجتماعي في الدرس اللغوي عند العرب، ثم تناول العلاقة بين اللغة والثقافة، واللغة والكلام، والمدخل العرقي في دراسة اللغة، والمدخل الوصفي البنائي، والمدخل النفسي، والمدخل التطبيقي، ومن ثمّ؛ تناول الكتاب موضوعات التنوع اللغوي من حيث ألفاظ القرابة، واستعمال الألوان، واختيار الأسماء، والتأثير الحضاري للأسماء، واللغة والهوية الوطنية، والتعدد اللغوي، والازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية، وكذا تناول موضوعات التنوعات اللغوية؛ كاللغة، واللهجات، والتباين الاجتماعي، ولغة الصغار، ولغة المرأة، والكلام المحظور، ونمط اللغة والرطانة، والتخطيط اللغوي؛ أما المبحث الرئيس في دور في قضايا علم اللغة الاجتماعي في التراث العرب الإسلامي؛ كالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والمجتمع، وتنوّع مصادر المادة وجمع اللغة، والصمت، والتداولية في الدراسات العربية، ومظاهرها التراثية، وعناصرها كإشارات، ثم مفهوم المفارقة اللغوية وعلاقتها في المجتمع، والافتراض السابق، والحدث الكلامي، والاستلزام الحوارية (المحادثي)، والبعد التخاطبي للغة.

الفصل الأول علم اللغة الاجتماعي

المبحث الأول الفكر الاجتماعي في الدرس اللغوي الحديث

أولاً: تعريف علم اللغة الاجتماعي

هو العلم الذي يدرس اللغة من حيث علاقتها بالمجتمع، أو العلم الذي يحاول الكشف عن القوانين والمعايير الاجتماعية التي توضح وتنظم سلوك اللغة، وسلوك الأفراد نحو اللغة في المجتمع.^١

وقد كثرت التسميات التي قد تتفق في المضمون مع علم اللغة الاجتماعي، وتختلف في المنطوق؛ منها: علم اجتماع اللغة أو علم الاجتماع اللغوي (The Sociology of Language)، وعلم اللغة الإناسي (Linguistic Anthropology)، وأياً كان الاختلاف؛ فهناك نقاط التقاء كثيرة بين موضوعات تلك المباحث.

ويلتقي علم اللغة الاجتماعي مع علم اجتماع اللغة (The Sociology of Language) في الاهتمام باللغة من حيث دراسة المجتمع في علاقته باللغة، وهو بهذا أقرب إلى علم الاجتماع بمفهومه العام، أما علم اللغة الاجتماعي فيركّز على اللغة في المجتمع، وهو أقرب إلى علم اللغة من علم اجتماع اللغة.^٢

ويهتم علم اللغة الاجتماعي بالخطوط العامة التي تميز المجموعات الاجتماعية من حيث تختلف وتدخل في تناقضات داخل مجموعة اللسانية العامة نفسها، ويركّز اهتمامه على القوانين التي تخضع لها الظاهرة اللغوية في حياتها وتطورها، وما يعتمدها من شؤون الحياة، ومبلغ تأثيرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية التي لها تأثير في اختيار الناس اللغة، وما تحمله هذه اللغة من طابع الحياة التي يعيشها المتكلمون، وطرائق الاستعمال اللغوي التي يكتسبها الإنسان من المجتمع.^٣

ومن الممكن تعريف علم اللغة الاجتماعي بأنه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع، وقد أصبح جزءاً معترفاً به في معظم مناهج "علم اللغة المعاصر" أو "علم اللسانيات" في المستوى الجامعي، ويُعد علم اللغة الاجتماعي حقيقة

^١ انظر: بشر، كمال محمد، التفكير اللغوي بين القديم والجديد (القاهرة: مكتبة الشباب، ٢٠٠٥م)، ص ٥٢؛ هديسون، ريتشارد أنتوني، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة: محمود عياد، مراجعة: نصر حامد أبو زيد، محمد أكرم سعد الدين (القاهرة: عالم الكتب، ط ٢، ١٩٩٠م)، ص ١٧.

Holmes, Janet. 1992. *An Introduction to Sociolinguistics*, Longman, London, New York, First published p1; O'Grady and John Archibald, Mark Aronoff, Janie Rees-Miller. 2005. *Contemporary Linguistics: An Introduction*, Fifth Edition, Bedford/St. Martin's, Boston, New York. p464.

^٢ انظر: هديسون، علم اللغة الاجتماعي، ص ١٧؛ بشر، كمال محمد، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م)، ص ٤١-٤٣.

^٣ انظر: نحر، هادي، اللسانيات الاجتماعية عند العرب (إربد: دار الأمل، ط ١، ١٩٩٨م)، ص ٢٣-٢٤.

واحدًا من أهم مجالات النمو والتطور في الدراسات اللغوية من منظوري المناهج الدراسية ومجالات البحث.^١ اللغة نتاج طبيعي للنشاط الإنساني واردة عن تطابق ملكات الإنسان مع حاجاته الاجتماعية، واللغة في حقيقتها ذات وظيفة ثقافية؛ لا مجرد وسيلة لتوصيل الأفكار والانفعالات والتعبير عنها، بل هي المعبر الأهم عن الثقافة التي تحددها خصائص المجتمع من قيم وأعراف وتقاليد وأنظمة اجتماعية، ويتعارف أفراد كل مجتمع إنساني على وسائل معينة للاتصال فيما بينهم، ولتبادل المقومات الثقافية، وتحقيق الأغراض الأساسية والتكميلية، ولا يمتلك الإنسان وسيلة أهم وأفضل من اللغة، ويهتم علم اللغة الاجتماعي باللغة من جميع نواحيها الاجتماعية وحالات التأثير والتأثير بينها وبين سائر المظاهر والأنظمة في المجتمعات الإنسانية.^٢

ويعنى علم اللغة الاجتماعي بالتأثيرات بين اللغة والمجتمع، ويدرس اللهجات الاجتماعية لدى أفراد مجتمع لغوي معين في طبقاته الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، واللهجات الجغرافية في مناطق مختلفة، وأنماط اللغة، وذلك من حيث الخصائص الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، والأسلوبية، ويدرس مشكلات الثنائية، والازدواجية، والتعددية؛ اللغوية، ويهتم بالتخطيط اللغوي، والسياسة اللغوية؛ في مجتمع معين، ويعالج قضايا اجتماعية لغوية، من مثل تقرير نظام الكتابة، واختيار اللغات الرسمية، وأساليب المحافظة عليها، وتطويرها.^٣

كما يهتم علم اللغة الاجتماعي بالخطوط العامة التي تميز المجموعات الاجتماعية من حيث تختلف وتدخل في تناقضات داخل المجموعة اللسانية العامة نفسها، والوقوف على القوانين التي تخضع لها الظاهرة اللغوية في حياتها وتطورها وما يعتمدها من شؤون الحياة، ومبلغ تأثيرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية التي لها تأثير على اختيار الناس اللغة، وما تحملها هذه اللغة من طوابع الحياة التي يجيهاها المتكلمون، وطرائق الاستعمال اللغوي التي يكتسبها الإنسان من المجتمع.^٤

ثانيًا: علم اللغة الاجتماعي ونشأته

يتفق أغلب علماء اللغويات الوصفية اليوم على هذا المفهوم للغة بوصفها تقليدًا اجتماعيًا اعتباطيًا، وفي مقدمتهم دي سوسير (F. De Saussure)، فهو وإن قرّر في إحدى مقولاته أن موضوع علم اللغة الصحيح هو اللغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها؛ فقد أكد من جانب آخر أن اللغة أساسًا حقيقة اجتماعية؛ أي إن دراستها تكون في ضوء علاقتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية، فاللغة ليست ضرورة للحياة فحسب، وإنما هي ضرورة للاجتماع؛ لأنها نتاج الجماعات، ومن مقتضيات العمران، تنشأ في أحضان المجتمع يوم يحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم والتواصل فيما

^١ انظر: هيدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص ١٢.

^٢ انظر: عبد السلام، أحمد شيخو، مقدمة في علم اللغة التطبيقي: موضوعات مختارة وقضايا إسلامية (كوالمبور: مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ط ٢، ٢٠٠٦م)، ص ١٣١.

^٣ انظر: المرجع السابق، ص ٢٦.

^٤ انظر: نحر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ٢٣.

بينهم، فاللغة - وهي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى - تنتج من الاحتكاك الاجتماعي؛^١ لذا صارت واحدة من أقوى العُرا التي تربط الجماعات، وقد دانت بنشوتها إلى وجود احتشاد اجتماعي.

وقد تناول الغريون البُعد الاجتماعي للغة وعلاقتها بالمجتمع كما يأتي:

عرّف وليم دوايت ويتني (W. D. Whitney) (١٨٢٨-١٨٩٤م)، اللغة بأنها واقعة اجتماعية لا طبيعية أو صفة حيوية (بيولوجية)، وهي نظام منسق الألفاظ تحكمه علاقات في كل الاتجاهات، وفي هذا التعريف يلاحظ أن ويتني يرى اللغة ترتبط بالمجتمع، ولها نظام يتحكم بها، وأن يكون هناك فرقاً بين فقه اللغة المقارن وعلم اللغة.

ويرى إيميل دوركايم (E. Durkheim) (١٨٥٨-١٩١٧م) أن اللغة مجموعة الأفكار في عقل الجماعة الواحدة بوصفها قوانين أو أعرافاً،^٢ وهي أشياء حقيقية تصلح لأن تكون مادة للمعرفة، وعليه؛ من أمثلة الظاهرة الاجتماعية في ماليزيا مثلاً أن صلاة المرأة من دون ارتداء ملابس الصلاة (Telekung) يُعدّ عيباً في المجتمع القروي، أما في المدينة فمقبول نوعاً ما، وكذا أن تمرُّ بين شخصين من دون أن تشير بيدك إلى أسفل مع انخفاض الرأس قليلاً؛ معيب في المجتمع الماليزي، ومقبول لدى غير الماليزيين.

ويرى ديكارت (Descartes) (١٥٩٦-١٦٥٠م) أن اللغة خاصية الإنسان بما هو حيوان ناطق؛ أي مفكر، وبما هو حيوان بدني؛ أي اجتماعي، فهي تحقق ناطقية الإنسان بشقيها؛ الفكر، والعمل، ومن ثم؛ تجعله أهلاً لأن يكون خليفة الله في الأرض؛ أي إنها الخاصية التي تميز الإنسان من سائر الحيوانات، وللناطقية عند ديكارت ركيزتان؛ ممارسة التفكير، وممارسة الحياة الاجتماعية، فضلاً عن أنها سبيل الكشف عن الذات والآخر والكون.

ويقول عنها ميبه (Mieah) إنها كائن مثالي لا سبيل إلى إدراكه إدراكاً مباشراً؛ لأن الباحث فيها يلاحظ مجرد مظاهرها الخارجية التي هي مظهر وجودها وسبيل انتقاله والمحافظة عليها.^٣

أما دي سوسير فقد ذكر مفهوم اللغة واللسان والكلام قائلاً إن اللغة Language كلُّ ما يمكن أن يدخل في نطاق النشاط اللغوي؛ من رمز صوتي أو كتابي أو إشارة أو اصطلاح؛ أي إن اللغة هي الكيان العام الذي يضم

^١ انظر: دي سوسير، فريديناند، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عن الفرنسية: عبد القادر قنبي، مراجعة: أحمد حبيبي (الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ١٩٨٧م)، ص ١٦؛ حسين، صلاح الدين صالح، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن (الرياض: دار العلوم، ١٩٨٤م)، ص ٣٣؛ حسام الدين، كريم زكي، اللغة والثقافة: دراسة أنثولوجية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية (القاهرة: دار غريب، ط ٢، ٢٠٠١م)، ص ٥٤؛ دراج، أحمد عبد العزيز، الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية (القاهرة: مكتبة الرشد، ١٩٨٢م)، ص ٧٨؛ الرديني، محمد عبد الكرم، فصول في علم اللغة العام (بيروت: دار الكتب، ٢٠٠٢م)، ص ٢٢؛ فضل، عاطف، مقدمة في اللسانيات (عمان: دار الرازي، ٢٠٠٥م)، ص ٦٤؛ الراجحي، عبده، النحو العربي والدرس الحديث (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨م)، ص ٢٨؛ جوزيف، جون، اللغة والهوية، ترجمة: عبد النور خراي (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٧م)، ص ٧٦، وقد قارن بين سوسير والعالم فولوشينوف (١٨٩٥-١٩٣٦م) صاحب نظرية أن اللغة لا تملك بُعداً فردياً، وإنما الكلام يملكه؛ السيد، صبري إبراهيم، تشومسكي وفكره اللغوي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م)، ص ٢٢؛ قدور، أحمد محمد، مبادئ اللسانيات (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ص ١٦.

^٢ انظر: جفري سامبسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة: محمود زيادة كبة (الرياض: د.ن، ١٩٩٧م)، ص ٣٥-٣٨.

^٣ انظر: توفيق، محمد شاهين، علم اللغة العام (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١، ١٩٨٠م)، ص ١٤.

النشاط اللغوي الإنساني في صورة ثقافية منطوقة أو مكتوبة معاصرة أو متوارثة، أما اللسان *Langue Tongue* فيطلق على اللغة المعينة المنظور إليها بطريقة الصورة المنظمة ذات القواعد والقوانين والوجود الاجتماعي، وأما الكلام *Parole* فهو اللغة في صورة ممارسة فردية منطوقة على أيّ مستوى، ويمكن استخدام "اللسان" عندما يراد التعبير عن لغة معينة، ويمكن أن يحل محله التعبير بمصطلح "اللغة" موصوفاً بما يحددها، من مثل اللغة العربية، أو لغة الاصطلاح، أو اللغة العلمية.^١

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر أخذ مفهوم "اللغة" وطبيعتها ووظيفتها ودراستها في التغيير، وقد عُرفت اللغة بأنها قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسقٌ يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما، وهذا التعريف في واقعه يقرر مجموعة من الحقائق؛ هي أن اللغة قدرة ذهنية تتكون من مجموع المعارف اللغوية، بما فيها المعاني، والمفردات، والأصوات، والقواعد التي تنظمها جميعاً، وتتولد وتنمو في ذهن الفرد ناطق اللغة أو مستعملها، فتمكنه من إنتاج عبارات لغته كلاماً أو كتابة، وتمكّنه من فهم مضامين ما يُنتجه أفراد مجموعته من هذه العبارات، وبذلك تقوم الصلة بين فكره وأفكار الآخرين.

إن اللغة ليست غاية في ذاتها، وإنما أداة يتواصل بها أفراد مجتمع معين؛ لتستقيم علاقاتهم، وتسير أمور حياتهم؛ لذا كانت معرفة اللغة أو تعلّمها ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية التي تستقرُّ وتستقيم به حياة الفرد، ولا يختلف تصوّر اللغويين المحدثين عن تصوّر اللغويين القدامى فيما يتعلق بتعريف اللغة، فللعلماء في تعريفها آراء؛ منها تعريف هنري سويت (H. Sweet) بأنها التعبير عن الأفكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤلفة من الكلمات. وذهب إدوارد سايبير (E. Sapir) إلى أن اللغة وسيلة إنسانية خالصة غير غريزية إطلاقاً؛ لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية.

أما هيرمان بول (H. Paul) فيرى أن اللغة وظيفتها الأساس أنها دائماً وسيلة لنقل أو توصيل شيء من الأشياء.

ويقول الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل (Bertrand Russel) إن اللغة وظيفة رئيسة هي "التعبير والتوصيل"؛ أي التعبير عن الأفكار وما إليها، وتوصيل هذه الأفكار إلى الآخرين.

إذن؛ اللغة مجموعة من النشاط يقوم به أفراد من الجماعة يعدّون أنفسهم يتكلمون لغة واحدة، ويؤكد اللغوي الإنكليزي جاردنر (Gardner) والعالم الإنساني المشهور مالينوفسكي (Malinovski) العنصر الاجتماعي للغة، وأنها الوسيلة لتنفيذ الأعمال، وقضاء حاجات الإنسان، فيقول مالينوفسكي إن اللغة ليست وسيلة للتفاهم أو التوصيل، وإنما وظيفتها أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، فهي جزء من السلوك الإنساني، وضربٌ من العمل، وليست أداة عاكسة للفكر، واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصراً على الجماعات البدائية، وإنما يُلاحظ في أرقى الجماعات تمدناً.

^١ انظر: توفيق، علم اللغة العام، ص ١٦-١٧.

ويرى بعض المحدثين أيضاً أن اللغة نظام من رموز وعلامات، أو هي الأصوات التي يُحدثها جهاز النطق الإنساني، وتُدرِكها الأذن، فتؤدي دلالات اصطلاحية في مجتمع معين.^١

وقد أعطى بعض الباحثين عنصر الفكر أهمية خاصة في تعريف اللغة، فقال إنها نظام من الإشارات تُعبّر عن الأفكار، ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، أو لغة الصم والبكم، أو الطقوس الرمزية، أو الصيغ المهذبة، أو العلامات العسكرية، أو غيرها من الأنظمة؛ ولكنه أهمها جميعاً.

وذهب بعض المحدثين أيضاً إلى أن اللغة نشاط مكتسب يكون بوساطة تبادل العواطف والأفكار بين أفراد جماعة إنسانية معينة، وهذا النشاط مجموعة من الأصوات تُستعمل وفق نظم معينة.

واللغة في وظيفتها - كما يراها بعض الباحثين - مجموعة رموز صوتية تواضعت عليها الجماعة في بيئة لغوية محددة، واكتسبت من بُعد صفة اجتماعية، وقدمت نفسها لخدمة أبناء المجتمع الواحد تعبيراً عن مكونات الفرد، وإيصالها إلى الآخرين.^٢

ويرى بعضهم أن اللغة نمط من النشاط الاجتماعي للإنسان يعرض أنماطاً من المادة الصوتية والمكتوبة احتمالاً على الأقل، والصيغة (النحو والمعجم) والسياق، ولها خصائص معينة تفرق بوضوح بينها، وبين الرياضة، وبين أضواء المرور، وبين عقد الجبال، وبين رقصات النحل.

ويرى بعضهم أن اللغة وسيلة للتفاهم والتواصل والتعبير عن العواطف والأفكار بعامة، ولا يحدد مدلولها بالكلمات والعبارات التي تصطلح على معانيها أو دلالاتها أمّة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات؛ إذ تشمل في الحقيقة على كل ما يمكن أن يعبر به الإنسان عن فكرة أو انفعال أو موقف أو رغبة معينة، فالصورة لغة، والأشكال المرسومة لغة، والأجسام الحركات الجسمية لغة، والإشارات البصرية والسمعية لغة، والألحان والنعيمات الموسيقية لغة، وكل أعضاء الحواس يمكن استخدامها في خلق لغة، فهناك لغة الشم، ولغة اللمس، ولغة البصر، ولغة السمع، وهناك لغة كلما قام شخصان، فأضافا معنى من المعاني إلى فعل من الأفعال بطريقة الاتفاق، وأحدثا هذا الحدث بقصد التفاهم بينهما، فطرّ يُنشر على ثوب، أو منديل أحمر أو أخضر يُطل من جيب سترة، أو ضغطة على اليد يطول أمدّها قليلاً أو كثيراً؛ كل هذه تكون عناصر من لغة ما دام هناك شخصان قد اتفقا على استعمال هذه العلامات في تبادل أمر أو رأي.

ويرى آخرون أن اللغة نشاط يكون أساساً من أربعة أنواع؛ الكلام، والسمع، والقراءة، والكتابة، وهذه

^١ نقلاً عن: بشر، كمال محمد، دراسات في علم اللغة (القاهرة: دار المعارف، ط ٦، ١٩٨٠م)، ج ١، ص ١٥.

^٢ ما ذكرناه من تعريفات للغة لدى المعاصرين اعتمدنا فيه على المراجع الآتية: الرديني، محمد علي عبد الكريم، فصول في علم اللغة العام (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٢م)، ص ١٧-٢١؛ بونتج، كارل ديتر، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة: سعيد حسن بحيري (القاهرة: مؤسسة المختار، ط ٢، ٢٠٠٦م)، ص ٣١؛ البهنساوي، أحمد، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث في مجالي: مفهوم اللغة والدراسات النحوية (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م)، ص ١٣؛ زكريا، ميشال، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (بيروت: المؤسسة الجامعية، ١٩٨٦م)، ص ١٤-١٧؛ عبد السلام، أحمد شيخو، اللغويات العامة: مدخل إسلامي وموضوعات مختارة (كوالمبور: دار التجديد، ط ٢، ٢٠٠٦م)، ص ١.

الألوان من النشاط تستتبع طرقاً خاصة يمكن إدراكها وملاحظتها.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي؛ كان اتصال البحث اللغوي بعلوم المجتمع من الفلاسفة والمفكرين عن العلاقة بين اللغة والشعب، ومنهم فوتغرد (Yuhan Futgird) وهلدرد (Hudler) وجينس (Jeans)، فقد رأى هلدرد أن اللغة شكلاً داخلياً خاصاً، وأنها تنظم العالم الخارجي للجماعة الناطقة، ويتضمن مفهوم الجماعة اللغوية لديه مفهوم الأمة.^١

أما جينس فأثبت أن طبيعة الإنسان الفكرية والأخلاقية تتجلى كاملة في اللغة على نحو ما؛ من مثل رهافة الحس التي تظهر في اليونانية والفرنسية، والنزعة الفلسفية الواضحة في اللغة الألمانية... إلخ.

وفي هذا الاتجاه شاهدنا كثرة النظريات التاريخية والنفسية في نشأة اللغات؛ إذ تعود معظم تلك النظريات والمحاولات إلى آراء الفلاسفة في المقام الأول، وعلى رأسهم كونديلاك (Condillac) سواء في بحثه "نشأة الأحاسيس" عام ١٧٥٤م، أم في بحثه "أصل المعاوف الإنسانية" عام ١٧٤٦م، أم في بحثه "مذاهب الفلسفة".

وقد امتدّت هذه الآراء إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وأثّرت في هببولت (Wilhem Von Humboldt) (١٧٦٧-١٨٣٥م) الذي دفع بالأيدولوجية الرومانسية التي انتشرت في ميادين الثقافة والفلسفة السياسية إلى حدودها القصوى، وكان الألمان في هذا القرن قد اندفعوا إلى أبحاث تاريخية في الماضي الجرمانى؛ رغبة منهم في إعلاء شأن القيم القومية، والإشادة بها، بما في ذلك اللغة الألمانية وتاريخها، وقد كانت اللغة عند هببولت الوسيلة التي يتكون بها التفكير؛ أي إنها تعبّر عن الروح القومية، وكذلك تكوّن هذه الروح في كل خصائصها، وتشير إلى تلك النظرة الكونية الشاملة التي تفرد بها جماعة من الجماعات، وليس تنوع اللغات إلا دليلاً على تنوع العقليات، ومنه نشأت أهمية التحليل الدقيق المفصل لعضوية كل لغة؛ للموازنة بين مزايا بنياتها ومزايا بنيات اللغة الأخرى.

وقد سلك راموس راسك (Ramos Rask) (١٧٨٧-١٨٣٢م) مسلك هببولت؛ إذ عكف على دراسة الماضي الإسكندنافية، وكان ينزع نزعة رومانية على الطريقة الألمانية، وللأسباب ذاتها التي دفعت معاصريه إلى مثل هذا العمل.^٢

وفي القرن التاسع عشر الميلادي؛ يعدُّ شليير (Schleier) (١٨٢١-١٨٦٧م) أول لغوي عرض للأسلوب المقارن عرضاً أوضح من هببولت،^٣ وظهرت أيضاً المدرسة الأمريكية، أو مدرسة الإناسيين، ومن أشهر رجالها ساير (١٨٨٤-١٩٤٩م) وبلومفيلد (Bloomfield) (١٨٨٧-١٩٤٩م).^٤

وفي القرن العشرين الميلادي أيضاً ظهرت المدرسة اللغوية الماركسية التي تتبع تعاليم مار (Marr) الذي قدم تحليلاً تعرض فيه إلى أن اللغة بنية اجتماعية فوقية، ويجب أن يتعلق بها تتابع في التكوين الاجتماعي والاقتصادي،

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٢٥.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ٢٧.

^٣ انظر: المرجع السابق، ص ٢٩.

^٤ انظر: المرجع السابق، ص ٣٥.

فاللغة على هذا الأساس؛ ظاهرة اجتماعية طبقية.^١

وفي ميدان العوائق اللغوية الاجتماعية؛ ظهر العالم الاجتماعي واللساني الإنجليزي برنشتاين (Bernichtine)، وقال إن هناك طريقتين رئيسيتين للكلام وضَّحهما بالتجربة على مجموعة من أطفال المدارس مختلفي الطبقات الاجتماعية.

وهكذا نجد أن دراسة القضايا اللغوية في ضوء العلوم الاجتماعية، واتصال علم اللغة بعلوم الآخر؛ قد أدى إلى نشأة فروع لغوية جديدة لعل أحدثها وأوسعها "علم اللغة الاجتماعي".^٢

وقد كان للعرب في هذا المجال رأى ينمُّ عن وعي عميق للعلاقة الكامنة بين اللغة والمجتمع، فقد عرَّف ابن جني (ت ٣٩٢هـ) اللغة بأنها "أصوات يعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"^٣، وهذا التعريف الشامل الموجز يسبق فيه ابن جني ما جاء به غيره بمئات السنين؛ لأنه يعرض فكرة الأصوات اللغوية، سواء أكانت نظرنا إليها أنها غريزة أم مكتسبة، وسواء أَلحنا أنها رموز أم أجزاء من رموز، كما أن ابن جني يعرض في تعريفه الموجز هذا وظيفة اللغة في المجتمع حين تعبر عن آراء كلِّ قومٍ وأغراضهم وشؤونهم الحياتية، فالقوم عند ابن جني أي المجتمع، ولا سيما أن لفظة (المجتمع) لم تكن مستعملة آنذاك بمعناها اليوم، وإنما كان العرب يستعملون (القوم) للدلالة على (المجتمع) كما نفهمه في العصر الحديث، وذلك "حدًّا" يقع تحت النظر المنطقي الذي يفترض "وضعًا" مسبقًا أو منطقيًا في كل نظرٍ لغوي، وهو أيضًا لا يقع تحت إلحاح ضيق فيشُدُّ حدَّه إلى لغة معينة، ولكنه إطلاق أصيل يذهب إليه، ويجعل من حدِّه وعاءً يتسع لكثير ما أضافه اللغويون من بعد.^٤

وإشارة ابن جني هذه - زيادة على أنها تحدّد اتجاهًا علميًا أقرب إلى الواقع اللغوي - تؤثر في منهج ابن جني في تناول الظواهر اللغوية على مستوياتها المختلفة، فإن أي مهتم بالدرس اللغوي يقف على أهمية مقولة ابن جني في مثل هذا المقام؛ لأنها تدل على أن علماء العربية قد لحظوا ملحظًا ضروريًا، وفهموا قانونًا أساسًا من قوانين الحياة، والمقصود به أن اللغة في جوهرها شكلٌ من أشكال السلوك الاجتماعي؛ ذلك لأنها لا تكون إلا حيث يكون المجتمع، ومن ثم يمكن فهمها بوصفها ظاهرة اجتماعية؛ مع ما يمكن أن يترتب على ذلك منهج.

ويؤكد فيرث (Firth) هذه النظرة الاجتماعية إلى اللغة بقوله: "لنبدأ بأن نعتبر الإنسان غير مفصول عن العالم الذي يعيش فيه، إنه ليس إلا جزءًا منه، إنه ليس موجودًا ليفكر به؛ ولكن لي عمل ما يناسب، وذلك يقتضيه أن يمتنع عن العمل في الوقت المناسب أيضًا، وهذا ينطبق على أهم نشاط اجتماعي للإنسان، ونعني به دفع الهواء وأذان الآخرين إلى الاضطراب بواسطة ما ينطقه، فكلامك ليس مجرد تحريك للسان، أو اهتزاز في الحنجرة، أو إصغاء، إنه أكثر من ذلك؛ نتيجة لعمل العقل في تأدية وظيفة مدير العلاقات؛ لتحفظ عليك سيرك في المحيط الذي

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٣٨.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ٤٢.

^٣ ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص (القاهرة: الدار المصرية للكتاب، ط ١، ١٩٩١م)، ج ١، ص ٣٣.

^٤ انظر: المرجع السابق، ص ٥٦.

تعيش فيه"١.

وقد تبني أرسطو من قبل مبدأ المواضعة عندما عالج اللغة على أنها رابطة اجتماعية، وأن لها معنى اصطلاحياً
ناجماً عن اتفاق أو تراضٍ بين البشر.

أسئلة ومراجعات

١. عرّف علم اللغة الاجتماعي.
٢. هناك مصطلحات توازي علم اللغة الاجتماعي؛ اذكرها.
٣. بماذا يهتم علم اللغة الاجتماعي؟
٤. كيف يعنى علم اللغة الاجتماعي بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والمجتمع؟
٥. اكتب فقرة قصيرة عن نشأة علم اللغة الاجتماعي.
٦. اكتب تلخيصاً لتعريف اللغة عند كلٍّ من: دي سوسير، ويتني، دوركايم، ميه، وذلك في ضوء علم اللغة الاجتماعي.

١ نقلاً عن: نحر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ١٦.

المبحث الثاني الفكر اللغوي الاجتماعي لدى المحدثين الغربيين

تقدّم أن اتصال البحث اللغوي يعود بعلوم المجتمع إلى السؤال الذي طرحه الفلاسفة والمفكرون في القرن الثامن عشر الميلادي عن العلاقة بين اللغة والشعب الذي يتكلم بها، ومن هؤلاء فوتغرد وهلدنر وجينس، ومن ثم؛ كثرت النظريات التاريخية والنفسية في نشأة اللغات عند الفلاسفة؛ يقول كونديلاك عن نشأة اللغة: "لا يستطيع البشر تبادل الإشارات ما لم يكونوا مجتمعين، وإن اللغة هي أوضح مثل للعلاقات التي نكوها بصورة إرادية".^١

١. علماء اللغة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

(أ) همبولت:

حفّزته الأيديولوجية الرومانسية التي انتشرت في ميادين الثقافة والفلسفة السياسية إلى حدودها القصوى، فقد خاض الألمان في أبحاث تاريخية في الماضي الجرمني؛ رغبة منهم في إعلاء شأن القيم القومية، والإشادة بها، بما في ذلك اللغة الألمانية وتاريخها، وكان من رأي مفكريهم آنذاك أن الشعب مصدر كل ثروة ثقافية بما فيها اللغة، وأن التطور الذي قطعتة اللغة الألمانية كان يصاحب تطوراً آخر في المجتمع؛ لذا درسوها معاً، فأيدوا الفكرة القائلة إن لكل لغة بنية خاصة بها، وكل لغة تعكس بصدق وأمانة نوعية التفكير عند الشعب الذي يعبر بها، ومن هنا قويت في منهجهم الرابطة بين اللغة والوطن، فلكل وطن لغة تعبر عنه، ولا بد لدراسة تاريخ هذا الوطن من دراسة كل مقوماته التي منها اللغة.

واللغة عند همبولت هي الوسيلة التي يتكون بها التفكير؛ أي إنها تعبر عن الروح القومية، وكذلك تكون هذه الروح في كل خصائصها، وتشير إلى تلك النظرة الكونية الشاملة التي تنفرد بها جماعة من الجماعات، وليس تنوع اللغات إلا دليلاً على تنوع العقليات، ومن ثم؛ نشأت أهمية التحليل الدقيق المفصل لعضوية كل لغة؛ للموازنة بين مزايا بنيتها ومزايا بنيات اللغات الأخرى؛^٢ ذلك لأن تفوق البنية اللغوية برهان أكيد على تفوق الذهنية والعرق، وهذه خلاصة الدراسة العرقية المقارنة التي أجراها همبولت، وكان حين إنشائها ممزقاً بين حنينه إلى وحدة الفكر الإنساني، وبين تنوع اللغات، محاولاً إثبات تفوق العنصر الجرمني من خلال تفوق لغته هذا التفوق المزعوم، مما حدا بالنقاد إلى أن يطلقوا على آراء همبولت وجماعته اسم "المدرسة اللغوية العنجهية" (Jingoistic Linguistics)، حتى إنه أثر في غير الألمان من مثل راموس راسك الذي سلك مسلك همبولت، فعكف على دراسة الماضي الإسكندنافي، وكان ينزع نزعة رومانسية على الطريقة الألمانية، وللأسباب ذاتها التي دفعت معاصريه إلى مثل هذا العمل.

^١ انظر: نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ٢٣.

^٢ انظر: علي، عاصم شحادة، اللسانيات الميسرة: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م)، ص ٣٣.

ومن المعروف أن الألمان كانوا مسبوقين بدعواهم هذه، فقد كان الإغريق القدامى يرون أن لغتهم أفضل اللغات؛ لأن سائر اللغات على رأي جالينوس إنما تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع، وليست كذلك لغته بالنسبة إلى من لا يعرفها فيسمعها، كما أن اليهود كذبوا حين زعموا أن العبرية هي اللغة التي أوحى بها إلى الأنبياء، وأنها أفضل اللغات؛ لأنها لغة أول إنسان خلقه الله سبحانه، وغير ذلك كثير من الادعاءات التي لا تستند إلى حقائق علمية مقبولة.

وقد كان من نتائج التيار الرومانسي الألماني في القرن التاسع عشر الميلادي أن نشطت الدراسات اللغوية التي تعمل على تصنيف اللغات إلى أسر وفصائل، مما يدل على تطبيق روح المنهج التطوري الذي لم يكن تطبيقه مقتصرًا على مجالات الدرس اللغوي كما أسلفنا، وإنما كان عامًا لجميع العلوم والتقاليد البشرية، بل الإنسان نفسه، وبذلك كان الألمان رواد فقه اللغة المقارن بمفهومه العلمي الحديث.

واقترن شيوع الدراسات المقارنة مع اكتشاف اللغة السنسكريتية بين عامي (١٧٨٧-١٨١٦م)، مما شكل منعطفًا كبيرًا بالنسبة إلى الدرس اللغوي بعامته، وأزال عنه ذلك التفكير الطويل المشوش، فالاتصال بين أوروبا والهند أظهر في وضوح باهر قرابة اللاتينية والسنسكريتية، واللغات الجرمانية والسلافية والسلتية، وبذلك انقطع الافتنان باللغات ذات الأصل الإلهي أو الفلسفي، فقام عماد جديد للتفكير في شأن اللغات، وإن بقي بدوره بداية لحل المشكل نفسه الذي أخذ من جهد القدامى كثيرًا، وهو أصل الكلام، فإنه شرع في اقتباس المبادئ والمناهج التي تحققت في العلوم الطبيعية، وعدت اللغات كيانات حية تولد وتنمو وتموت، وعلاوة عن هذا كله؛ نجد لدى همبولت ملاحظات يبرز خلالها ما يسمى "قطبيات اللغة"؛ أي إن اللغة إنتاج فردي واجتماعي في آن معًا، وهي شكل ومضمون، وهي آلة.

(ب) سلايشر:

اعتمد سلايشر ما جاء به داروين (Ch. Darwin) في كتابه "أصل الأنواع الحية" عام ١٨٥٩م، وأراد أن يستنبط من مذهبه كل النتائج الممكنة في ميدان اللغة، وهذا المذهب يؤيد - كما هو معروف - قول إن اللغة كائن عضوي ينشأ على الصعيد التاريخي ينمو ويتطور، ثم ينحل ويموت، وإن علم اللغويات يُعدُّ جزءًا من العلوم الطبيعية إذا سلمنا بما ينادي به بعض النحويين المحدثين الذين نظروا إلى اللغة نظرة حسية موضوعية، وروّجوا لمبدأ القوانين الصوتية الجامدة التي لا تتطابق معها كل اللغات، تلك النظرة التي تعود بدورها إلى الحقبة القديمة التي أرسى القواعد اللازمة لرصد الأصوات رصدًا متقنًا منذ ما قبل أفلاطون حتى اللغوي اللاتيني بربسيان الذي قرئت آثاره مرة بعد مرة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، ولن يعود ممكنًا أن نلقي نظرة عابرة على تلك التقنيات "البدائية" التي يحددون بها إسهام الإغريق في علم الصوت، وكذلك يستحيل أن نتمدِّد أن نتجاهل علم الصوت عند العرب، وأصوله وانتشاره في أوساط الثقافة العالمية إلى ما بعد القرن السادس عشر الميلادي، وما أحدثه من أثر في الغرب من ناحية التفكير

إذن؛ الجدل الدائر في اعتبار علم اللغة طبيعيًا أو اجتماعيًا؛ قديم، ولكنه لم يظهر مشكلة إلا في القرن التاسع عشر الميلادي بعد نشأة العلوم الطبيعية، وازدياد أهمية العلوم الاجتماعية، فقد كان الإغريق في مناقشاتهم الفلسفية يعتمدون على آراء يمكن تفسيرها اليوم على أنها تعارض وجهة النظر القائلة إن علم اللغويات من فروع العلوم الاجتماعية، كما هي الحال عند أفلاطون، ومن جانب آخر؛ نجد تحيزًا واضحًا تجاه الرأي القائل إن اللغة تقليد اجتماعي، وإن لكل مسمى - إن كان شيئًا أو عملاً - اسمًا؛ لأن الناس اتفقوا على أن هذا الاسم رمز للشيء المسمى، وقد اعتمد أرسطو هذا المفهوم عندما عالج اللغة على أنها رابطة اجتماعية، وتتفق أغلبية علماء اللغويات الوصفيين اليوم على هذا المفهوم، فاللغويات تتبع العلوم الاجتماعية في أكثر الأحيان؛ إذ إن تطورها ونشأتها يعتمدان على نشاط الأفراد والجماعات الذي يخضع لكل أنواع المؤثرات الاجتماعية.

والواقع أن الجدل في اعتبار اللغة ظاهرة طبيعية أو اجتماعية يُعدُّ لغوًا لا جدوى فيه، فاللغة تنتمي إلى كل من العلمين طرفي النزاع، وعلى الباحث أن يختار الجانب الذي يستهويه من جوانب اللغة، ويركز عليه اهتمامه وجهده، مع اعتبار أن للجانبين - الطبيعي والاجتماعي - الأهمية نفسها في دراسة اللغات، ولا يعبأ بالفصل بين اعتبار اللغة جزءًا من العلوم الاجتماعية أو العلوم الطبيعية إلا المشرفون على التعليم عند وضع برامجهم؛ إذ يكون هذا العمل مبنياً على أسباب تربوية وإدارية صِرْفٍ.

وعلى الرغم مما في الخلافات بين اللغويين إبان القرن التاسع عشر الميلادي من مرارة وعنّفٍ وجدال؛ أتت بفوائد كثيرة؛ منها تأكيد الحاجة إلى الدراسات الدقيقة للظواهر اللغوية، وتركيز الاهتمام بالبحث في اللهجات المحلية، والاختلافات الكثيرة بينها، كما يمكن القول إن هذه الخلافات قد أدت بطريق غير مباشر إلى الاهتمام بدراسة التوزيع الجغرافي للسّمات اللغوية، ومن ثم؛ رسم الحدود والخرائط كما حدث في ألمانيا عام (١٨٧٦م) على يد فينجر (G. P. Vinegar)، وفي فرنسا على يد جيرونا (G. Girona)، وفي أمريكا عام (١٩٣٠م) وما بعده على يدي كوارث (H. Kwarth)، وفي بريطانيا بين عامي (١٩٧٨-١٩٥٠م) على يد أورتن (H. Orten)، واهتم المستشرقون أيضًا برصد اللهجات العربية العامية في مناطق مختلفة من العالم العربي لأسباب مختلفة.

ومن ثم؛ يمكن قول إن الدرس اللغوي اليوم مدين إلى القرن التاسع عشر الميلادي؛ لما استكمله هذا الدرس عبر هذا القرن من آثار ذلك العصر، ومدين إلى الرومانسية الألمانية بخاصة، وداعيتها الأشهر همبولت وما قدمه لعلم اللغة في زمانه من مفاهيم رائعة للدراسة اللغوية المعاصرة، تَلَقَّها نوابغ القرن العشرين الميلادي؛ ليصعدوا بها درجات أخرى من الرقي والنضج، فظهرت قضايا لغوية جديدة، أو انتقلت هذه القضايا إلى مقدمة الساحة، ومن ذلك مثلاً غلبة طابع البحث في اللغويات العامة والوصفية، ودراسة العوامل التي تؤثر في اللغات في آنٍ معاً، وأن علم اللغة

^١ انظر: علي، عاصم شحادة، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة للمتخصصين في العربية وآدابها: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م)، ص ١٢.

المتأثر بالدراسات النفسية والاجتماعية الناشئة حلّ محل علم اللغة الذي تأثر بعلوم الحياة والتاريخ.^١

٢. علماء اللغة في القرن العشرين الميلادي

(أ) دي سوسير:

ساعد رائد البحث في اللغويات دي سوسير على تعجيل حلول ساعة النظريات الشاملة الكبرى؛ إذ يرى اللغة أساس ظاهرة اجتماعية تنبغي دراستها في ضوء علاقتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية، وأنها دارة تشمل: المسموع، والملفوظ، والمتصدر، وهي تحرك قسماً نفسياً، وآخر وظيفياً، وتستمد قاعدتها من ذاتها، وأن جميع المؤثرات فيها ترجع إلى المجتمع والظواهر الاجتماعية، ولا يختلف هذا المفهوم اختلافاً كبيراً عما نادى به هببالت من قبل، إلا أن دي سوسير قد ذهب في بحثه إلى أبعد مما ذهب إليه هببالت، وقاده هذا التمثل الاجتماعي للغة إلى تأكيد حقيقتين:

أولاهما إصراره على أن هناك فرقاً واضحاً بين اللغة والكلام، فاللغة نظام تشترك فيه مجموعة من الأفراد، وهي من طبيعة الاجتماع الإنساني في المكان والزمان المعينين، وتخضع لهذا الاجتماع وحده، في حين أن الكلام مجموعة من الأصوات يقوم متحدث واحد بصياغتها، وهو عمل فردي خاضع لمؤثرات شخصية؛ أي إن اللغة عامة، والكلام فردي، واللغة تحدد بالهدف الذي ترمي إليه، وهو قيامها بدور التواصل معتمدة على أساليب مختلفة تتحدد بأنظمة متميزة إلا أنها متقاربة.

وللبرهنة على هذه الفرضية يذكر الباحثون قضية الترجمة من لغة إلى أخرى؛ إذ تسمح بالتعبير العام الذي تتفق عليه اللغات، بينما الكلام قضية فردية، فنحن عندما نترجم من لغة إلى أخرى لا نترجم الكلام، وإنما نترجم اللغة، فالعربية مثلاً يمكنها أن تترجم إلى أي لغة شئنا؛ ولكن لا يترجم كلام فرد من الأفراد؛ لأن اللغة قانون عام اتفاقي قائم على أعرافٍ دأب الناس على استعمالها منذ القديم، فأصبحت لغة، والكلام يختلف من فرد إلى فرد، ويتحدد باستعمال الجهاز الصوتي، وفيزيولوجية الأفراد في التعبير عن مكونات نفوسهم، فهو خاص، ولذلك نترجم اللغة إلى كلام، ولكن العكس غير صحيح.

والحقيقة الثانية تأكيد دي سوسير مفهوم النظام، فاللغة نظام تشترك فيه المجموعة الناطقة، ومن هنا منح اللغة دقة جعلتها تُرادف تقريباً "القانون"، فللغة نظام خاص يتصرف بموجب قوانين تحرك حياة الدوال اللغوية، ويسمح بالتعبير وإرسال ما تحتاجه المجموعة الناطقة في شؤونها ونشاطاتها الاجتماعية، وبذلك يشير دي سوسير إلى أن اللغة أهم شيء في نظام الرموز، ويتسببها اللغة جعل علم اللغة متميزاً إلى حد ما عن علم "السيمياءية" (Semiology).

^١ انظر: سامبسون، المدارس اللغوية، ص ٤٤-٤٥؛ دوركايم، إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م)، ص ٢٣، وقد ذكر دوركايم مفهوم الحقائق الاجتماعية التي تعبر عن الأفكار في العقل الجمعي لمجتمع ما، ومنها الظواهر الاجتماعية في الملابس والأعراس والنظام القضائي.

وقد أكد مارتيني رأي دي سوسير هذا، وأصرَّ على أن اللغة الإنسانية لا يمكن أن يماثلها نظام تواصلية آخر، فعلى الرغم من الجهود التي بُذلت لدراسة لغة الحيوانات؛ لم تصل في نهاية المطاف إلا إلى خلق فرع جديد في ميدان علم السيميائية، ولم تتمكن من إدماجها فرعًا من فروع علم اللغة العام.

(ب) تلاميذ دي سوسير:

استمر تلاميذ دي سوسير وأتباعه؛ من مثل: مييه، وبالي (Bali)، وفندريس (J. Vendryes)، وغيرهم في دراسة علم اللغويات وفق منهج وصفي لا تاريخي، مهتمين بذلك في دراسة الصوتيات، والاشتقاق، والتراكيب؛ أكثر من اهتمامهم بالبحث عن أصول الكلمات ومعانيها؛ إذ بدأ الاهتمام باللغات الأدبية المكتوبة يبرز وتبرز معه معطيات فرع جديد من فروع الدراسات اللغوية، وهو علم الجغرافيا اللغوية الذي بدأ يُؤتي ثماره عندما ظهرت الأطالس اللغوية التي تعطي صورة شاملة لتوزيع اللهجات المختلفة.^١

(ج) ياكسون ومدرسة براغ:

عام (١٩٣٠م)؛ ظهرت أول دراسة منهجية في تاريخ الأصوات اللغوية؛ أعدّها ياكسون الذي كان من أبرز رواد مدرسة براغ التي اعتمدت نظرية الصوتيات في تفسير اللغة وظيفيًا على أساس التركيب الصوتي لها؛ أي وضع خصائص لغة ما على أساس التقابلات بين الأصوات التي تميز الكلمات بعضها من بعض، وليس على أساس دور الوترين الصوتيين أو سقف الحلق مثلاً، فكل صوت في لغة ما يُدرس على أنه مجموعة من الملامح التي تميزه من سائر أصوات اللغة، وتضعه في مكانه من جداول القيم الخلافية في علاقاته بها، وبهذا تصبح بنية الأصوات محور الدراسة لا طريقة إنتاجها بخاصة.

(د) ساير وورف وبلومفيلد:

ثم ظهرت المدرسة الأمريكية أو مدرسة الإناسيين، ومن روادها ساير وبلومفيلد، وقد رفضوا التعامل مع المعطيات اللغوية التي لا تخضع للملاحظة المباشرة، فاللغة عند بلومفيلد سلوك مادي يجب أن يخضع للقياس المادي، وكأنه قد تأثر في ذلك بالعلماء النفسانيين السلوكيين من مثل واطسون (Watson) مبتدع علم النفس السلوكي، ونتيجة لذلك؛ أصبح الحدث اللساني عند بلومفيلد سلوكًا يتمثل في ردّ فعل على مشير خارجي.

^١ انظر: دي سوسير، فرديناند، فصول في علم اللغة العام، نقله من الإنجليزية: أحمد نعيم الكراعين (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)؛ دي سوسير، فرديناند، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح الفرماوي، محمد عجينة، مجيد النصر (طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥م)؛ دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام (من الفرنسية)، وقد تأثر دي سوسير بثلاثة علماء لغويين من قبله؛ هم: وبتني الذي طرح مفهوم القانون اللغوي والنظام اللغوي والبنية اللغوية، وهو من المفاهيم التي قام عليها علم اللغة الوصفي، مما دفع دي سوسير إلى الأخذ بمبدأ اللسانيات الوصفية (السانكرونية)، وبعده وبتني اللغة مؤسسة اجتماعية، والعالم الثاني هو دي كورتينييه، وقد تأثر دي سوسير به في تحديد الوحدات اللسانية وتصوّر اللغة نظامًا من الخلافيات، والعالم الثالث هو بيرس الذي تحدث قليلاً عن الدليل اللغوي، مما أثر في دي سوسير في بناء علم السيميائيات. انظر: الحناش، محمد، البنيوية في اللسانيات (الدار البيضاء: دار الرشاد، ١٩٩١م)، ص ١٨١-١٨٢؛ الحسيني، محمد علي، علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق (طهران: سلسلة كتاب التوحيد، ط ١، ١٩٩٧م)، ص ١٨.

وعند ساير وتلميذه ورف أن اللغة تفرض على المجموعة البشرية رؤيتها للعالم، وتؤثر في عادات المتحدثين بها، فاللغة التي اعتاد الإنسان التحدث بها تؤثر في طريقة تفكيره وسلوكه، و الفروق اللغوية تعود إلى البنية العقلية المختلفة لدى الأفراد والجماعات، فقد لاحظ ساير في إحدى قبائل أمريكا - وتحديدًا في مدينة كاليفورنيا - أن الرجال والنساء يستعملون أشكالاً نحوية ومعجمية متميزة، بما يتفق وعقليات هذه المجموعات.

أما بلومفيلد فقد نشر عام (١٩٣٣م) كتابه "اللغة"، وعرض فيه أسس لسانيات تقوم على المنطق السلوكي الممثل في أن اللغة قائمة على الدوافع وردود الأفعال، وهذا المنطق جعل بلومفيلد لا يعتبر في اللغة إلا مظهرها الحسي.

ولعل أبرز ما يعيننا من معطيات المدرسة الأمريكية ظهور ما يسمى "مبدأ الشبوع اللغوي" الذي يقرر أصحابه أن اللغة الصحيحة هي التي يتحدثها الناس، لا التي يعتقد شخص آخر أنه يتحدثها، فلبشويو الاستعمال قدسية تتضاءل عندها قوانين النحويين، وكل تجديد وتطوير في اللغة يجب تشجيعه إلى أقصى درجة، ولغة العامة واللهجات المحلية الأهمية العملية نفسها التي تحظى بها اللغة القياسية، وعليه؛ ينبغي لنا اعتبار اللغات على مستوى واحد، بصرف النظر عن انتشارها وما أسهم به المتحدثون بها من أعمال في سبيل تقدّم الحضارة البشرية.

(هـ) مار وستالين:

وفي القرن العشرين أيضًا ظهرت المدرسة اللغوية الماركسية التي تتبع تعاليم مار (N. Marr) الذي ذكر أن اللغة بنية اجتماعية فوقية، ورفض الحديث عن التطور اللغوي بعيدًا عن القفزات الجدلية للتغيرات اللغوية، فنتائج هذه القفزات اللغوية والنظريات المتعلقة باللغة، والتطور اللغوي؛ يجب أن تأخذ في الحسبان خطأً متوازيًا للتتابع في التكوين الاجتماعي والاقتصادي، وما يلبس هذا التكوين من متغيرات تؤثر تأثيرًا حاسمًا سريعًا في اللغة، فبعد تفجير الجماعة الناطقة اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا؛ يمكن في رأيه أن نضع ترتيبًا جديدًا للغة، ومن ثم؛ تقتضي التغيرات التي تقع في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ أن يزول البناء اللغوي القديم، أو يتغير تغييرًا جذريًا، فاللغة على هذا الأساس ظاهرة اجتماعية طبقية.

وقد نقض ستالين (Iosif Vissarionovich Dzhugashvili Stalin) بعد ذلك آراء مار، ورأى أن اللغة ليست نتاج حقبة محددة، وإنما هي نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع، والبناء السفلي لعدة قرون، فليست من صنع طبقة معينة، وإنما هي صنع كل المجتمع بطبقاته، ونتاج جهود مئات الأجيال، فهي أداة للتواصل بين أبناء الأمة الواحدة أو الشعب الواحد، لا أداة في خدمة طبقة على حساب الطبقات الأخرى، ويضرب ستالين مثلًا لتأكيد رأيه؛ إذ يرى أن المجتمع الروسي واللغة الروسية قد عرفا أوائل القرن العشرين الميلادي نظامًا جديدًا في الحياة استبدلت في ضوئه مؤسسات سياسية وحقوقية وغيرها بالمؤسسات القديمة، بيد أنه اللغة الروسية ظلت من حيث الأساس كما كانت قبل ثورة أكتوبر، ويمكن القول إن معجم اللغة الروسية قد تغير؛ أي إنه اغتنى بعدد ملحوظ من المفردات والتعابير الجديدة التي ظهرت متطابقة مع النظام الجديد والثقافة والعلائق الاجتماعية الجديدة، ومتطابقة أيضًا مع

تطور العلم، وكثرة نشاطاته، وقد وضح ذلك في تغيير معاني كثير من المفردات، واكتسابها دلالات جديدة، وحذف مفردات أخرى من المعجم، وغير ذلك من مظاهر التغيير، أما فيما يتعلق بالأرومة الأساس للمفردات والنظام القواعدي للغة الروسية - وهما يؤلفان أساس اللغة - فظلاً بعد زوال البنائين الاجتماعي والسياسي القديمين بعيدين عن الزوال، وعن أن تُستبدل بهما أرومة جديدة، أو يخضع لأي تغييرات حاسمة، فبقيا أساساً للغة الروسية الحديثة، أما ما يخص التطور اللاحق من لغة العشيرة إلى لغة القبائل، ومن لغات القبائل إلى لغات القوميات، ومن لغات القوميات إلى اللغات الوطنية، ففي كل مكان، وفي كل مراحل التطور؛ كانت اللغة أداة للتواصل بين سكان المجتمع وترافقها لهجات ولغات إقليمية ورطانات وعاميات، بيد أنها مع هذا كله تبقى خاضعة تابعة للغة الواحدة المشتركة للقبيلة أو القومية، ومن ثم؛ من الصواب عندنا ما تراه المدرسة اللغوية الروسية من أن اللغة وسيلة للتواصل الإنساني؛ كانت وما زالت الوسيلة المثلى لكل أعضاء المجتمع الناطق بها، وإن وجود اللهجات والألسن الخاصة لا ينفي وجود لغة مشتركة للشعب كلها، وإنما يُثبتها، وما اللهجات والألسن الأخرى إلا فروع من اللغة تابعة لها، ومن الخطأ الذي يقترفه بعض الباحثين ألا يميزوا بين اللغة والحضارة، فلا يدركون أن الحضارة تتغير في المضمون مع كل مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع، بينما تبقى اللغة من حيث الأساس نفسها خلال مراحل عدة تخدم الحضارتين القديمة والجديدة.

(و) مالينوفسكي:

دعا عام (١٩٣٠م) إلى نظرية جديدة تجمع اللغة والمجتمع هي النظرية اللغوية العرقية (الإثنوغرافية)، فعندما كان يدرس بعض المجتمعات التي اصطلح عليها "المجتمعات البدائية"؛ أدرك أن دراسته هذه لن تصح من دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع، وقرر "أن اللغة لم تكن وسيلة فقط للتفاهم والتواصل، فهي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، وإنها جزء من السلوك الإنساني، وهي ضرب من العمل، وليست أداة عاكسة للفكر، وهو يرى أن العمل الإنساني هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية"^١ وتبرز نظريته في الصلة بين العمل واللغة أكثر حين يرى أن مواقف العمل تعمل على تنويع اللغة، وهو يسجل في دراساته مختلف قبائل أستراليا وجزر الهند الغربية؛ أن للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقا لغة الزراعيين، والألفاظ تدور في سهولة وخفة مع العمل اليسير، وتتعدد بتعدد العمل.

^١ انظر: سامبسون، المدارس اللغوية، ص ١١٠؛ الخولي، محمد علي، علم اللغة النظري: إنجليزي عربي، عربي إنجليزي (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٨٢م)، ص ٩٥.

(ح) برنشتاين:

في ميدان العوائق اللغوية الاجتماعية الذي يُعدُّ ميداناً مهماً من ميادين علم اللغة الاجتماعي؛ برز اللساني الإنجليزي برنشتاين (B. Bernstein) الذي أدار أكثر بحوثه في الإخفاق المدرسي وأسبابه، ورأى أن التلاميذ المنحدرين من الأوساط الشعبية يُعانون عائقاً خاصاً يعود إلى لغتهم، فالنمط التعبيري الممارس في المدرسة لا يتلاءم مع النمط التعبيري الذي يسيطر في الأسر المحرومة من الثقافة، ورأى برنشتاين طريقتين رئيسيتين للكلام وضَّحهما بالتجربة التي عرض فيها صوراً متحركة على مجموعة من أطفال المدارس مختلفي الطبقات الاجتماعية، فوجد أن بعضهم يحكي بصوت عارف بتلك الرسوم المتحركة أمام إنسان بالغ يتابع بدوره حكاية تلك الصور في الكتاب، وأن بعضهم لا يعبر إلا عن عدد قليل عما تشير إليه تلك الرسوم من معان وأفكار ودلالات، وذلك بسبب تصوُّرهم أن المخاطب يعرف ما يقولون، وهذه المحاولة التي لا تشير إلا إلى مجموعة قليلة من المعاني التي تحكيها الصور التي تُعرف بـ"القانون الناقص"، أما الأطفال الآخرون الذين يصفون مضمونها الكامل، ولا يتركون شاردة أو واردة فيها كأنما المخاطب لا يعرف شيئاً عن مضمونها، فتُعرف بـ"القانون المهيأ"، ويظن برنشتاين أن الأطفال المنحدرين من الأوساط المحرومة ثقافياً ومادياً ليس لهم سوى استعمال "القانون الناقص"، بينما الأطفال الذين ينتمون إلى الطبقات العالية يستعملون القانونين بسهولة، ولا يؤكد برنشتاين أن كل طبقة اجتماعية تملك لغة خاصة فحسب، وإنما تتنوع العلامة اللغوية أحياناً حسب الأسرة، ولا سيما نسبة ما توليه من اهتمام بتربية الأطفال.

ويرى برنشتاين في هذا المقام أن التأثير متبادل بين شكل الخطاب والمتعلم، والكلام المستعمل وسيلة أساس من وسائل الفرد في استنباط القواعد الاجتماعية، ولما كانت هذه القواعد تتنوع من وسط إلى آخر؛ وجدنا تمايزاً كبيراً يقع بين الأطفال حتى قبل دخولهم المدرسة، وفي الطبقات الراقية يكون الخطاب في غاية الأهمية؛ إذ إن الطفل يعتاد بسهولة معرفة معاني الكلمات، وإعادة صياغة التراكيب الخاطئة، وابتداء من عام ١٩٦٤م، أعطيت هذه المسلمة اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية برنامجاً تربوياً موجهاً بخاصة إلى الأطفال السود، فقد تأكد تحلُّف هؤلاء الأطفال عن أقرانهم لغوياً.

وهكذا نجد أن دراسة القضايا اللغوية في ضوء العلوم الاجتماعية، واتصال علم اللغة بعلوم كثيرة كالجغرافيا، والسلالات، والنفس، والإحصاء، والفيزياء، وغيرها؛ قد أدى إلى نشأة فروع لغوية جديدة أحدثها وأوسعها "علم اللغة الاجتماعي".^١

ولم يقتصر التحليل الاجتماعي للغة على علماء اللغة والاجتماع تماماً، وإنما تناوله كذلك علماء الإناسة، فهم يأخذون اللغة على أنها جزء لا يتجزأ من الثقافة، ولا ينظرون إلى اللغة منعزلة عن الحياة الاجتماعية البتة، وجهودهم في التحليل اللغوي لا تعدو أن تكون وسيلة لغاية، فهي وسيلة تمكنهم من الوصول إلى نتائج من شأنها

^١ انظر: نحر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ٢٦-٤٣.

بيان قضايا ومشكلات إنسانية أوسع.

مما تقدّم عن الاهتمام باللغة وعلاقتها بالمجتمع؛ نخلص إلى أربع نقاط مهمة توضح حدود التقابل أو التخالف بين اللغويين الاجتماعيين (Sociolinguists) والاجتماعيين اللغويين (Linguistic Socialists) والإناسيين اللغويين (Linguistic Anthropologists)؛ إذ يتقابل الفرقاء الثلاثة في نقطتين مهمتين؛ هما:

- تطابق ملحوظ بينهم في فكرة التفاعل الدائم بين اللغة والمجتمع.
- الاهتمام الفائق بالكلام لا باللغة.

ويتخالفون في نقطتين؛ هما:

- درجة الاهتمام ومنطلق الدراسة؛ فاللغويون ينظرون إلى اللغة وينطلقون منها بغية الوصول إلى نتائج علمية دقيقة بوصف اللغة ظاهرة اجتماعية، أما الفريقان الآخران فينطلقان من حقوقهما العلمية الاجتماعية الإناسية، وكثيراً ما يتلاقيان في الطريق، ويأخذان اللغة ومادتها المتنوعة وسيلة لغاية هي الكشف عن اهتماماتهما الاجتماعية والإناسية الأوسع مجالاً والأكثر تنوعاً.
- منهج الدرس وطرائق التحليل؛ فالمنهج يختلف حسب الحرفة ورؤيته وهدفه، ومن ثم تأتي نتائج كل فريق متسقة مع نظريات مجاله وحقل تخصصه الأصلي.

أما أسباب الاختلاف بين المدارس اللغوية في دراسة اللغة، فمنها:

١. أن اللغة مرآة الإنسان، بل هي الإنسان نفسه، والإنسان سلوكاً وفكراً ومادة وعقلاً كائن معقد، من أي جهة نظرت فيه وإليه وجدت جديداً يستحق النظر والتفكير، ومن ثم جاءت الدراسات اللغوية متنوعة بتنوع تلك الجوانب بالنظر إلى الإنسان نفسه، من مثل: علم اللغة الفلسفي، وعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة السياسي، وعلم اللغة التربوي، وعلم اللغة الحيوي (البيولوجي)، وعلم اللغة الديني.

٢. اختلاف الزمان والمكان، فقد كان الإنسان في البدء يتعامل مع لغته بوصفها أصواتاً يتلهى بها ويقضي بها حاجاته البسيطة البدائية الضيقة، ولما تقدم به الزمن، ونما فكره؛ رأى في لغته سرّاً معجزاً يكمن خلف هذه الأصوات الزاعقة، فوجّه إليها نظره متفكراً، فأخضعها للفلسفة والمنطق، أو درسها في نطاق هذين العلمين، وكلما سار به الزمن، وتراكمت شؤون الحياة من حوله؛ قلب لغته من زواياها المختلفة؛ ليربط بينها وبين هذه الشؤون المتنوعة؛ النفسية، والاجتماعية، والسياسية، والتربوية، وغيرها.

وللمكان أيضاً دور في اختلاف وجهات النظر إلى اللغة، فاختلاف البيئات وما يجري فيها من اختلاف الأجناس، وما تتعارف عليه من نظم سياسية واجتماعية وثقافية وحضارية وتربوية وغيرها؛ هذا الاختلاف لا بُدَّ من أن ينعكس على طرائق التفكير وأساليب التعامل في الحياة، أو مع اللغة والإنسان، فللشرق أسلوبه، وللغرب أسلوبه، وللأمريكيين أسلوبهم، وللأوروبيين أسلوبهم، وللهنود أسلوبهم، وهكذا.

٣. اختلاف مناحي الفكر وأنماط الثقافة وضروب المعرفة السائدة في المجتمع المعين، كما يدور أساساً مع الأهداف التي يرمي إليها الدارسون، من مثل:

- تأثر دي سوسير بفكرة دوركايم في ثنائيته "العقل الجماعي والعقل الفردي".
- تأثر بلومفيلد بالسوق العلمية الثقافية الأمريكية.
- تأثر علماء اللغة العربية بفكرة التعيد اللغوي المشحونة بالأفكار الفلسفية والمنطقية، أو ما يسمى "المعيارية"؛ إذ اتسمت النظرية اللغوية العربية بالمعيارية، وقد نهجوا في تحقيقها مناهج متنوعة، وكان هدفهم الحفاظ على اللغة العربية من الانحراف.

ومعنى ذلك أن كل نظرية أو وجهة صالحة مقبولة في إطار هدفها، وفي حدود الزاوية المعينة التي يخصصها الدارس لعمله، ويفردها للبحث والتحليل، وليس يعني النظر إليها بعين النقد أنها غير مقبولة أو فاسدة؛ بقدر ما يعني أن فيها خللاً أو نقصاً، ولذلك كان علم اللغة الاجتماعي قادراً على معالجة العيوب وسد النقص الحاصل في النظريات اللغوية على اختلاف أوقاتها؛¹ يقول طه حسين: "نحن نشعر بوجودنا وبمخارجنا المختلفة وعواطفنا المتباينة، وميولنا المتناقضة حين نفكر، يعني أننا لا نفهم أنفسنا إلا بالتفكير، ونحن لا نفكر في الهواء ولا نستطيع أن نفرض الأشياء على أنفسنا إلا بصورة في هذه التي نقدرها ونديرها في رؤوسنا ونظهر منها للناس ما نريد ونحتفظ منها لأنفسنا بما نريد فنحن نفكر باللغة".²

فاللغة ليست رموزاً، ولكنها في الأساس منهج فكر ونظر وتصور، ومن أراد أن يتكلم باللغة ينبغي أن يفكر بها أولاً، فهذه اللغة تحمل فكر المتكلم وخبرته وحكمته، وهي لا تنفك عن التفكير، وبينهما علاقة وطيدة. والتواصل بين أفراد المجتمع يكون وفق عَرَضِ الفرد، فهناك من يتواصل مع الآخر بغرض العلاقات الاجتماعية، كالصداقة والزواج والأخوة والمصالح المشتركة، أو من أجل التقارب على أساس حُسن الجوار، أو قد يكون الغرض التعامل اليومي والتناصح، وطلب التأييد سياسياً واجتماعياً، وقد يكون التواصل للمكانة الاجتماعية والمدح أو الإشادة، وكلّ هذه القيم الاجتماعية التي يتم من أجلها التواصل أثبتت العلاقات القائمة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين، وهي قائمة منذ أن وُجدت اللغة والحياة الاجتماعية، فجوهر الإنسان يكون في لغته وحياته الاجتماعية عبر اللغة التي تُعدُّ من العوامل المؤثرة في المجتمع؛ تبقى ببقائه وتزول بزواله، وهي جزء من الحياة التي نشأت فيها. وتقوم اللغة بوظائف اجتماعية مهمة على مستوى الدول والشعوب من حيث التفاهم العالمي والتبادل الثقافي بينها، وتنقسم وفق ذلك إلى مستويات ثلاثة:

- **المستوى الثقافي:** يكون بنقل التراث الثقافي بين الأجيال عبر عبارات لها أبعاد ثقافية صِرْفٌ، ففي العربية مثلاً نقول: حلال، وحرام، وعيب، وغير ذلك، وفي الإنجليزية مثلاً نقول: pig (خنزير)، و Girl Friend (صديقة)، وأبعادهما الثقافية تختلف عن الأبعاد الثقافية في العالم الإسلامي أو العربي.

¹ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٣٩-٦٧.

² حسين، طه، مستقبل الثقافة في مصر (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ط ٢٠١٢م)، ص ٨٢.

- المستوى الاجتماعي: من حيث إن اللغة وسيلة التفاعل الاجتماعي والنمو الفكري.

- المستوى الشخصي: من حيث ما يقوم به الفرد من وظيفة الاكتساب والتواصل منذ الطفولة.^١

واللغة ظاهرة تتحقق في مجتمع؛ أي إن دراسة الظاهرة اللغوية تكون حين التفاعل اللغوي بين متكلم ومستمع على الأقل، وموقف لغوي يحدث فيه الكلام وتتوزع فيه الأدوار والوظائف وفق قواعد متعارف عليها داخل المجتمع، وهذا من الجوانب وثيقة الصلة بتعليم اللغة من وجهة نظر هذا العلم. أما المشكلات التي يعرض لها علم اللغة الاجتماعي فكثيرة ومتنوعة، ولا يعيننا حصرها في هذا المقام، ونكتفي بذكر أمثلة منها:

١. مشكلات التنوعات اللغوية في المجتمع الواحد، وموقع هذه التنوعات من اللغة المثالية أو المشتركة أو القياسية في حالة العربية.

٢. مشكلات التواصل اللغوي بين الأمم أو الجماعات التي تستخدم لغات مختلفة.

٣. مشكلات تؤدي إليها الثنائية أو التعددية اللغوية في الوطن الواحد.

٤. مشكلات تعامل الأفراد لغويًا وفق الظرف والمناسبة والحالة، وعلاقة اللغة بالثقافة.

ولا يستطيع علم اللغة الاجتماعي منفردًا أن يصل إلى حلول جذرية لهذه المشكلات، ولكنه في الوقت نفسه سبيل مؤثر من السبل التي تتضافر فيما بينها للوصول إلى نوع مقبول من هذه الحلول، فهو في أضعف الحالات يمدنا بمعلومات أولية من شأنها أن تعين الفرد وإمكاناته اللغوية: ماذا يستطيع أن يقول؟ وكيف يقول؟ وما وسائل هذا القول؟ ومن الذي يخاطبه؟ ومتى؟ وأين؟

إن جوهر العمل في علم اللغة الاجتماعي هو تنميط استعمالات اللغة اجتماعيًا، وهذا التنميط وما يتعلق به من ظواهر لغوية واجتماعية يُعدّ جزءًا من علم اللغة العام، ويعنى بدراسة تأثير العوامل الاجتماعية لطبقات المجتمع في لغة هذه الطبقات، ويهتم به ما يمكن أن نطلق عليه "المدارس اللغوية الاجتماعية"، وهي مدارس وظيفتها الأساس البحث في اللغة، ولكن من منظور اجتماعي، فمصطلح "علم اللغة الاجتماعي" أنسب في الاستخدام؛ لإطلاقه على هذه المدارس، في مقابل المصطلح العام "علم اللغة" من دون صفة "الاجتماعي"؛ لأنه هذه الصفة للتفريق بين المدارس التي تنظر إلى اللغة من منظور اجتماعي، وبين غيرها مما له منظور مغاير.

ومن هذه المدارس اللغوية الاجتماعية:

(أ) مدرسة دي سوسير:

افتترض وجود جماعات لغوية موحدة تمامًا، وتستخدم كل واحدة منها نظامًا لغويًا موحدًا، ومن ثم؛ تأتي وظيفة

^١ انظر: خرما، نايف، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨م)، ص ٢٠٩؛ شتا، السيد علي، علم الاجتماع اللغوي (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٦م)، ص ٦٤؛ جاسم، زيدان علي، دراسة في علم اللغة الاجتماعي (كوالالمبور: بوستاكا أنتنارا ماليزيا، ١٩٩٥م)، ص ٢.

علم اللغة العام متمثلة في تفسير هذه القواعد والضوابط وتوضيحها بدقة، وقوامها فكرة دي سوسير المتمثلة في ثنائيته المشهورة؛ اللغة (Langue)، والكلام (Parole)، فاللغة عند دي سوسير وتابعيه؛ مجموعة القواعد والضوابط اللغوية المخزونة في ذهن الجماعة صاحبة اللغة المعينة، واللغة بهذا المعنى وظيفة علم اللغة ومجال البحث فيه، أما الكلام فهو الأحداث الفعلية المنطوقة من الفرد المعين في وقت معين، والبحث فيه ليس من اختصاص اللغويين، وإنما وظيفة علماء النفس، فالكلام عند دي سوسير توظيف فردي لقواعد اللغة، وكثيراً ما يخرج هذا التوظيف عن القواعد المطردة المستقرة في أذهان الجماعة.

وقد قبلت هذه الفكرة بالرفض من اللغويين الاجتماعيين، فهم لا يخرجون الكلام من دائرة أعمالهم، بل إن بعضهم يكاد يحصر اهتمامه في هذا الكلام وتنوعاته على أساس أن هذه التنوعات كاشفة عن الهوية الاجتماعية للأفراد.

وقد كان دي سوسير وضع نظريته متأثراً بفكرة دوركايم المتمثلة في ثنائيته "العقل الجماعي والعقل الفردي"، فانطلق هو الآخر إلى ثنائيته "اللغة والكلام".

(ب) المدرسة البنوية الأمريكية:

لم تعتمد تلك النظرة الفاصلة بين علم اللغة وعلم اللغة الاجتماعي بخاصة، وإنما نظرت إلى اللغة نظرة مغايرة ما ذهب إليه دي سوسير وأتباعه، فاللغة عند روادها أحداث فعلية لا مجموعة من القواعد المجردة، ولم يفرقوا بين اللغة والكلام بالمعنى الذي حدده دي سوسير، وعلى الرغم من ذلك؛ اتبعوا المنهج السلوكي في علم النفس في التحليل اللغوي، ولم يعطوا التنوعات اللغوية الحادثة من الأفراد اهتماماً يذكر، ولم يحاولوا الكشف عن علاقة هذه التنوعات بالمجتمع مع اختلاف بيئاته، وكان من رواد هذه المدرسة بلومفيلد.

(ج) المدرسة التوليدية التحليلية:

ركزت جهودها على الجانب العقلي أو النفسي في دراسة اللغة، فاستبعدت في بدايتها علاقة اللغة بالمجتمع، وذلك لأن علم اللغة - كما يرى تشومسكي رائد هذه المدرسة - يعني أساساً بما يسمى "المتكلم السامع" المثالي في جماعة، كلامها موحد توحيداً كاملاً، ويعرف لغته معرفة تامة، وغير متأثر بأي ظروف شاذة خارجة عن قواعد اللغة عند تطبيق معرفته اللغوية في الأداء والكلام الفعلي، من مثل ضعف الذاكرة والتركيز، وتششت الانتباه، وفقد الاهتمام، والأخطاء العضوية وغيرها.

وقد استندت هذه الفكرة إلى ثنائية تشومسكي "الكفاءة والأداء"، فالكفاءة معرفة الإنسان لغته (العقلية)، والأداء هو التوظيف الفعلي للغة في المواقف الحياتية، ويرى أن أهم وظيفة لعلم اللغة دراسة الكفاءة، وعلى اللغوي أن يستعين بالأداء للكشف عن النظام العميق للقواعد، وهذه نظرية عقلية صرف، وتهمل الجانب الاجتماعي للغة.

أما تعليم اللغة في علم اللغة الاجتماعي فيكون عبر ما يأتي:

١. اللغة والثقافة: المقصود بها أنظمة التقاليد والعادات، والأفعال وردودها، فاللغة هي المميز الأهم لثقافة المجتمع، وتعليم اللغة يراعي خصوصيات المجتمع، سواء أكان تعليمها لأهلها أم لغيرهم.

٢. **المجتمع الكلامي:** المقصود به الاتفاق اللغوي مع كثرة الثقافات، كما هو الشأن في الإنجليزية التي تُعد اللغة الرسمية للعديد من الدول مع تنوع في الثقافات، وكذا هي الحال مع العربية في مجتمعاتها.

٣. **اللغة والاتصال:** الاهتمام بأنواع الاتصال المختلفة التي يطبقها كل مجتمع بطريقته الخاصة، ودراسة تأثير ذلك في تعليم اللغة.

٤. **الأحداث الكلامية:** اللغة حدث يجري وفق ضوابط اجتماعية محددة، والمقصود به مراعاة المقام الذي تتم فيه عملية التخاطب بين المتكلمين؛ فلكل مقام مقال.

٥. **الوظائف اللغوية:** تؤدي الرسالة التي تجري داخل الحدث الكلامي وظيفة معينة، وهناك وظائف عامة وخاصة لكل لغة؛ لأنها تعبر عن نظام ثقافي خاص بالمجتمع، ومنها الوظائف الآتية؛ التوجيه، والإحالة، والإبلاغ، والمجاملة، وهي مختلفة بعضها عن بعض، فلغة التحية والشكر تختلف من مجتمع إلى آخر.

٦. **التنوع اللغوي:** المقصود به الاختلاف بين اللغات، من مثل الاختلاف بين اللهجة والفصحى، وداخل كل منهما لغات مهنية تحدّد مصطلحاتها المهنية التي توظّف فيها.

وعند العرب كانت النظرية اللغوية معيارية؛ أي إنهم بنوا عملهم على أساس محاولة الوصول إلى مجموعة من القواعد والأحكام التي ينبغي اتباعها، ولا يجوز الخروج عنها إذا أراد المتكلم أن يأتي بكلامه صحيحًا فصيحًا، وأن ينجو من خطيئة اللحن والزلل، وهذا الهدف الأول الذين سعوا إلى تحقيقه وإقراره مبدأ واجب الأخذ به وتطبيقه في التوظيف اللغوي، وقد سلكوا مسالك شتى في إخضاع مادتهم للمبادئ الفلسفية والمنطقية والتعليل والتأويل والافتراض والوصف.^١

فضلاً عن ذلك؛ بدت فكرتهم عن لغتهم كما لو كانت جامدة لا تتطور، فقد قصرُوا مدة التقعيد على واقع اللغة في زمن معين ينتهي بمنتصف القرن الثاني الهجري تقريباً بالنسبة إلى الحضر، وبأواخر القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى البادية، في حين يبدأ ببداية انشغالهم بعلمهم أو قبل ذلك بقليل، ومعنى ذلك أنهم لم يراعوا مسيرة هذه اللغة في الأزمان السابقة، ولم يأخذوا في الحسبان ما قد يجد لها أو يلحقها من تغيرات وتطور في الأزمان اللاحقة. وربما كان لهم العذر في إخراج ماضي اللغة من الحسبان؛ إذ لا مصادر للمادة التي يأخذون منها؛ سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة، وقد يرجع إهمالهم هذا الماضي إلى اعتمادهم "تحديد مدة واجبة" مبدأ منهجياً لهم، وهو مبدأ جائز، بل هو الواجب عند الوصفيين من اللغويين المحدثين، وربما يؤيد هذه الفكرة - فكرة تحديد المدة - وفقهم الاحتجاج - أي الأخذ من اللغة - بعد هذا التاريخ الذي سجلناه سابقاً بالنسبة إلى الحضر والبادية، وهو ما يعني نهاية المدة التي خصصوها للدراسة.

وإذا كان مبدأ تحديد المدة واحداً من أهم مبادئ الوصفيين؛ فإنه من الصعب أن نحسب علماء العربية من الآخذين بالمنهج الوصفي في دقيق معناه؛ إذ إن النظر الوصفي في اللغة ينتظم شبكة من المبادئ الأخرى، من أهمها

^١ بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٣٣.

وصفُ الواقع اللغوي كما هو من دون النظر فيما وراء ذلك من العود إلى المنطق والفلسفة أو التأويل أو الافتراض... إلخ، وليس للوصف بهذا المعنى في التقعيد اللغوي العربي، وبخاصة في الصرف والنحو؛ ليس له نصيب ملحوظ يسوغ نَعَتَ نظريتهم بالوصفية، فتحديد المدة عند الوصفين لا يعني الوقوف بالتقعيد عند مدة زمنية معينة كما فعل اللغويون العرب، وإنما يعني عزل الحِقب الزمنية بعضها عن بعض، والنظر في كل مدة على حدة؛ تجنبًا للخلط والاضطراب الناشئين عن اختلاف الظواهر اللغوية بسبب التطور الذي يلازم اللغة في مسيرتها التاريخية، أما دراسة الحقب الزمنية متتابعة للنظر فيما جدَّ في اللغة من تغيرات وتطورات؛ فذلك شأن علم اللغة التاريخي.

على أننا لا ننكر وجود أمثلة من الوصف في بعض أعمالهم، كما يبدو ذلك متناثرًا في "الكتاب" لسيبويه، وفي بعض حالات عابرة سجلها بعض المتأخرين، كابن مالك في نحو قوله:

وَمَاضِي الْأَفْعَالِ بِالتَّاءِ مِزٌّ وَسِمٌّ
بِالنُّونِ فِعْلٌ الْأَمْرِ إِنْ أَمَرَ فُهُمٌ^١

وكقوله:

بِتَاءِ فَعَلْتُ وَأَتَتْ وَيَا أَفْعَلِي
وَأُنُونِ أَقْبَلَنْ فِعْلٌ يَنْجَلِي^٢

ومن قبيل الوصف أيضًا قوله في تعريف الفاعل بخواصه التركيبية:

الْفَاعِلُ الَّذِي كَمَرُفُوعِي أَتَى
زَيْدٌ مُنِيرٌ وَجْهُهُ نِعَمَ الْفَتَى^٣

وَقَدْ يُقَالُ: سَعِدَا وَسَعِدُوا
وَالْفِعْلُ لِلظَّاهِرِ بَعْدُ مُسْنَدٌ^٤

ولكن هذه الأمثلة ونحوها لم تكن تطبيقًا للمنهج الوصفي بقدر ما هي سبيل واحد من عدة سُبل درجوا على اتباعها؛ للوصول إلى معياريتهم التي بطبيعتها تضطر الدارس إلى أن ينحو أنحاء مختلفة مهما كان نوعها للوصول إلى الهدف المثالي الذي يصعب تحقيقه بسبيل واحد.

أما إهمالهم المدة التي وقعت بعد عصر وقف الاحتجاج؛ فلم يكن تطبيقًا للمنهج الوصفي كذلك، وإنما كان ذلك منهم لظنهم أن اللغة فسدت واختلط أمرها، وأصابها اللحن والتحرير بسبب اختلاط اللُسن واعوجاجها؛ نتيجة اختلاط الأجناس وتجاوز المستخدمين للغة - من العامة والخاصة - حدود الصحة اللغوية التي تصوّروها واعتدوها الدائرة التي لا يجوز الخروج عنها.

^١ ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: دار الكتب، د.ت)، ج ١، ص ٢٤.

^٢ المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢.

^٣ المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٢.

^٤ المصدر السابق، ج ١، ص ١٣.

وهذا المبدأ الذي حدّده نهاية لمدة الاحتجاج جمّده حركة التقعيد للعربية، وإن حاول بعضهم فيما بعد النظر في بعض الظواهر الحادثة نتيجة التطور الطبيعي للغة، ولكن من وجهة مختلفة هي أن هذه الظواهر لا تعدو أن تكون ضرباً من الخطأ أو الخروج عن القواعد الرسمية التي فرغوا من وضعها وتأصيلها، ومن ثمّ، ظهرت حركة لغوية أخرى تتمثل فيما عُرف بعد بحركة "التصويب اللغوي" المتمثلة آثارها في كتب اللحن، وما زالت هذه الحركة ممتدة حتى وقتنا هذا الذي نعيش فيه.

والملاحظ أن كل من أخذ بنصيب في هذه الحركة حاول جاهداً بطريق أو بأخرى أن يُنبّه - اعتماداً على ثقافته اللغوية بالدرجة الأولى - إلى مواضع الخطأ، أو أن يصوبها بالتأويل أو التعليل، أو أن يردّها إلى قاعدة فرعية أو جزئية تُعدّ في نظر بعضهم شاذة أو تعود إلى لهجة أو استعمال خاص.

ووقّف التقعيد عند مدة زمنية قصيرة - منتصف القرن الثاني أو أواخر القرن الرابع الهجريين - لم يمنعهم من التساهل أو التجاوز في مجال الألفاظ؛ إذ حكموا بصحة الألفاظ المستحدثة إلى مدة أوسع من تلك التي حدودها نهاية للتقعيد، والاحتجاج لقواعدهم التي ضبطوها، ورسموا حدودها.

كان هذا هو موقفهم من لغتهم بقصد استنباط أحكامها العامة وقواعدها الكلية التي تصونها من التفرق والتوزع، وتحميها من اللحن والتحريف، وهو موقف يبدو في ظاهره بعيداً كل البعد عن النظرة الاجتماعية في اللغة، ولم يأخذ في حسبانها أي تنوعات كلامية تبدو هنا أو هناك بوصفها آثاراً فعلية واقعية من آثار تنوع البيئة والجماعة والثقافة وسياق الحال الذي يقع فيه الكلام أيضاً؛ ذلك لأنهم لم يقتصرُوا في عملهم على النظر في بنية النص اللغوي لو كان شكلاً منعزلاً عن العوامل الخارجية التي تحيط به كما يفعل النيبويون أو الشكلاونيون والتحوليليون من الدارسين في العصر الحديث، وإنما أخذوا مادتهم اللغوية - على ما يبدو من معالجتهم لها - على أنها ضربٌ من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، وقد تتغير صورته بتغير هذا المحيط وتلك الظروف، كما فطنوا إلى أن للكلام وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي، وأن لهذه الوظيفة وذاك المعنى ارتباطاً وثيقاً بسياق الحال أو المقام وما فيه من شخوص وأحداث.

ظهر هذا كله في دراستهم، وإن لم ينصوا عليه مبدأ من مبادئ التقعيد، أو أصلاً من أصول نظريتهم اللغوية، وبدا واضحاً في تحليلاتهم ومناقشاتهم مادّتهم، ويصح لنا - كما قرّر دارس حديث - أن نُعدّ هذا الملمح الاجتماعي أصلاً يضاف إلى أصول نظرية النحاة العرب، فإنه أصل مستأنس لديهم باطراد، مستشعر في تحليلاتهم على نحو يمثل استخراجاً إحياءاً لأصل من أصولهم صدروا عنه، وإن لم يُصرحوا به تصريح اللسانيات الاجتماعية والحقول الملائمة لها في هذه الأزمنة، وما لنا نذهب بعيداً ونتناسى أهم دليل على احتفائهم بالنظر الاجتماعي إلى اللغة؛ ذلك لأنهم في جملة أعمالهم كانوا يعتمدون على الأخذ من الكلام الحي المنطوق، والكلام بهذه الصفة لا يُصور وقوعه أو حدوثه إلا في مسرح لغوي متكامل الجوانب من مرسل ومتلقٍ وظرفٍ وملابسات متعلقة بموضوع الحديث، ومن ثمّ؛ لا نستطيع الجزم بأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك الفرق الدقيق بين ما سمي في النظر اللغوي الحديث "اللغة" و"الكلام" بمفهوم دي سوسير.

نقول هذا؛ على الرغم من إشارات عابرة لهم مستخدمين مصطلحي "اللغة" تارة و"الكلام" مرة؛ يقول ابن جني مثلاً: "اللغة أصوات يُعَبَّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"، وفي "خصائصه" يوظف مصطلح "الكلام" في غير ما موضع، ويقف عنده أحياناً وقفات متأنية شارحاً مفهومه ممثلاً لمادته؛ كأن يقول: "فأما الكلام فكلُّ لفظٍ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل"، وكقوله أيضاً: "فكلُّ لفظٍ استقل بنفسه وجُنيت منه ثمرة معناه فهو كلام"^١.

وقد يؤخذ من كلام ابن جني هذا أنه يعي فرقاً بين مفهوم المصطلحين "اللغة" و"الكلام"؛ ولكن النظر الدقيق لا يستطيع أن يجزم بهذا التفسير؛ ذلك لأنه في تعريفه "اللغة" وظَّف مصطلح "أصوات"، والأصوات في جانبها الأدائي المعبر لا تكون إلا في الكلام المنطوق بالفعل؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى هذا الفيلسوف اللغوي ينهي عبارته في تعريف الكلام بقوله: "وهو الذي يسميه اللغويون الجمل"، ومصطلح "الجمل" ذو مفهوم تجريدي لا أدائي ينضم إلى جملة المصطلحات الأخرى الضابطة قواعد اللغة لا الكلام، ولكننا مع ذلك - بتناسي إدراكه أو إغفاله الفرق بين اللغة والكلام؛ على سَنَنِ القائلين بهذا الفرق - لا نزال نستشعر من هذه النصوص كلها أنه يوجه اهتمامه واحترافه بالمنطوق سميته "كلاماً" أو "لغةً"؛ لا فَرْقَ، وهذا بيت القصيد في مقامنا هذا؛ مقام إدراك ما بين "الكلام" وظروفه الاجتماعية من علاقات، وربما نزيد على ذلك فنقرر أن هذه النصوص ذاتها تشير في مبناها ومعناها إلى انشغال ابن جني بالجانب الأدائي الواقعي للغة، وهو الكلام في عُرْفِ الفارقين بين الجانبين.

ومما يؤكد احتفاء ابن جني بالكلام المنطوق عودُه إلى مصطلح "الكلام" مبيناً أصله اللغوي، ودلالته العامة في كلام العرب؛ إذ يقول في معرض التفريق بين "القول" و"الكلام": "القول تتحرك به الشفاه سواء أكان له أثر يدوم في حياة الناس أم لم يكن، وأما الكلام فهو من الأصل اللغوي الذي نفسه منه جاءت لفظة (كَلَم)، وهو الجرح، والمكلم هو الجريح، فالكلام هو ذلك الذي يجرُّ الجلود حَزًّا؛ ليدوم له في حياة الناس أثر، وليترتب عليه من ثمَّ فعلٍ يغير من صورة تلك الحياة"، وبدهي أن الذي يؤثر في حياة الناس، ويقع منهم موقعاً فاعلاً محدثاً بهم وبحياتهم شيئاً من التغيير؛ هو الخطاب المنطوق المعبَّر عنه باللفظ في كلام ابن جني السابق، وعلى هذا المفهوم نفسه جاء قول امرئ القيس:

وَلَوْ عَنْ نَأَا غَيْرِهِ جَاءَنِي وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ^٢

واللسان هنا، وإن كان يُطلق أيضاً على اللغة في عموم معناها؛ المقصود به "الكلام" الذي يُناظر أثره أثر اليد، وهي جارحة من الجوارح التي إن وُظفت أنجزت وغيَّرت، وقد يكون التغيير بالجرح، وكذلك اللسان (الكلام) يجرح في

^١ انظر: الموسى، نهاد، "نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية"، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الجزء ٤، العدد ١، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨٥م، ص ٣٩.

^٢ امرؤ القيس بن حجر الكندي، ديوان امرئ القيس، شرح: حسن السندي، ضبط: مصطفى عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٥، ٢٠٠٤م)، ص ١٥٥.

بعض حالاته.

ويدخل في إطار الاهتمام بالكلام (الخطاب المنطوق) ما يجري عليه سلوك العامة والخاصة جميعاً في المواقف الاجتماعية، من نحو قولهم: سامع كلامي؟ سمعت؟ اسمع أولاً... إلخ؛ إذ السماع أثر فيزيائي لأصوات منطوقة بالفعل تعمل عملها في ذهن السامع وسلوكه جميعاً، وعليه جاء قول كثير عزة:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ زَكَّعًا وَسُجُودًا^١

وقد يُستخدم مصطلح "الكلام" أحياناً في معنيين يصدقان على "اللغة" و"الكلام" في نظر القائلين بالتفريق بينهما، ومنه قول الأخطل:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا^٢

فالكلام في الشطر الأول قد يعني "اللغة" بمعنى القواعد والضوابط الكامنة في العقل (المعبر عنه هنا بالفؤاد)؛ ولكنه في الشطر الثاني قصد به الأحداث المنطوقة الفعلية، وقد يؤخذ من هذا البيت فكرة إدراك الفرق بين الجانبين، وهو إدراك - إن صح تحقُّقه عند قائله - يشير إلى لمحة ذكية أو تصوُّر عابر منه؛ صار فيما بعد نظرية علمية ذات شهرة عالية في البحث اللغوي الحديث، ولكننا مع ذلك؛ نأخذ مفهوم البيت بتفسير آخر هو الاهتمام باللسان (الكلام المنطوق) لا بالمخزون العقلي من ضوابط اللغة وقواعدها، فكأن الشاعر يريد ما يقول اللسان ويفصح عنه، ودليل هذا الاهتمام باللسان البنية اللغوية المسبوقة بالأداة "إنما" دليل الحصر؛ لبيان مزيد من الاهتمام وقصر الإفادة عليه.

فإذا انتقلنا إلى اللغويين المحترفين (النحويين)؛ تأكد لنا ما أردنا إثباته، وهو اهتمامهم بالمنطوق الذي ترتبط به الفائدة، ولا فائدة لمنطوق ما لم يُلَقَّ في مسرحه ومقامه الملائم له؛ يظهر هذا جلياً من افتتاحية ابن مالك "ألفيته" بقوله: "كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَأَسْتَقِم"، فالإخبار عن الكلام باللفظ دليل إرادة الملفوظ أو الخطاب المنطوق، ونعتُ هذا اللفظ بالمفيد؛ لبيان قيمته ودلالته، ولا تكون هذه القيمة ولا تتحقق تلك الدلالة إلا في سياق اجتماعي تتواءم جوانبه مع هذا المنطوق وبنيته اللغوية، وأهمُّ في الدلالة وأدُلُّ على هذا التفسير الذي رأينا تمثيله للكلام بصيغة الأمر (استقم)، فالأمر خطاب مباشر، والخطاب لا يُلَقَى في فراغ، وليس مجرد أصوات ترسل في الهواء أو تحاوراً مع النفس والعقل من دون أداء فعلي واقعي.

وربما يميل بعضهم إلى تفسير المصطلح "كلامنا" في سياق ألفية ابن مالك بأنه "اللغة"، بمعنى القواعد والضوابط، على أساس أن "الألفية" وصاحبها معنيان في الأساس بالتعديد ورسم الضوابط اللغوية لا الأحداث النطقية الواقعية، وحينئذ يكون توظيفه هذا المصطلح قد انصرف إلى مفهومه الآخر، وهو "اللغة" على ما جرى عليه

^١ كثير عزة، عبد الرحمن بن الأسود، ديوان كثير عزة، شرح وتحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٠م)، ص ٢٣.

^٢ الأخطل، غياث بن غوث، ديوان الأخطل، شرح: مهدي محمد ناصر الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٩٤م)، ص ٣٢.

استعمالهم له أحياناً، كما ورد في الشطر الأول من البيت السابق: "إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ..."، ونقول إن هذا تفسير وارد وفرضية مقبولة في سياقها العام، ولكن يناع صحة هذه الفرضية سياق العبارة التي انتظمت هذا المصطلح "كلامنا"، فقد فسّرهُ وأخبر عنه باللفظ المفيد، وهو تفسير ينصرف في الحال إلى الخطاب المنطوق.

ولنا أن نقدم فرضية أخرى تتقابل مع الفرضية السابقة في شيء، وتتخالف معها في شيء آخر، فمن الجائز تفسير "كلامنا" بـ"اللغة" في عبارة ابن مالك وفق الاستعمال العام أحياناً، ووفق دور الرجل في ألفيته؛ أي التقعيد ورسم الضوابط، ولكن ذكائه وفطنته قاداه إلى إدراك أن قواعد اللغة وضوابطها لا تُستخلص ولا يمكن الحصول عليها إلا من مادة واقعية منطوقة هي "الكلام"، ومن ثمّ؛ تدارك الأمر، وأتبع مصطلحه هذا "كلامنا"، وعيّن مقصوده بـ"اللفظ"؛ أي الملفوظ المنطوق، وتفسيرنا هذا يأتي على وفاق تفسيرنا مقولة ابن جني السابقة: "اللغة أصوات يُعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"، فعلى الرغم من توظيف مصطلح "اللغة" صراحة، فإن سائر العبارة يشير من غير التواء إلى احتفائه بالمنطوق المعبر عنه بالأصوات في العبارة ذاتها.

وتفسيرنا هذا الذي ذُكر لعبارات هذين الكبيرين يتمشى جملة وتفصيلاً مع آراء جمع من الثقات المحدثين الذين يعرفون "اللغة" بأنها "أصوات تُعبر عن معانٍ"، والحقيقة أن اللغة - مهما اختلف الدارسون في تحديد مفهومها - قوامها وعمادها الأصوات؛ أي الكلام المنطوق، والغاية أن قومًا منهم يركّزون في عملهم على ذلك الجانب المستخلص من هذه الأصوات، وقد سموه "اللغة"، وآخرين همُّهم الأول والأخير دراسة هذا المنطوق نفسه الموسوم "الكلام" عند بعضهم، فالقبيلان لا ينكران هذا المنطوق ولا حقيقته، وإن كان فريق منهم لا يأخذه في الحسبان أخذاً مناسباً في دراسته وفق رؤيتهم الخاصة، وتساوفاً مع منهجهم الذي اختاروا.

كل هذا الذي ذكرنا يدعم قول إن لعلماء العربية نظرة اجتماعية إلى اللغة؛ ظهرت آثارها في أعمالهم نظراً وتطبيقاً، ويكفي أن نشير هنا إلى أمثلة من هذا النظر الذي وقع من اللغويين المحترفين في مدة التقعيد أو ممن بعدهم من ذوي الحرفة والصنعة، أو غيرهم من المفكرين والأدباء ورجال البلاغة؛^١ أما اتجاه الدراسة اللغوية الاجتماعية فهو ما يسلكه علماء الاجتماع، وهم لا يدرسون اللغة بذاتها أو لذاتها، وإنما يأخذونها على أنها مادة ثرية لها أهميتها في توضيح الظواهر الاجتماعية وتفسيرها تفسيراً أدق وأعمق، فمهمة علماء الاجتماع في هذه الحالة تُوجّه في الأساس إلى بيان مشكلاتهم بالاعتماد على اللغة وطرائق توظيفها.

أسئلة ومراجعات

١. اعتبار اللغة ظاهرة طبيعية أو اجتماعية؛ يُعدُّ لغواً من غير جدوى؛ بيّن هذا في خمسة سطور.
٢. درس اللغوي اليوم مدين إلى القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين؛ لما استكملة هذا الدرس عبرهما من آثار؛

^١ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٣.

اشرح هذه العبارة في فقرة واحدة فقط.

٣. من المدارس اللغوية في القرن العشرين الميلادي مدرسة براغ، وبعيننا منها نظرية أصحابها القائلة إن اللغات يؤثر بعضها في بعض عن طريق الاتصال الجغرافي والتاريخي، مما يجعلها تتطور معاً بطرق متشابهة، مما المقصود بهذا التعريف في علم اللغة الاجتماعي؟

٤. اذكر أربعاً من المشكلات التي يعرض لها علم اللغة الاجتماعي.

مراجع أولية للمطالعة

- بشر، كمال محمد، دراسات في علم اللغة (القاهرة: دار المعارف، ط٦، ١٩٨٠م).
- خرما، نايف، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨م).
- عبد السلام، أحمد شيخو، اللغويات العامة: مدخل إسلامي وموضوعات مختارة (كوالالمبور: دار التجديد، ط٢، ٢٠٠٦م).
- علي، عاصم شحادة، اللسانيات الميسرة: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م).
- الموسى، نهاد، "نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية"، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الجزء ٤، العدد ١، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨٥م.

مراجع متقدمة للمطالعة

- البهنساوي، أحمد، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث في مجالي: مفهوم اللغة والدراسات النحوية (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م).
- حسين، صلاح الدين صالح، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن (الرياض: دار العلوم، ١٩٨٤م).
- دي سوسير، فرديناند، فصول في علم اللغة العام، نقله من الإنجليزية: أحمد نعيم الكراعين (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م).
- زكريا، ميشال، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (بيروت: المؤسسة الجامعية، ١٩٨٦م).
- نهر، هادي، اللسانيات الاجتماعية عند العرب (إربد: دار الأمل، ط١، ١٩٩٨م).

الفصل الثاني

العلاقة بين اللغة والثقافة والهوية الوطنية

المبحث الأول

أثر اللغة في نقل الثقافة

يهتم المدخل الإناسي (الأنثروبولوجي) بدراسة اللغة لأنها عنصر مهم من عناصر الثقافة في أيّ مجتمع؛ لذا ارتبط هذا المدخل بالإناسة الثقافية أكثر من غيرها من فروع علم الإناسة، بل أدى اعتماد الإناسة الثقافية هذا المدخل إلى تطوير دراسة اللغويات، ودراسة آثار ما قبل التاريخ، وتطور الدراسات العرقية (Ethnology) والثقافية (Ethnography)، ونال هذا المدخل اهتمام المدرسة الأمريكية بخاصة لما كانت تركز على الإناسة الثقافية أساساً، ومن ثمّ؛ ظلت الثقافة الموضوع المحوري لديها للدراسة؛ بما تشتمل عليه من عناصر ثقافية عدة أبرزها اللغة، كما يقوم المدخل الإناسي في دراسة اللغة على العناية بالبحوث والدراسات الحقلية التي توضح التفاعل المتبادل بين اللغة عنصراً من عناصر الثقافة وغيره من العناصر الأخرى.

وللثقافة مفهوم ومدلول واضح لدى علماء الإناسة يختلف عنه لدى غيرهم من الخاصة والعامة، فقد شاع خلطٌ واضح بين مفهوم "الثقافة" ومفهوم "الحضارة" إلى حدّ أن بعض العلماء استخدموا المفهومين بمعنى واحد، كما شاع بطريق الخطأ عن العامة أن الإنسان المثقف هو الذي نال قسطاً وافراً من العلم، أو حصل على أعلى المؤهلات العلمية في الفنون والآداب، أو قرأ كثيراً في فرع من فروع المعرفة، ولكن علماء الإناسة يرفضون الأخذ بهذا المفهوم، ويرون ذلك غير خارج عن أنه اختلاف بين الأفراد في درجة حظّهم من التعليم الذي ربما لا يكون لهم شأن في تقريره، وقد كان العالم الإنجليزي تايلور (E. Taylor) أول من قدّم تعريفه المشهور للثقافة بقوله: "الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتكون من اللغة والعادات والتقاليد والدين والقيم والأعراف والسنن الاجتماعية وأساليب الحياة المختلفة من ملبس ومأكل ومسكن وتقانة، وكل ما أنتجه الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"، ولكن كروبر (Kruper) وكلاكهون (Cluckhohn) فحسا ما يزيد على مئة تعريف من تعريفات الثقافة، وانتهيا إلى أن هناك خلطاً شائعاً بين هذه التعريفات من حيث مفهوم الثقافة ذاته، والعناصر المكونة إياه، وعرفنا الثقافة بأنها الإرث الاجتماعي الذي يشتمل على جميع مخططات الحياة الاجتماعية التي تنتقل من جيل إلى آخر، ويشتمل على جميع المخططات الصريحة والضمنية المحسوسة وغير المحسوسة التي تعمل موجّهات للسلوك الإنساني في المواقف الاجتماعية المختلفة؛ بينما ذهب ماكيفر (Mac-Iver) وييج (Paig) إلى أن الثقافة مجمل التراث الاجتماعي للبشرية، وتشمل كل ما يصنعه أي مجتمع لنفسه من نظم اجتماعية، وأدوات ولغة، وقيم... إلخ.^١

^١ حسام الدين، اللغة والثقافة، ص ٢٨.

ويؤكد المدخل الإنساني في علم اجتماع اللغة حقيقة إنسانية توضح أثر اللغة المبرز في نقل الثقافة من جيل إلى آخر، وأن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على نقل الثقافة بفضل تعلم اللغة واستخدامها لنقل التراث الثقافي والإنساني عبر الأجيال المختلفة، وتفوقه على سائر الكائنات الأخرى.

وقد أكد العالم الأمريكي وُلف (Wholf) من خلال تجربته قدرة الإنسان والحيوان على التعلم؛ إذ أحضر آلة ذات ثقب بها بعض الأطعمة، وعددًا من قردة الشمبانزي، ودرّبها على كيفية استخدام الآلة بوضع العملات المعدنية في ثقب الماكينة والضغط على زر التشغيل لاستخراج ما تحتاج إليه من الأطعمة، وقد نجحت القردة في تعلم كيفية تشغيل الآلة واستخراج طعامها، ولكنه عاود التجربة بخلط العملات المعدنية الحقيقية مع أخرى مزيفة، وألقاها على الأرض، لتلتقطها القردة وتسعى إلى تشغيل الآلة، ولكنها اكتشفت أن العملات المزيفة لا يمكنها استخراج الطعام، فلجأت إلى العملات الحقيقية في الحصول على ما تحتاجه، وهكذا نلمس قدرة الحيوانات على التعلم مثل الإنسان؛ بينما نجد العالمين كيلوج وزوجته (Kelog) يُعدّان تجربة مهمة أحضرا فيها قرد شمبانزي وليدًا، وربياه مع ابنهما الوليد، وقدّما لهما الأطعمة والمشروبات نفسها لإشباع احتياجاتهما الحيوية، ولاحظا أنّهما يشتركان في كثير من الصفات في الشهر الأول عند التعبير عن احتياجاتهما المختلفة بالبكاء والصراخ، ولكن الشمبانزي تفوق على الطفل الوليد في تلك الشهر بقدرته على الحركة والجري والقفز، وبدا تكيفه مع الحياة أفضل من الطفل، ولكن؛ سرعان ما بدأ الطفل تعلم اللغة حتى تفوق كثيرًا على الشمبانزي؛ إذ استطاع الطفل من خلال اكتسابه اللغة أن يتعلم خبرة الأجيال السابقة، فانتقلت إليه الثقافة بتراثها السابق واللاحق؛ لتُحقق له سبق على الشمبانزي، بينما ظل الحيوان جامدًا عند حدّ معين؛ لأنه لا يقدر على تعلم اللغة؛ لذا ظل تعلمه قاصرًا على التجربة والخطأ من خلال المواقف التي يمر بها، وتعكس تلك التجربة أثر اللغة وتعلمها على ثقافة الإنسان، فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على صنع الثقافة ونقلها من خلال اللغة ورموزها إلى الأجيال اللاحقة؛ سواء أكان ذلك من خلال نقل التراث الشفوي أم المكتوب.¹

أولاً: اللغة والكلام وأثرهما في التنوع اللغوي في المجتمع

يرتبط علم اللغة بعلوم أخرى ارتباطاً وثيقاً، كارتباطه بعلم الاجتماع وعلم الإناسة وعلم النفس، وعلم التربية، وغير ذلك، ويهمنا في هذا الكتاب ارتباط علم اللغة بعلم الاجتماع، ومحصلتهما "علم اللغة الاجتماعي" الذي يدرس اللغة وعلاقتها بالمجتمع، ويُعدّ فرعاً على علم اللغة التطبيقي.

وإذا كان علم اللغة يدرس علومها الفرعية من مثل الصرف الذي يدرس بنية الكلمة، والنحو الذي يدرس التراكيب، والدلالة الذي يدرس الحقل اللغوي؛ فإن علم اللغة الاجتماعي يدرس الظواهر اللغوية المختلفة من وجهة نظر

¹ انظر: علي، عاصم شحادة، علم اللغة النفسي للدراسات الجامعية: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م)، ص ٣٣.

اجتماعية، وهو ما يمدُّ الدارسين بالعلوم، والآداب، والثقافة، ولم يستطع اللغويون المحدثون إغلاق باب البحث فيه، وإعطاءه حقه من الدراسة والبحث، وقد كثرت البحوث فيه وتنوعت مناهجها وطرقها، وما زال هذا المورد معيناً لا يُسأم ولا ينتهي على مر الزمن يرده رواد الفكر وأساطين البيان، فَيُرَوِّدون بأعظم بيان ويُمدُّون عقولهم بخير مَدَدٍ.

وتعلّم الظاهرة اللغوية ليس بالهين، وإنما يستدعي معرفة كاملة عنها، ودراسة علم اللغة الاجتماعي في هذا الجانب قليلة، مما يشير إلى أنها لم تلقَ الاهتمام الكافي؛ لذلك يتناول هذا الكتاب علم اللغة وأثره في التنوع اللغوي في المجتمع، وهو موضوع جذاب للبحث، وله آثار بلاغية وثقافية في الكلام الفصيح.

ويختلف علم اللغة الاجتماعي عن اللسانيات الذي يبحث في الحقل اللغوي في المجتمع، فلكل نوع لغوي دور خاص من المعنى، وهذه الدوافع لدراسة علم اللغة وأثرها في التنوع اللغوي في المجتمع؛ نرى من خلالها تنوع دلالاتها وإسهامها في تغيير المعنى وتنويعه، وإثراء اللغة، ومعرفة سرِّ تبادل الكلام في المجتمع.

وقد سبقت دراسات أفاد منها هذا الكتاب؛ منها ما تناوله عز الدين صحراوي في دراسته "اللغة بين اللسانيات واللسانيات الاجتماعية"^١، وناقش فيها بعض الجوانب المهمة نظرياً وتطبيقياً؛ لتوضيح العلاقة بين علم اللغة وعلم اللغة الاجتماعي، والبحث في اكتساب الطفل للغة، مع تحليل أمثلة عدة قديمة وحديثة.

وأوضح عبد الله البريدي في دراسته "التخطيط اللغوي: تعريف نظري ونموذج تطبيقي"^٢ ارتباط التخطيط اللغوي بالثقافة والمجتمع، وركز على إشكاليات الثقافة في المجتمع المسلم مثلاً، وأشار إلى التواضع العضوي بين موضوعي "التخطيط اللغوي" و"السياسة اللغوية"، ليصل إلى أن ثمة خصوصية تجاه المسألة اللغوية من جراء تفرُّد العربية ونظرتنا إليها في بعض القضايا الثقافية واللغوية.

ودراسة ماجد رجب عبد السكر "التواصل الاجتماعي: أنواعه، ضوابطه، آثاره ومعوقاته: دراسة قرآنية موضوعية"^٣ ركّز فيها على بيان مدى التواصل الاجتماعي من خلال العلاقة بين الآيات القرآنية وعلم الاجتماع. وفي دراسة "الازدواجية اللغوية في اللغة العربية"^٤ لعباس المصري وعماد أبي حسن؛ استعرض مثالاً للثقافة العربية في الازدواجية اللغوية، لمناقشة هذه المشكلة المتمثلة بغلبة العاميات المتعددة على الفصيحة في الخطاب الشفهي.

^١ انظر: صحراوي، عز الدين، "اللغة بين اللسانيات واللسانيات الاجتماعية"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد ٥، ٢٠٠٤م.

^٢ انظر: البريدي، عبد الله، التخطيط اللغوي: تعريف نظري ونموذج تطبيقي (الرياض: المنتدى التنسيقي للجامعات، ٢٠١٣م)، ص ٣٣.

^٣ انظر: سكر، ماجد رجب العبد، التواصل الاجتماعي؛ أنواعه، ضوابطه، آثاره ومعوقاته: دراسة قرآنية موضوعية (رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١١م).

^٤ انظر: المصري، عباس؛ أبو حسن، عماد، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية (جنين: الجامعة العربية الأمريكية، ٢٠١٤م).

ثانياً: المدخل العرقي في دراسة اللغة

يولي هذا المدخل اهتمامه بدراسة ثقافة الشعوب دراسة مقارنة؛ بالتركيز على دراسة دور اللغة أداة للتواصل بين الأجيال في نقل التراث الثقافي من جيل إلى آخر، ويهتم هذا المدخل بدراسة اللغة بصورها المختلفة القياسية والعامية واللهجات المتعددة التي تتفرع عنها؛ لمعرفة حالات الشبه والاختلاف في التراكيب اللغوية في الثقافات المتعددة؛ أي دراسة التفاعل بين اللغة وعناصر الثقافة الأخرى ومقارنتها بين الثقافات المختلفة.

ويستعين علماء الإناسة اللغوية بهذا المدخل في دراسة اللهجات المختلفة للمجتمعات البدائية في أفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا، كما ساعدت البحوث التجريبية التي قاموا بها في تطوير تعليم اللغات المختلفة وأساليب التعلم.

ويعنى في دراسة عرقية اللغة بدراسة لغويات الشعوب؛ لأن ظاهرة اجتماعية في ضوء ماضيها وواقعها ومستقبلها، وذلك بدراسة الطرق التي تتغير بها الثقافة الواحدة؛ في محاولة للكشف عن القوانين والقواعد العامة التي تحكم التغير الثقافي، ودور اللغة وسيطاً مؤثراً لنقل التراث وإحداث هذا التغير.

ويفرق علماء الإناسة بين الدراسات الثقافية للغة التي تعني بدراسة اللغة ظاهرة اجتماعية دراسة أفقية في سائر أنحاء المجتمعات؛ أي إنها دراسة مقارنة في المكان، وبين الدراسة العرقية للغة، وهي دراسة اللغة ظاهرة اجتماعية دراسة رأسية لعنصر من عناصر الثقافة عبر أزمنة مختلفة؛ أي إنها دراسة مقارنة في الزمان، أو دراسة مقارنة تاريخية، ومن ثمّ؛ يتيح المدخل العرقي لدراسة اللغة دراسة شعوب العالم الحالية، والشعوب التي بادت؛ لتكون لدينا القدرة على دراسة التشابه والاختلاف في الملامح البشرية من حيث اللغة والثقافة، مما يمكننا من تصنيف الشعوب على أساس اللغة والثقافة والأجناس.^١

ثالثاً: المدخل الوصفي البنائي في دراسة اللغة

يرتكز هذا المدخل إلى استخدام المنهج الوصفي في تحليل اللغة وبنائها من حيث وصف التركيب البنائي للجملة وتحليله، وعلاقة اللفظ في الجملة ببنائها الكلي، كما يبرز هذا المدخل دور اللفظ ووظيفته في المحافظة على التوازن والمعنى والدلالة في الجملة وبنائها.

وقد ظهرت البنائية الوظيفية في اللغة وعلومها من حيث قدمت لنا تحليلاً للبناء اللغوي للجملة والعبارة، كما أوضحت فكرة التساند الوظيفي بين مفرداتها؛ للمحافظة على المعنى والدلالة المطلوبة والعلاقة التبادلية بين الأجزاء أو المفردات، وبين البناء الكلي للجملة أو العبارة، ثم انتقلت البنائية الوظيفية من علوم اللغة في عشرينيات القرن الماضي إلى علمي الاجتماع والإناسة نتيجة استعارة هذا المفهوم في تحليل فكرة البناء الاجتماعي للمجتمع إلى عدد من الأنساق والنظم الاجتماعية، وعلاقة كل نسق أو جزء بالكل، وهو البناء الاجتماعي للمجتمع، ووظيفة

^١ انظر: بو عزيز، محسن، السيميولوجيا الاجتماعية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠م)، ص ١٧٣.

كل جزء في المحافظة على توازن البناء الاجتماعي للمجتمع، واستمراره، وتحليل الأدوار الاجتماعية المختلفة لكل عناصر هذا البناء.

وعلى الرغم مما تعرضت له البنائية الوظيفية من نقد في علمي الاجتماع والإناسة؛ تمثل اتجاهها تحليليًا مهمًا لا يمكن الغضُّ من شأنه في فهم العلاقة بين الجزء والكل، وعلاقة الوحدات الصغرى بالوحدات الكبرى في محاولة لفهم السياق الكلي وتحليله وأجزائه، بل إن هذا الاتجاه وإن أرسى قواعده في علم الاجتماع دوركايم، وطوّره كل من بارسونز وميرثون وغيرهما؛ ظلَّ مرتبطًا بالعلم الطبيعي، ولا سيما علوم الحياة والكيمياء والآلة (الميكانيكا)، كما ازدادت مفهوماته من مجرد الحديث عن البناء والوظيفة إلى مفهومات عدة؛ كالتركيب، والعضوية، وغيرهما.

وكذلك في مجال الإناسة الثقافية اشتهر كل من بروان، وبريتشارد، وفورتس، ومالينوفسكي، وعلى الرغم من تزامن ظهور هذا الاتجاه في علمي الاجتماع والإناسة في آنٍ معًا؛ اهتم كثير من علماء العلمين أصحاب هذا الاتجاه بالمحافظة والتحيز الفكري (الأيديولوجي)؛ للدفاع عن النظم الرأسمالية الغربية؛ لدعوته إلى فكرة المحافظة على توازن المجتمع، وتجاهل الصراع الاجتماعي، وإهمال دور المصالح المادية في التفاعلات الاجتماعية والاهتمام بالتكامل والإجماع القيمي، وتجنب الإشارة إلى التغيير الجذري بالمجتمع.

ومع انتشار الاتجاه الوظيفي البنائي في علوم وفنون تطبيقية أخرى كثرت آراء العلماء؛ إذ لاقى تأييدًا كبيرًا في العلوم؛ كالمهندسة المعمارية؛ إذ عني المهندسون المعماريون في تصميم المسكن بفهم وظيفة المسكن، وتحليل استخدامات أجزائه، وأثرها في وضع التصميم الهندسي الملائم الذي يجعل من المسكن مكانًا مريحًا لكل من يشغله؛ لإشباع الاحتياجات المختلفة للإنسان.

رابعًا: المدخل النفسي في دراسة اللغة

يعتمد هذا المدخل في دراسة اللغة على نظريات علم النفس العام وتطبيقاتها على اللغة باعتبارها سلوكًا اجتماعيًا ووسيلة إنسانية للتفكير، مما أسفر عن بلورة فرع جديد عُرف بـ"علم النفس اللغوي"؛ لذا يركز المدخل النفسي في دراسة اللغة على تحليل اللغة ردًّا فعلًا على العمليات العقلية والتفكير، ومحاولة فهم الدوافع والاحتياجات المختلفة للإنسان في المواقف الاجتماعية المختلفة في ضوء ما يتعرض له من ميراث، وما يصدر عنه من استجابات تعكس قدرته على التكيف والتوافق النفسي؛ استنادًا إلى مقومات الشخصية وخبراتها المختلفة.

ويهتم هذا المدخل أيضًا بصور التعبير المختلفة للإنسان (اللفظية أو المنطوقة) أو غير اللفظية (المرئية)؛ إذ تعتمد على الإشارات والحركات الجسمية؛ لذا يعنى بدراسة الصوتيات اللفظية المسموعة عن طريق أجهزة النطق والكلام، كما يهتم بدراسة التعبير غير اللفظي بوصفه تلك الدوافع الكامنة في أعماق النفس البشرية.

وقد استفاد علم النفس اللغوي مؤخرًا من نظريتي التعلم والاتصال وثورة المعلومات، مما أدى إلى تحسين العلاقة وتطويرها بين أركان عملية الاتصال خلال نقل المعلومات؛ أي: المرسل، والرسالة التي تتضمن المعلومات المختلفة، والمستقبلون للرسالة؛ ونتيجة لذلك تطور فرع علم الدلالة اللغوية، والمعنى، وبمعرفة ردود الأفعال المتوقعة

نتيجة أساليب الاستثارة؛ أمكن تطوير طرق التدريس والأداء في العملية التعليمية، كما أسهم ارتقاء علم النفس التجريبي وتطور مقاييس الذكاء والاختبارات النفسية، والتحليل النفسي في تقدم هذا المدخل نتيجة البحوث التجريبية التي قام به العلماء.^١

ويركز هذا المدخل على فهم المعنى النفسي؛ أي دلالة الألفاظ أو المعنى الدلالي (Semantic) الذي يختلف من فرد إلى آخر وفق ما يسميه علماء النفس "التمايز الدلالي للألفاظ" (Semantic Differentiation)، وكذلك يهتم بدراسة المعنى ودور دلالة الألفاظ في السلوك الإنساني وفهم انتقاء للألفاظ ودوافع السلوك الإنساني الذي تعكسه المعاني والدلالات المختلفة للألفاظ والتراكيب اللغوية وطرق قياس المعنى.

ويبرز علم النفس اللغوي الروابط المختلفة بين الظواهر اللغوية والدراسات النفسية لكل من الذاكرة، والوجدان أو الحالات الوجدانية، والتخيل، والإدراك، والانتباه، والحلم، والشعور واللاشعور، وابتداع المعاني، والإلهام، مما يتيح الفرصة لفهم كثير من الظواهر اللغوية وتفسيرها.

وقد أوضح عدد من العلماء العلاقة بين اللغة والفكر؛ منهم بريتو في كتابه "الفكر واللغة"، وديلاكرو في كتابه "اللغة والفكر"، وغيرهم، وأكدت آراؤهم أن اللغة ضرورة للفكر، ولو في حالات التفكير الشخصي، فالإنسان يفكر فيما بينه وبين نفسه في أثواب من اللغة، ومن ناحية أخرى؛ ليست اللغة أداة عقلية فحسب، وإنما هي عنصر انفعالي وعاطفي، فالإنسان يتكلم ليعبر عن نفسه ومشاعره وعواطفه، وليؤثر في غيره؛ لذا هناك ارتباط بين التفكير والعناصر الوجدانية والعاطفية والانفعالية، وقد أكد فندريس على هذا المعنى بقوله إنه لا تكاد تخلو جملة من عناصر انفعالية، وتبدو هذه الانفعالات واضحة في الكلام والتعبير اللفظي والنبرة التي يتحدث بها المتحدثون، ومدى ارتفاعها وانخفاضها والهدوء أو الانفعال المصاحب للكلام، والإشارات اليدوية والجسمية المستخدمة خلال التحدث، والنعيمات التي تحملها كل عبارة أو جملة؛ لذا لا يقتصر المدخل النفسي في دراسة اللغة على مجرد تناول اللغة أداة للتواصل الإنساني، أو مدى اكتمالها والتزامها العناصر النحوية كما يفعل النحويون، وإنما يهتم بالعناصر السلوكية المصاحبة للكلام ودوافعه وأثره في المخاطبين، وما يوحى به للمتحدث إليهم.

وعلى مستوى المجتمع؛ اللغة انعكاس صادق لأوضاع الأمة العقلية والاجتماعية والحضارية ومعتقداتها وخصائصها العقلية، وكذلك يهتم المدخل النفسي في دراسة اللغة بدراسة عملية التطبيع الاجتماعي للطفل وتعليمه اللغة، ودراسة عيوب النطق والكلام، وكيفية علاجها لغويًا ونفسيًا؛ وبذلك؛ يعنى هذا المدخل بدراسة مظاهر اللغة من الناحية العقلية، ووصفها تعبيرًا عن السلوك الإنساني في المواقف الاجتماعية المختلفة؛ لذا تحتل دراسة الإيحاء والتأثير العاطفي والوجداني وغيرها جانبًا كبيرًا من بحوث علم النفس اللغوي ودراساته.^٢

^١ انظر: علي، علم اللغة النفسي للدراسات الجامعية، ص ٥؛ يوسف، جمعة سيد، سيكولوجية اللغة: والمرض العقلي (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٠م)، ص ١١.

^٢ انظر: توماسيلو، ميشيل، الثقافة والمعرفة البشرية، ترجمة: شوقي جلال (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٦م)، ص ١٦٩.

خامسًا: المدخل التطبيقي في دراسة اللغة

يهتم هذا المدخل بتطبيقات اللغة علمًا في المجالات المختلفة من مثل صناعة المعاجم اللغوية التي تعني بدلالة ألفاظ كل لغة، وتأصيلها تأصيلًا لغويًا، وإبراز المفردات اللغوية لكل لفظ وفق استخداماته في اللغة، فقد تختلف من موقع إلى آخر وفق معنى الجملة أو العبارة، وموقع اللفظ داخل سياق الجملة.

وهناك ثلاثة أنواع من المعاجم اللغوية، فمنها أحادي اللغة (عربي عربي)، أو (إنجليزي إنجليزي)، وغيرها، ومن أمثلتها: "لسان العرب" و"المعجم الوسيط"، ومنها ثنائي اللغة (عربي إنجليزي) مثلًا، ومنها متعدد اللغات (عربي إنجليزي ألماني) مثلًا^١.

كما يشتمل هذا المدخل على مجال تعليم اللغات الأجنبية، فيتعلق به من اتجاهات التدريس وطرقها، والوسائل المعينة للتعليم، وإعداد المدرسين، والمناهج، والمواد التعليمية، والإشراف، ويُعدُّ هذا المجال من أهم مجالات علم اللغة التطبيقي.

وكذلك يندرج تحت هذا المدخل دراسة حالات الشبه والاختلاف بين اللغات المختلفة، والصعوبات التي تواجه دراسي اللغات الأجنبية، والأخطاء الشائعة بينهم، وأسبابها، وطرق علاجها، فضلًا عن تصميم الاختبارات في اللغات المختلفة وطرق تحسينها وتجويدها من ناحية المحتوى والجوانب الفنية، إلى جانب طرق محو الأمية، وأساليب تعليم الكبار، وطرق التعليم المستمر، بل إن بعض علماء اللغة يدرجون تحت مدخل علم اللغة التطبيقي عددًا من العلوم والدراسات اللغوية المتخصصة من مثل علم النفس اللغوي، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم الاجتماع اللغوي، وهم بذلك يوسعون نطاق هذا المدخل أكثر مما ينبغي، بل يخلطون المداخل المختلفة بعضها في بعض، فيتداخل بذلك المدخل التطبيقي مع المدخلين النفسي والاجتماعي^٢.

ولكن؛ لا يغيب عنا أن هذا المدخل التطبيقي يضم أيضًا تطويع المادة اللغوية واستخداماتها عن طريق الحاسب الآلي، مما أدى إلى ظهور الترجمة الآلية، وتخزين المعلومات واستعادتها من الحاسب.

وبالنظر إلى هذه المداخل؛ كثرت المدارس اللغوية بكثرة اهتماماتها بجوانب اللغة المختلفة لتطوير علم اللغة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، في حين كان لا بُدَّ لعلم الله بداية نشأته من أن يتجه إلى ما اتجه إليه "فقه اللغة" (الفيلولوجيا) من اهتمام بالماضي، وأن يصطنع علماء اللغة لأنفسهم منهجًا تاريخيًا سواء لمقارنة تطور الظواهر كما كان يفعل بوب ومعاصروه، أم لاستخلاص قوانين التطور كما كانت الحال بالنسبة إلى النحاة

^١ انظر: قاسم، رياض زكي، المعجم العربي: بحوث في المادة والمنهج والتطبيق (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ١٩٨٧م)، ص ٣١؛ علي، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة، ص ٢١٨.

^٢ انظر: فتوح، محمد، في علم اللغة التطبيقي (القاهرة: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٩م)، ص ١٢-٤٢؛ الراجحي، عبده، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م)، ص ٧-١٤.

Anotny, Edward M, Toward a Redefinition of Applied Linguistics. In Kaplan, Robert B. (ed), 1980. *On the scope of Applied Linguistics*, Newbury House Publishers, Inc, p.4051.

الشبان، ثم تطور المنهج على يدي دي سوسير، فأصبح وصفيًا يعنى بمرحلة ما ثابتة غير متطورة للغة معينة، ولا يرفض المنهج الوصفي الدراسة التاريخية للغة؛ ولكنه يعدّها من اختصاص المنهج التاريخي بالدرجة الأولى، أما مدخل علم اللغة التطبيقي فيركز على الاستفادة من نتائج البحوث التجريبية لعلم اللغة في تطوير طرق تعليم اللغات المختلفة، ومن ثم؛ برزت في علم اللغة خلال عملية تطور الدراسات اللغوية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية ثلاثة اتجاهات منهجية رئيسة أفرزت مدرسة أو أكثر في علم اللغة، والاتجاهات هي التاريخي، والوصفي، والوصفي المطور.

وقد تفرع عن الاتجاه التاريخي مدرستان هما المدرسة المقارنة التي كانت تهتم بمقارنة الظواهر اللغوية وتطورها، ورائدها بوب، ومدرسة النحاة الشبان الذين ركزوا اهتمامهم على استخلاص قوانين التطور.

كما تفرع عن الاتجاه الوصفي مدرستان أيضًا هما المدرسة التصنيفية التي تهتم بوصف اللغة وتصنيفها، والمدرسة التحويلية التي لا تقف عن حدود التصنيف، ولا ترتبط بلغة واحدة، وإنما تدرس اللغة ملكة إنسانية عامة، وقدرة الإنسان على استعمالها، وتحاول أن تبني نحوًا يقوم على أساس هذه الملكة، ويستوحي المذهب العقلاني في الفلسفة، وقد نشأت هذه المدرسة في أميركا على أيدي هاريس وتشومسكي.

والإتجاه الوصفي المطور يضم مدرستين كذلك، هما المدرسة الوصفية لمراحل تطور اللغة بقيادة دي سوسير في أوروبا، وتركز هذه المدرسة على دراسة مراحل تطور اللغة، وعلى المرحلة التي لم تتطور اللغة فيها، وتعزل هذه المرحلة عن التطور التاريخي للغة، وتصنفها من حيث بنيتها وعلاقاتها الداخلية وقواعدها التي تحكم تحولاتها الذاتية، ويُعدّ دي سوسير مؤسس الدراسات اللغوية البنوية الوصفية، وقد تبعه بواس (F.Boas) وتلميذه ساير، أما المدرسة الثانية فهي المدرسة البنوية المطورة على يد بلومفيلد، واهتمت بتطوير البناء والقياس اللغويين، ولم تعبأ بالمعنى بخاصة؛ إذ تأثرت بأفكار علم النفس السلوكي، وارتبطت بالتحولات المادية من جهة، ومن أخرى بالدراسات الإنسانية للجماعات العرقية في الولايات المتحدة الأميركية؛ كالهنود الحمر وغيرهم، مما ميز اتجاه الدراسات اللغوية فيها، وربطها بالإناسة الثقافية باعتبار دراسة اللغويات أحد فروعها.

وقد تفرع عن المدرسة الوصفية في أوروبا مدرستان لغويتان هما مدرسة براغ التي وجهت اهتمامها إلى ربط أصوات اللغة بالدلالة والمعنى، ومدرسة كوبنهاجن التي عيّنت بطبيعة العلامة اللغوية التي تميز المفرد من الجمع من مثل الحرف S في الإنجليزية، وتاء التأنيث في العربية، وغيرهما من العلامات الفارقة.^١

أما "فقه اللغة" فمصطلح عربي خالص لا يعرفه الغربيون في لغاتهم، وقد استُخدم مفهومه بمعان عدة، فقد أطلقه بعضهم على الدراسة المقارنة للغات السامية، واستخدمه بعض آخر بمعنى المقارنة بين الألفاظ الفصيحة وغيرها سواء جاءت من لهجات قبلية قديمة أم عامية حديثة، بينما عرف بعض ثالث فقه اللغة بأنه العلم الذي يدرس

^١ انظر: عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩١م)، ص ٦٦، ٢١٩، وقد أشار إلى الفروق بين المظاهر الصوتية؛ الخولي، معجم علم اللغة النظري، ٢٠٩-٢١٢، وقد أشار إلى الفروق في استعمال (Phonology) في أميركا وإنجلترا؛ عبابنة، يحيى؛ الزعي، آمنة، علم اللغة المعاصر: مقدمات وتطبيقات (إريد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥م)، ص ٣٦-٥٢، وقد اعتمدا مصادر قيمة، وحللاً آراء فيرث في أسلوب سلس مفهوم وشرح دقيق لكل ما جدّ من مصطلحات غامضة، وبخاصة في تحليل صوتيات اللغات الأجنبية.

اللهجات والأصوات العربية، كما أدخل إليه بعضهم الدراسات اللغويات الحديثة، وبعمامة؛ يتناول فقه اللغة المفردات من اللغة من دون القواعد، أو المتغيرات من دون الثوابت.

وعودًا إلى مصطلح "الثقافة" نقول إن المجتمعات الإنسانية لم تعرف الثقافة إلا عندما عرف الإنسان كيفية الإشارة إلى الأشياء بمسمياتها؛ إذ إن كلمة "ثقافة" تعني باللغة الأجنبية (Culture)، ولها معانٍ تختلف من عالم إلى آخر؛ ولكن الجذر اللغوي لها يعود إلى اللفظ اللاتيني (Culture) بمعنى حَرَثَ الأرض وزراعتها، ثم أُطلقت الكلمة في فرنسا على الطقوس الدينية، وفي عصر النهضة اقتصر مفهومها على المدلول الفني الأدبي، وقد استمر العمل بهذا المفهوم محافظًا على جذره اللغوي حتى وضع تيلور (E. Taylor) كتابه "الثقافة البدائية" (Primitive culture) عام ١٨٧١م، وعَرَّف الثقافة بمعناها الثقافي الواسع بأنها "ذلك الكلّ المركَّب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف، وكلّ القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع".^١ أما كلمة (ثقافة) ودلالاتها في العربية فتعني تنقية الفطرة البشرية وتقويتها، والبحث والتنقيب، والظفر بمعاني الحق والخير والعدل، والتركيز في المعرفة على ما يحتاج الإنسان إليه وفق ظروف بيئته ومجتمعه، فالثقافة في المفهوم الدلالي العربي لا تعني أن إنسانًا أو مجتمعًا معينًا قد حصَّل من المعارف والعلوم والقيم ما يجعله في قمة السُّلم الثقافي، أو أنه وصل الغاية القصوى فيه، وإنما تحمل دلالات التهذيب والتقويم؛ أي مراجعة الذات وإصلاحها، وهذا المفهوم عامُّ الإنسان والجماعة والمجتمع.

ومن هذا المعنى لكلمة (ثقافة) نجد أنفسنا منقادين نحو تحديد العناصر ذات العلاقة بالثقافة والإشكالية التي أصابت الأمة ومثقفِيها ومواطنيها؛ إذ إن المراد بالكلمة إذا أُضيفت إلى (الأمة)؛ تراث الأمة الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية الذي تمتاز به، وهذا التراث هو الذي يحكم الأفراد والأسرة والمجتمع في كلِّ أمة، فالثقافة بهذا المعنى أسلوب الحياة السائد في مجتمع من المجتمعات، يقول أحدهم: "ثقافة الأمة في جوانبها المختلفة تشكّل أسلوبها في الحياة، فعقيدة الأمة وتاريخها ونظرتها إلى الحياة، والأفكار والنظريات التي تدور في عقول أبنائها ومفكريها، وتدوّن في كتبها ودراساتها، تشترك جميعًا في تحديد الأسلوب الذي يحكم حياة الأمة، ويضبط مسارها".^٢ وللثقافة جوانب نفسية واجتماعية؛ على الرغم من أن بعض الناس - كما يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي^٣ - يقدمون الجانب النفسي، ومن ثم الفردي، عاديّ الثقافة قضية الإنسان، وآخرون يقدمون الجانب

^١ نقلًا عن: عارف، نصر محمد، الحضارة، الثقافة، المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم (فريجينا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٩٨١م)، ص ٢٠، وقد فضَّل في مفهوم الثقافة، واعتمد على مصادر قيمة تتناول مفهوم الثقافة في الغرب وتطوره، وانظر: حسام الدين، اللغة والثقافة، ص ٥٧، وقد فصل في تناول المعاني الاصطلاحية لدى الغربيين وعلماء الإنسان وغيرهم؛ كوبر، آدم، الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة: تراجي فتحي، مراجعة: ليلى الموسوي (الكويت: سلسلة علم المعرفة، ٢٠٠٨م)، ص ٢٤٦-٢٦٦، وقد ذكر تفاصيل عن الثقافة في الفكر الغربي ومفهومها من منطلق إنساني.

^{١٣٦} الأشقر، عمر سليمان، نحو ثقافة إسلامية أصلية (عمان: دار النفائس، ط ٦، ١٩٩٧م)، ص ٢١.

^{١٣٧} انظر: بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين (القاهرة: دار الفكر، ط ٤، ١٩٨٤م)، ص ٤٣.

الاجتماعي ذاهبين إلى أن الثقافة "قضية المجتمع"؛ إذ تمثل في نظرهم صورة اشتراكية بالمعنى التكويني للكلمة؛ لذا لا بُدَّ من الاحتراز عند التحدث عن الثقافة؛ ذلك لأن أذهاننا تنصرف إلى الإنتاج الثقافي المعرفي النخبوي لإنتاج العلماء والمفكرين والمثقفين، ولا بُدَّ أيضاً من ألا نغفل أن الثقافة بالمفهوم الإنساني منظومة القيم والتصورات والمفاهيم المتدخلة في الثقافة الاجتماعية، ولو بغير وعي مباشر من أصحابها؛ أي الثقافة على مستوى الحياة الاجتماعية، ولا يُعنى بها إنتاج المفكرين المسلمين؛ كالجاحظ، والمبرد، وابن سينا، وغيرهم، وإنما المقصود بها مؤسسات التنشئة الاجتماعية والثقافية المختلفة.

وقد تبلورت مشكلة الثقافة في قضيتين مهمتين في آن معاً،^١ فثمة علاقة وثيقة بين اللغة والثقافة من جانب أن الثقافة تمثل جزءاً أصيلاً من اللغة، وبخاصة في الاستخدام اللغوي، ويُقرُّ الدارسون أن هناك خمسة عناصر أساس يمكن اتخاذها معياراً لتصنيف البشرية إلى أمم، ولوضع الفوارق بينها متمثلة في الجنس المشترك، والدين، والقومية، واللغة، والثقافة، ولالأخيرتين بخاصة دور مبرز في هذا التصنيف؛ إذ هما بمنزلة المرآة العاكسة كل أنواع النشاط الإنساني، وبينهما علاقة وثيقة؛ فاللغة أخصُّ، والثقافة أعمُّ، وبينهما تأثير وتأثر، فاللغة ليست مجرد ضوضاء أو أصوات تُلقى في الهواء، وإنما هي تجسيد حيٍّ لكلِّ معارف الإنسان وخبرته، ودليل شخصيته وهويته الثقافية، فالاتفاق والافتراق في البيئة اللغوية المعينة ينطبقان بصورة أو بأخرى على الوضع الثقافي لهذه البيئة، ومثاله عرضه بعض دارسي الأبوة؛^٢ إذ هي قيمة لغوية ثقافية؛ ولكن يُعبَّر عنها في مجتمعاتنا العربية بصور عدة، فهناك من يقول: بابا، يابا، بابي، دادبي، بيبي، يوب... إلى جانب الصيغتين الفصيحتين؛ أبي، ووالدي.

وقد أشار سايبير وورف في فرضيتهما (Sapir-Whorf Hypothesis) إلى أن اللغة تؤثر في سلوكنا وتفكيرنا، وأن الناس لا يعيشون في نطاق عالم الأشياء فحسب، وإنما في نطاق عالم لغتهم الأم، وبينون العالم الذي يحيط بهم وفق اللغة التي يتكلمونها، ويدركون عبر اللغة العالم الآخر، ومن ثمَّ؛ كانوا أسرى الألفاظ.^٣

ومن جانب آخر؛ ثمة علاقة بين اللغة والتفكير، ونرى أن لكلِّ لغة تنظيمًا مثاليًا تجري في ضوئه خبرة متكلميها، وتلزمهم بطريقتها التجزيئية، ويرتبط هذا التنظيم اللغوي المثالي بالأمثلة الثقافية المجتمعية، فالعلاقة بين اللغة والتفكير قد تكون محيرة؛ لاختلاف العلاقة بينهما من حيث الانفصال أو التطابق أو الاندماج والتداخل، ولكننا نجد أن ثقافة اللغة تتناول العلاقة القائمة بين اللغة والثقافة من حيث مواضع الالتقاء مع الفكر، وعلاقة اللغة مع عناصرها؛ إذ ثمة أهمية لمعرفة وصف اللغة وتناولها من وجهات نظر مختلفة؛ بوصفها وجهة نظر سلوكية ومعرفية وعقلية وارتباطية، وما فيها من تطورات ونظرات.

ويرتبط بثقافة اللغة ما يتصل بتعليم اللغة وتعلُّمها سواء اللغة الأم أم الثانية أو الأجنبية، وتغطية المهارات

^١ انظر: الفرحان، إسحاق أحمد، أزمة التربية في الوطن العربي من منظور إسلامي (عمان: دار الفرقان، ط ١، ١٩٨٦م)، ص ٢٣.

^٢ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ١٣.

^٣ انظر: حسام الدين، اللغة والثقافة، ص ٧٤؛ الكشوش، صالح، مدخل في اللسانيات العربية (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥م)، ص ١١٧.

اللغوية الأربع، ثم اللسانيات التعليمية التي تتناول بناء المناهج في تعليم العربية للناطقين بها أو بغيرها، وكلّ هذه العناصر تؤدي دورًا مهمًا في ربط اللغة المتعلّمة بالثقافة، فهناك نظريات لغوية نظرت إلى اللغة، وحلّلتها، وحدّدت طابعها وتعريفاتها ومستوياتها، ووصفتها وصفًا دقيقًا، وهذا كله مما يساعد في تعلّم اللغة.¹

ويمكن الاستدلال على ثقافة اللغة عبر الترجمة؛ إذ نجد ارتباطًا بين اللغة والثقافة عبر الكلام المترجم من اللغة الأصل، وبين المعنى المفهوم في اللغة الهدف؛ أي مدى التمثيل الحقيقي للنص المترجم عن النص الأصل؛ إذ تشير الدلالات إلى أن الترجمة في أحسن الأحوال تُعدُّ نقلاً للشكل الظاهري للكلمة من دون سبر حقيقي للبعد البيئي الثقافي لها في بعض الأحيان، فهناك كلمات في الإنجليزية تُترجم إلى العربية على أنها بالمعنى نفسه، ومن ذلك كلمة (Science) التي تعني في المفهوم الغربي العلوم الطبيعية والتقنية بعامة؛² لذا يدخل فيها العلوم الإنسانية المبنية على المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة والتحليل المبني على نتائج رقمية؛ ومن ثمّ؛ لن يدخل القرآن الكريم والسنة الشريفة ضمن مفهوم العلم في ضوء هذا المفهوم.

ومن عناصر ثقافة اللغة مدخل أسلوب الكتابة ومنهج الإقناع؛ إذ يحتاج المنهج الغربي في الكتابة إلى الاعتماد على كلّ ما يقنع به الكاتب بالدراسات والبحوث والأرقام، ولكن في الدراسات الإنسانية؛ نجد التعارض قائمًا ولا يسمح بالجمع بين المتناقضات، مما يحدُّ من قيمة الإقناع، وكذلك مفهوم مبدأ الحرية لدى الغرب شيء مقدس طغى على غيره من المبادئ أحيانًا، وحطم المعايير الأخلاقية والفضائل، وجعل لكلّ فرد الحرية في أن يعرض فكره من دون قيد أو منع أو التزام بقيم وعقائد، مما جعل ثقافة الأرقام مشاعًا لكلّ فرد يمكن أن يأخذ بها في الدراسة، أما معايير الأخلاق الاجتماعية فغابت، وليس ثمة معايير مجتمعية موحدة نابعة من قيم المجتمع ومعتقداته، وأصبح لكلّ شخص معايير الخاصة به، مما أدى إلى الفوضى الفكرية باسم العقلانية؛ لذا نجد أن المعيارية من المنظور الإسلامي تنطلق من قيمة واحدة ومصدر واحد ومنهج واحد تجاه الأشياء، ونجد أن الاستقرار القيمي والعقدي ساعدا على تأصيل قيم ومبادئ ثابتة جعلت منها معايير يحتكم إليها العقل والمنطق والحوار؛ لذا كانت ثقافة اللغة الإنجليزية - مثلًا عند التعبير عن فكرة ما - تتطلب أن يكتب مُتقِنها العربي بمنهجية تتعد عن منهجيته في العربية، ومن ثمّ يختلف الأسلوب لاختلاف الثقافة، مما جعل أصحاب الحداثة يتهمون الكتاب العرب الذين يكتبون بالإنجليزية، وينتهجون المنهج الأسلوبي في العربية المعتمد على قيم ومعتقدات واحدة؛ كالنصوص القرآنية والحديثية والتراثية؛ يتهمونهم بالرجعية والتقليد، وكان ذلك بسبب ثقافة اللغة التي تُلزِمُ أسلوبًا لغويًا خاصًا باللغة وثقافتها، فللغة روح ترتبط بلسان الثقافة، وهي نبضٌ يتفاعل مع كلّ إحساس، فيؤثر فيه، وهي منطق عقلي يعطي إيماءات وإيماءات لا يسبرها إلا من أخذ منها وفهمها، ولن يكون ذلك إلا لمن تكلمها منذ الطفولة واستلهم ألفاظها

¹ انظر على الشبكة: المشرف، عبد الإله، "بين اللغة والثقافة"، المطالعة في ٢ مايو ٢٠١٧م.

² Longman Active Study Dictionary. 1998. Edinburgh Gate, England. P.590.

ودلالاتها؛ للتعبير عن شعوره، ولذلك نجد العربي عند سماعه قصيدة شعرية من روائع الشعر العربي القديم؛ لا يتأثر ولا يستوعب تأثيراتها فيه لو كانت مترجمة إلى لغة أجنبية؛ إذ يختلف تذوق الألفاظ، فللبيان سحر وتأثير سواء أكان في الظاهر أم الباطن.

ولو تركنا هذا إلى اكتساب الطفل للغة؛ لوجدنا الأطفال يكتسبون اللغة عبر المعرفة الاجتماعية والسمعية والصوتية؛ إذ إنهم على الرغم من امتلاكهم قدرة عقلية فطرية تُنتج الكلام؛ في حاجة إلى تعلّم تكوينات لسانية عينية ومجردة، ومن العمليات التي يُجريها الطفل في اكتساب اللغة مفهوم التعلّم الثقافي، ويقصد به الأسلوب الذي يتعلّم به التكوين اللساني العياني، ثم التعلّم ثقافياً عبر محاكاة هذا التكوين وتقليده؛ لأداء الوظيفة الاتصالية.

يبدأ الطفل أولاً بتكوين مؤلف من كلمات محددة تكفي لتفسير عملية اكتساب العمليات العامة للتعلّم الثقافي والتعلّم بالمحاكاة، ويمكننا تتبّع ذلك ببيان التجربة التي قام بها بعض العلماء الغربيين^١ على مجموعة من الأطفال الصغار؛ إذ علّمهم مع زملائه أفعالاً جديدة بطرق محكمة بدقّة، وعلموهم في كلّ حالة فعلاً جديداً داخل تكوين لساني واحد فقط، وحاولوا بيان ما إذا كان بإمكانهم جعل الأطفال يستخدمون هذا الفعل في تكوينات لسانية أخرى، وكان ذلك عبر توجيه أسئلة دقيقة؛ كأن يرى الطفل طفلة اسمها (إرني) تقوم بشيء بكرة القدم، ويسمع ما يقوله الدارسون من مثل: رُكِلَتِ الكُرَةُ بَقَدَمِ إرني؛ بصيغة المبني للمجهول، ثم يُسأل: ماذا تفعل إرني؟ وهو سؤال إجابته: إرني ترُكَلُ الكُرَةُ؛ بصيغة المبني للمعلوم المتعدي إلى مفعول به.

وقد وجد الدارسون أنه من الصعب جدّاً على من عمره أقل من ثلاث سنوات؛ استخدام هذه الأفعال الجديدة بأي طريقة غير التي ألفوا سماعها؛ لذا كانت المحاكاة لدى الأطفال في تعلّم الأفعال تعبّر عن تعلّم ثقافي ألفوه وحاكوه، مما جعلهم محصورين في إطار التكوين الذي سمعوا فيه أسماء الأشياء، فلكي يفهم الطفل تماماً تكويناً لسائياً واسع النطاق؛ ينبغي له أن يفهم منطوق الشخص الكبير، وعندما تشير إليه بكلمة (يسابق) مثلاً، فتقول له في الإنجليزية الأمريكية: إيري تسابق بيرت، فإن مفهوم (يسابق) سوف تنهياً له فرصة جيدة للفهم؛ لأن الطفل يعرف من خبرة سابقة المقصود من (إيري) و(بيرت)، وكذلك يكون الخطاب المتبادل بين الطفل والبالغ مفتاحاً يفسر لنا الوظيفة الاتصالية للعناصر اللسانية المختلفة التي تتضمنها تكوينات لسانية أكبر؛ لذا نجد أن الأطفال يتعلّمون اللغة عن طريق التقليد والمحاكاة، ويتميّز النمو النفسي للطفل بخصائص؛ منها الاستقلال المتزايد للتصرفات تجاه الإثارات الآتية، واكتساب الاستجابات الحركية، والتنظيم الإدراكي، ثم التصور الرمزي، وبعده التصور الرمزي عبر البيئة الاجتماعية بالانفصال عن اللغة، ولا يمكن دراسة نمو الفرد من دون الاستقلال عن أنماط التأثير التي تمارسها البيئة الثقافية.^٢

^١ انظر: توماسيلو، الثقافة والمعرفة البشرية، ص ١٦٩.

^٢ انظر: ريشل، مارك، اكتساب اللغة، ترجمة: كمال بكداش (بيروت: المؤسسة الجامعية، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ١٩، ١٦٨.

أسئلة ومراجعات

١. تحدث عن العلاقة بين اللغة والثقافة في فقرة قصيرة.
٢. ما أثر اللغة في نقل الثقافة؟
٣. ثمة علاقة وثيقة بين اللغة والكلام، في ضوء ذلك؛ بيّن أثرهما في التنوع اللغوي في المجتمع.
٤. ما المقصود بعرقية اللغة في ضوء دراستك.
٥. اذكر عناصر المدخل النفسي في دراسة اللغة.
٦. بيّن عناصر علم اللغة التطبيقي وعلاقته بالمجتمع.

المبحث الثاني المدخل الإنساني في دراسة اللغة

سبق أن هذا المدخل يهتم بدراسة اللغة باعتبارها عنصراً مهماً من عناصر الثقافة في أي مجتمع؛ لذا ارتبط المدخل الإنساني أكثر بالإناسة الثقافية من غيرها من فروع علم الإناسة، بل أدى اعتماد الإناسة الثقافية في هذا المدخل إلى تطوير دراسة اللغويات، ودراسة آثار ما قبل التاريخ، وتطور الدراسات العرقية والثقافية، ونال هذا المدخل اهتمام المدرسة الأمريكية بخاصة؛ لذا ظلت الثقافة موضوعها المحوري بما تشتمل عليه من عناصر ثقافية عدة أبرزها اللغة. ويقوم المدخل الإنساني في دراسة اللغة على العناية بالبحوث والدراسات الحقلية التي توضح التفاعل المتبادل بين اللغة وغيرها من عناصر الثقافة، مع التنبه إلى مدلول كل منهما مختلف عن مدلول الآخر.

وثمة جانب يتعلق باستخدام اللغة الواحدة واشتراك المتكلمين بها في الطريقة التي ينظرون عبرها إلى العالم الخارجي والبيئة المحيطة بهم، ويشتركون بالاتجاهات السياسية والدينية والاجتماعية والعرفية السائدة في المجتمع الذي نشؤوا فيه، وفي القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع؛ كاحتفالات الزواج، والأحزان، والمناسبات الاجتماعية للأسرة؛ كالتخرج من الجامعة، أو الدخول إلى الجامعة، أو الطعام والحديث عنه ونوعه، وفي بوتقة واحدة يشترك بها أفراد المجتمع الواحد.

ومن خلال هذا؛ لوحظ أن هناك أنماطاً في اختلاف اللغات تبعاً لاختلاف ثقافات الشعوب، وهي تتمثل في القرابة، والألوان، والأسماء، وغيرها، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

أولاً: ألفاظ القرابة

للقرابة دور مهم في المجتمع بوصفها عاملاً ينبئ عن سلوك أفرادها عبر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فالقرابة عنصر مشترك في المجتمعات الإنسانية قديماً وحديثاً؛ إذ يحرص الناس على النسب، فقد اهتم الصينيون واليابانيون مثلاً بحفظ أنساب آبائهم وأجدادهم، وحرصت بعض المجتمعات الأوروبية على تتبع أنسابها^١ وللاهتمام بالقرابة والنسب مشروعيتها في الإسلام لقوله ﷺ: ((تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأجل، مرضاة للرب))^٢، وفي الثقافة العربية ألفاظ للقرابة في مجال الحياة الاجتماعية تتمثل في الألفاظ المشهورة، من مثل (العروس) ويطلق على الذكر والأنثى في مدة عرسهما، و(الزوج) لهما بعد الزواج، و(الحليل) لكل منهما أيضاً؛ لأن كلاهما يحمل للآخر، وغيرها من الألفاظ ذات الدلالات^٣.

ويلاحظ في الاختلاف الثقافي في استخدام ألفاظ القرابة؛ أنها تنتمي إلى درجة القرابة التي تربط الفرد بأسرته

^١ انظر: حمودة، عبد الوهاب، "أنساب العرب في الميزان"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٤٦، الجزء ١، مايو ١٩٥٢، ص ١٤٦.

^٢ ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، تحقيق: أحمد شاکر (القاهرة: طبعة المعارف، ١٩٤٦م)، ج ٢، ص ٣٧٤.

^٣ انظر: حسام الدين، اللغة والثقافة، ص ٣٠٨.

أو أقربائه من جهة الأب أو الأم، وقد استخدم العرب القدامى ألفاظ (العم) و(العمة) و(الخال) و(الخالة)؛ للتعبير عن أن العم والعمة شقائق أو إخوة الأب وإن علا، وأن الخال والخالة شقائق أو إخوة الأم وإن علا،^١ وهذا يختلف عنه في الإنجليزية؛ إذ يعبر عن العم والخال بلفظ (Uncle)، وعن العمة والخالة بلفظ (Aunt)، وفي الفرنسية مثلاً نجد أن التعبير عن العمة والخالة يكون بلفظ (Tante)، والعم والخال يعبر عنهما بلفظ (l'oncle)، أما في الثقافة الملايوية فيكون التعبير عن العم والخال حسب العمر والترتيب العمري داخل أسرة الأب أو الأم، فمثلاً يقال (Pak Cik) بعامية، أما عند مناداة العم أو الخال الأكبر في الأسرة فيقال (Pak Lang)، وأما العمة والخالة فتنادى بعامية بلفظ (Mak Cik)، في حين أن العمة أو الخالة الكبرى يُقال لها (Mak Lang).

ثانياً: استعمال الألوان

تختلف دلالة اللون من بلد إلى آخر، ويعرفه اللغويون بأنه جنس الأجناس؛ لأنه مقسم إلى بياض وسواد وحمرة وشفرة وخضرة وغيرها، وقد درجت اللغات الأجنبية غير العربية على تسمية الألوان بأوصاف أو أرقام، سواء أكان ذلك في تراكيب تطول أم تقصر، فالعربية فتعبر عن الألوان غالباً بلفظ واحد، بينما الإنجليزية تعبر عن بعض الألوان في تركيب،^٢ من مثل (الأبرش)؛ أي المنقط بألوان مختلفة، يُقال عنه في الإنجليزية: (shade of white spots of other colours)، وفي الفرنسية (Nuance de taches blanches ou autres).

ولا شك في أن هذا سيؤدي إلى تغيير استعمال الألوان وعددها من بلد إلى آخر، فهناك الألوان المشهورة بين الأمم في عشرين لغة مختلفة؛ وألفاظها الأساس تبلغ أحد عشر لفظاً؛ هي الأسود، والأبيض، والأحمر، والأصفر، والأزرق، والبني، والأرجواني، والرماد، والوردي، والبرتقالي، ويرتبط استخدامها بالأبعاد الثقافية لكل بلد، في حين تستخدم بعض الدول ألواناً لا تستخدمها دول أخرى.^٣

والعربية عبر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية؛ من أكثر اللغات قدرة على التعبير عن الألوان وظلالها والألوان الفرعية؛ للدلالة على التأكيد والإشباع، فقد ورد في التراث العربي القديم ذكر واسع للألوان ودلالاتها وشيوعها، وهي تعبر عن لغات العرب ولهجاتها؛ لأنها مترادفات لمدلول واحد اختلف لفظه وحمل المعنى نفسه، فقد ورد عند

^١ انظر: الخويسكي، زين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٢م)، ص [ج-]؛ السيد، صبري إبراهيم، علم اللغة الاجتماعي: مفهومه وقضاياها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م)، ص ٢٠٠؛ عمر، أحمد مختار، علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، ٥٥، ١٩٩٨م)، ص ٢٦١؛ حسام الدين، اللغة والثقافة، ص ٣٥٢، وقد أشار إلى أن (الخال) مأخوذ من (الحول) بمعنى التعهد وحسن الرعاية؛ أما (العم) فمأخوذ من معنى الكبير والسيد الذي يتقوى به.

^٢ انظر: الخويسكي، معجم الألوان، ص [ج-]؛ السيد، علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٠٠.

^٣ انظر: عمر، علم الدلالة، ص ٢٦١.

العرب الأسود بأنواعه؛ كالأدهم، وكذلك الأخضر، والأصفر، والأشهب.^١

ثالثاً: اختيار الأسماء

تعدُّ اللغة أرقى ما لدى الإنسان من مصادر القوة، ومن المتفق عليه أن الإنسان من دون غيره يستخدم الأصوات المنطوقة للاتصال بأبناء جنسه، وقد شغلت هذه اللغة الإنسان منذ آلاف السنين، فحاول الكشف عن سرِّ نطقه بها، وكنه استعماله لها، وهناك آراء مختلفة بين القدامى والمحدثين في نشأة اللغة، وما أول لغة تحدث بها الإنسان، وما أصل اللغات؛ أ تعود إلى أصل واحد أم إلى أكثر من أصل؟

وقد عرّف القدامى اللغة تعريفات متنوعة، فقال ابن جني: "حدُّ اللغة أصوات يُعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم"^٢، وقال ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) "إن اللغة عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد لإفادة الكلام، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"^٣.

ونجد أن تعريف ابن جني تضمن أربعة عناصر؛ هي: طبيعة اللغة من حيث إنها أصوات، ووظيفتها من حيث إنها تعبير، وطابعها الاجتماعي وارتباطها بالجماعة اللغوية، وطابعها النفسي والعقلي الذي يتمثل في علاقة الفكر باللغة.

وجاءت تعريفات الغربيين من مثل دي سوسير، وبوتر، وساير، وهال، وبلومفيلد، وتشومسكي، وغيرهم؛ موافقة تعريفات العرب القدامى؛ إذ جمعوا في تعريفاتهم عددًا من المسائل تماثل نظائرها عند القدامى، وهذه المسائل هي: اللغة أصوات، وتتألف من كلمات، ووسيلة للتعبير عن أغراض القوم، ومواضع واصطلاح.^٤ واختلف العرب عن الغربيين في أنهم لم يذكروا خمس مسائل ذكرها الغربيون؛ هي: أن الوحدات الصوتية متغايرة فيما بينها، وجمل اللغة غير محددة، واللغة تنظيم من الرموز، واللغة تنظيم من القواعد، واللغة عادة كلامية يكيفها المثير.

وأما ما لم يذكره الغربيون، وذكره العرب فهو أن اللغة تتكون من كلمات، والاصطلاح قائم ضمن اللغة، واللغة فعل لساني.^٥

^١ انظر: خليفة، عبد الكريم، "الألوان في معجم العربية"، المؤتمر الثالث والخمسين لجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٨٧م، وقد استُفيد منه في بيان أهمية الألوان عند العرب قديماً.

^{٦٥} عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٢-١٩٥٦م)، ج ١، ص ٣٣.

^{٦٦} ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٩٧٨م)، ص ٥١٤.

^{٦٧} تطرقت مراجع عدة معاصرة إلى تعريف اللغة، ولم تخرج التعريفات عما توصل إليه ابن جني، انظر: دي سوسير، فصول في علم اللغة العام؛ السيد، محمود أحمد، اللغة تدريسيًا واكتسابيًا (الرياض: دار الفيصل، ط ١، ١٩٨٨م)؛ حماد، أحمد عبد الرحمن، العلاقة بين اللغة والفكر (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)؛ الراجحي، عبده، فقه اللغة في الكتب العربية (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م)؛ ظاظا، حسن، اللسان والإنسان (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)؛ حسام الدين، كريم زكي، أصول تراثية في علم اللغة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، ١٩٨٥م).

^(٤) انظر: زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص ٢٢؛ زكريا، ميشال، بحوث ألسنية عربية (بيروت: المؤسسة الجامعية، ١٩٩٢م)، ص ٦٥.

- وفي ضوء ما ذكرناه عن دلالة الأسماء والمسميات أو اللفظ والمعنى؛ نجدنا متناولين موضوع التأثيرات الحضارية في الأسماء من جوانب شتى، وهي تتمثل في الأبعاد الآتية:
١. **البُعد الديني:** يتناول الأسماء التي تتضمنها عبارة "ما عُبِدَ وُحِّدَ"؛ كأسماء الأنبياء عليهم السلام، والصحابة رضوان الله عليهم، وألفاظ العبادة، والأعلام ذات الدلالة الإسلامية.
 ٢. **البُعد البيئي:** يتناول أسماء النباتات والحيوانات والأماكن في ماليزيا مثلاً.
 ٣. **البُعد الاجتماعي:** يتناول كالأسماء المركبة ودلالاتها في ماليزيا مثلاً، كتأثير البيئة القروية، وتأثير البيئة الحضرية.
 ٤. **البُعد الأعجمي:** كالفارسي، والتركي، والصيني، والملايوي، وغيرها من الأقطار، وسيتبين لنا هذا البُعد في الشرح والترجمة، وذلك بحكم صلة ماليزيا بالدول المجاورة أو المستعمرة.
 ٥. **البُعد الثقافي:** من خلال تكرير الاسم الواحد، أو الابتداء بحرف واحد في الأسرة الواحدة.
 ٦. **البُعد اللغوي:** كالظواهر اللغوية في الأسماء من حيث التركيب، والتصغير، والأصوات الغائبة في اللغة الملايوية، (الظاء)، والأصوات الملايوية الغائبة عن العربية (الباء المشددة)، وأسماء الفاعل والتفضيل، والاسم المختوم بألف ونون، ووزن (فعليل)، وسنجد كل هذا في القائمة المفسرة للأسماء أو المترجمة لها،^١ ويتناول هذا البُعد أيضاً دراسة الأسماء الملايوية وتحولاتها، ومظاهر التحول في الأسماء المتشابهة في الأسرة الواحدة، والأسماء التي تبدأ بمقاطع متنوعة، والأسماء التي تنتهي بمقاطع متنوعة، وأخيراً التحولات في الأسماء في المعنى والكتابة.

وكان دي سوسير حدّد تعريف اللغة بأنها نظام من العلامات، ولم يذكر مصطلح الرموز؛ لأن ماهية "الرمز" و"العلامة" مختلفة، فالعلاقة بين العلامة وما تشير إليه أو بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية اختيارية؛ أما العلاقة بين الرمز وما يرمز إليه فإشارة سببية منطقية؛ إذ يدل الرمز بذاته على ما يدل عليه، فنقول مثلاً إن الهلال رمز للإسلام؛ لارتباط سببي بين الإسلام وبعض أركانه كالصوم والحج؛ بالهلال، ونقول مثلاً إن الصليب رمز للمسيحية؛ لأنه يتضمن دلالة الصلْب، وكذا الميزان رمز للعدالة، فهذه الرموز لا تختلف من مجتمع إلى آخر، وهي واحدة في جميع المجتمعات الإنسانية تقريباً.^٢

أما العلامات التي تشير إلى هذه الدلالات من مثل (الإسلام) و(المسيحية) و(العدل)؛ فكلمات أو علامات تختلف من مجتمع إلى آخر، وتقوم على الاختيارية والاعتباطية؛ لذا عند العودة إلى تعريف دي سوسير للغة بأنها نظام من العلامات؛ سنجد أن اللغة بهذا المفهوم تشترك مع طائفة أخرى من النظم التي تتكون من علامات اختيارية اصطلاحية، فهناك نُظُم سمعية تخاطب الأذن؛ كاللغة المنطوقة، ونُظُم بصرية تخاطب البصر بوصفها لغة أو

^١ انظر: علي، عاصم شحادة، "الأسماء الملايوية ودلالاتها: دراسة تأصيلية"، مجلة البصائر، جامعة البتراء، المملكة الأردنية الهاشمية، مارس ٢٠١٠م، المجلد ١٣، العدد ٢، ص ٣٢٣-٣٦٤.

^٢ انظر: دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام (من الفرنسية)، ص ٨٥، ١٠٥-١٢٧؛ سامبسون، مدارس اللسانيات، ص ٣٥-٣٨.

أبجدية؛ كلغة الصم والبكم التي تعتمد على رؤية الأصل للمتكلم، أو علامات المرور المختلفة، وتُظم لمسية تخاطب اليد بوصفها لغة؛ كأبجدية المكفوفين التي تسمى "الغة بريل" القائمة على استخدام ثقب بارزة تُدرك باللمس.^١ إذن؛ ليست اللغة في جوهرها صورة مكتوبة، وإنما مسموعة، وذلك لأن الأصوات تتابع في الزمان والحروف، وتتابع في المكان، فالكتابة محاولة لنقل الصورة الصوتية في بُعدها الزماني إلى الصورة المرئية في بُعدها المكاني، وعلى هذا؛ ينبغي لنا التفريق بين اللغة بوصفها نظامًا من العلامات الصوتية، وبين الكتابة بوصفها نظامًا من العلامات الكتابية؛ على الرغم من اعتماد نظام الأصوات على نظام الحروف، فإنهما لا يختلطان، وقد يكون من الخطأ قول إن النص المكتوب تمثيل دقيق للكلام المنطوق، ويؤكد هذا فندريس بقوله: "إن الخلاف بين نظام الكتابة ونظام الكلام يتجلى في أوضح صورة في مسألة الرسم، فلا شعب لا يشكو منه قليلاً أو كثيراً، غير أن ما تعانیه الفرنسية والإنجليزية من جرائمه قد يفوق ما في غيرهما؛ حتى إن بعضهم يعد مصيبة الرسم عندنا كارثة وطنية...". ويقول في موضع آخر: "لا رسم واحداً يمثل اللغة المتكلمة كما هي، فإننا إذا تصورنا رسماً مما يسمى بـ(الرسم الصوتي)، وقد زُوّدَ بحروف متنوعة وعلامات للتشكيل، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقي معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التي يقرؤها".^٢

أما الحركات التي تمثل أصوات العربية فنلاحظ من خلالها الفرق بين ما ننطقه وما نكتبه، فمثلاً حرف الواو في الخط العربي إشارة إلى ظاهرتين مختلفتين في العربية، فتارة يشير الواو إلى حركة طويلة في مثل: مشهور، ومعروف، ويشير أيضاً إلى صوت صامت في مثل: وُرد، ووُعد، ووُصل، ويشبه حرف الياء حرف الواو في أنه يشير إلى حركة طويلة في مثل: لي، وفي، والقاضي، ويشير إلى صوت صامت في مثل: يتكلم، ويكتب، ويلعب، أما حرف الألف فليس له أي دلالة صوتية في مثل: كتبوا، ودرسوا، على عكس ما نجده في مثل: هذا، وسما، ورمي، وكذلك الألف في كلمة (ابن) تُنطق وتُكتب إذا كانت أول الكلام، فإذا سُبقت بحركة فإنها تُكتب ولا تُنطق، من مثل: لابنه، والشيء نفسه يلاحظ مع (أل) التعريف في العربية؛ إذ تُكتب اللام وتظهر في النطق مع الحروف القمرية، ولكنها تُكتب ولا تُنطق مع الحروف الشمسية.

ومثل ما ذكرناه في العربية يمكن ملاحظته في اللغات الأخرى، وإذا أردنا معرفة العلاقة بين العلامات اللغوية، وما تشير إليه، أو الصلة بين المباني والمعاني، أو الألفاظ والدلالات؛ فسوف نجد أن العلاقة بينهما عشوائية أو اعتباطية على حد قول دي سوسير، وتعود هذه العلاقة إلى السلوك الجمعي المستند إلى المواضعة (Convention) التي تقف وراء إطلاق الأسماء على المسميات، وقد أكد هذه الحقيقة اللغويون العرب القدامى عندما فطنوا إلى حقيقة أن اللغة "اضطرابية".

وكذلك قول اللغويين العرب إن اللغة تدل بوضع واصطلاح؛ يُقابل عند دي سوسير الموافقة التي تقف وراء

^١ انظر: الخناش، البنيوية في اللسانيات، ص ٣٢.

^٢ فندريس، جوزيف، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م)، ص ٢٣١.

إطلاق الأسماء على المسميات، ويقول الإسفراييني (ت ٩٥١هـ) إن الأسماء لا تدل على مدلولاتها لذاتها؛ إذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى، ولذلك يجوز اختلافها باختلاف الأمم، ويجوز تغييرها، فالثوب يسمى في لغة العرب باسم، وفي لغة العجم باسم آخر، ولو سمي الثوب (فرساً)، والفرس (ثوباً)؛ ما كان ذلك مستحيلاً، كما ينص على أن اللغة تدل بوضع أو اصطلاح.^١

وثمة رأي آخر يرى أن هناك صلة بين الكلمة ومعناها، أو بين الدال والمدلول؛ إذ ذهب بوك (Boc) إلى الربط بين جرس الحروف ودلالاتها، ورأى بعض المحدثين الغربيين أن الصوت يحمل قيمة تعبيرية (expressive value) كالقيمة التي يحملها حرف العلة القصير 'I' في الكلمتين (pinn) و (thin)؛ إذ يرتبط هذا الصوت بالأشياء الحادة البراقة المضيفة العالية، وهذا يختلف مع حرف العلة الطويل 'O' في الكلمتين (floor) و (boredom)؛ الذي يرتبط دائماً بالأشياء الغليظة المعتمة الوطيئة، وكذا القيمة التعبيرية التي يحملها الصوت 'G' في الكلمات (glare, glow, glitter, glimmer)، أو الصوت 'FI' في الكلمات (flimmer, flap, flare, flash, flitter).

ويؤكد هذا المعنى الفراهيدي (ت ١٧٩هـ) عندما أشار إلى الصلة بين أصوات الكلمة ودلالاتها بقوله: "... كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدًا فقالوا: صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صرصر..."^٢، ولاحظ سيبويه علاقة المباني بالمعاني في قوله: "ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النَّزْوَان، والنَّفْرَان، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله: العَسَلَان، والرَّتَّكَان، ومثله: العَلْيَان؛ لأنه زعزعة وتحرك، ومثله: العَثْيَان؛ لأنه تحشُّ نفسه وتثور، ومثله: الحَطْرَان، واللَّمْعَان؛ لأن هذا اضطراب وتحرك، ومثل ذلك: اللَّهْبَان، والصَّعْدَان، والوَهْجَان؛ لأنه تحرك الحر وثقوره، وإنما هو بمنزلة الغليان"^٣.

وخالفه علماء اللغة المحدثون في هذه القضية؛ لأنهم لا يُقرّون بوجود علاقة بين المباني والمعاني، أو بين الأسماء والمسميات، كما في كلمة (الحب) بالعربية ومقابلاتها في الفرنسية والألمانية والإنجليزية على التوالي (love, lirben, amour)، والعاطفة التي تشير إليها، فكل كلمة من هذه الكلمات لا تحمل في داخلها شيئاً من هذا؛ لذا نرى أن ماهية العلامات اللغوية لا نجدّها في العلاقة بين الأسماء والمسميات، وإنما نجدّها في علاقة العلامة بوصفها صورة سمعية (sound-image) (أي صوتاً) ومفهومها في الذهن (concept)، وانطباق المفهوم على الصورة السمعية هو الذي يكون العلامة اللغوية (الكلمة)؛ لذا كانت العلاقة بينهما غير اعتباطية، وإنما تبادلية؛ لأن أحدهما يستدعي الآخر.

والفهم أو التصور للعلامة التي قال بها دي سوسير يتضمن ثلاثة عناصر؛ المفهوم أي ما توحى به العلامة أو الكلمة في الذهن، وأسماء "الإشارة" أو "الدال" (Signifier)، والكلمة أي الصورة السمعية (الكلمة بوصفها

^١ انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها (القاهرة: مكتبة دار التراث، ط ٣، د.ت)، ج ١، ص ٣٤.

^٢ ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ١٥٢-١٥٣.

^٣ انظر: سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م)، ج ٢، ص ٢١٨؛ ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص (القاهرة: طبعة بولاق، ١٩٥٨م).

أصواتاً)، وسماها "المشير" أو "المدلول" (Signified)، والموضوع أي الشيء المشار إليه (object).^١

وتُختار الأسماء عادة وفق البُعد الثقافي السائد في البلد الواحد، فنجد مثلاً قضية اشتهاً أسماء معيّنة بصيغ معينة في بعض البلدان، ففي المغرب العربي مثلاً يشتهر الاسم المضاف إليه الواو والنون في آخره من مثل: زيدون، وخذلون، وشيخون، وحمدون، وهناك أسماء متداولة في مصر والعراق غير متداولة في السعودية مثلاً؛ منها: عبد النبي، وعبد المهدي؛ في العراق، وعبد الرسول، وعبد المنعم؛ في مصر، وفي الأردن مثلاً أسماء ترتبط بالبيئة الجغرافية من مثل: صخر، وليث؛ أما في العالم الإسلامي فتظهر لنا الأسماء التي تبدأ تستغرقها عبارة "ما مُحَمَّد وعَبْد"؛ من مثل: عبد الرحمن، وعبد الهادي، وعبد الله، ومحمد، ومحمود، وأحمد، وهناك أسماء تحمل في دلالاتها أبعاداً إسلامية من مثل: جهاد، ومريم، وزينب، وعائشة، وفاطمة، وشيماء، أو تحمل دلالات ثورية من مثل: كفاح، ونضال، وثورة، وشعلة، ومن الأسماء ما يُطلق على الإناث في بلد؛ من مثل (رضوى) نسبة إلى جبل رضوى في المدينة المنورة، أو (مروة) نسبة إلى المروة في مكة المكرمة، وتشتهر أسماء دالة على النبات من مثل: أزهار، وياسمين، وجلنار، وأسماء دالة على مُلحٍ خَلقية من مثل: لمياء (لسمراء الشفتين)، ونجلاء (لواسعتين العينين)، وأسماء أُخرى تشير إلى حاسة الشم من مثل: أريج، وعبير، وهي أسماء مشهورة في بلاد الشام.^٢

ومن الأمثلة الملايوية لتأثير البُعد الثقافي في اختيار الأسماء كتابة الاسم (محمد)، فيُكتب بصيغة (MD)؛ اختصاراً للاسم الكامل (MUHAMMAD)، ويُكتب بصيغة (MOHD) أو (MOHEMED) أو (MAT)؛ اختصاراً للاسم في أثناء النطق به، أو (MOHAMMAD)؛ كما يُنطق بالعربية حيث تكرر كتابة الحرف (M) بالإنجليزية؛ تعبيراً عن الشدّة في العربية.^٣

أسئلة ومراجعات

١. اشرح المقصود بالمدخل الإناسي في دراسة اللغة.
٢. هناك أنماط في اختلاف اللغات تبعاً لاختلاف ثقافات الشعوب؛ تتمثل في ألفاظ القرابة، واستعمال الألوان، واختيار الأسماء، في ضوء دراستك؛ اشرح هذه الأنماط، مع الأمثلة لكل نمط.
٣. ثمة تأثيرات حضارية في الأسماء من جوانب شتى تتمثل في الأبعاد الديني، والاجتماعي، والأعجمي، والثقافي، واللغوي؛ اشرح كل بُعد، واربطه بعلم اللغة الاجتماعي وعناصره.

^١ انظر: دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام (من الفرنسية)، ص ٨٥، ١٠٥-١١٢.

^٢ انظر: علي، الأسماء الماليزية ودلالاتها، ص ٣٣٤؛ البقري، أحمد ماهر، اللغة والمجتمع (الإسكندرية: د.ن، ١٩٨٣م)، ص ٤٧، وقد جاء الكتاب تكملة لكتابي: لويس، م. م.، اللغة في المجتمع، لويس، م. م.، ترجمة: تمام حسان، إبراهيم أنيس (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٩٥٩م)؛ وافي، علي عبد الواحد، اللغة والمجتمع (القاهرة: دار تحفة مصر، ١٩٧١م).

^٣ انظر: علي، الأسماء الماليزية ودلالاتها، ص ٣٣٣؛ السيد، علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٠٤؛ عبد السلام، مقدمة في علم اللغة التطبيقي، ص ١٣٧.

المبحث الثالث الهوية الوطنية اللغوية

يقصد بالهوية الوطنية اللغوية ذلك الانتماء الاجتماعي للناطقين بلغة ما، بوصفها اللغة الوطنية؛ لأن المجتمع ما ينتمي إليه الفرد داخل منظومة المجتمع، وما تحمله من التصورات، وأساليب الكلام، والعادات، والتقاليد، والأنماط اللغوية السائدة، والعبارات والتراكيب الشائعة بين أفراد المجتمع نفسه.^١

ويميز عادة بين الهوية الوطنية التي يشعر بها الفرد في المجتمع وبين الشؤون الإدارية للدولة، وتؤدي اللغة في الواقع دورًا مهمًا في تسيير الدولة وما تواجهه من مشاكل الحكم، وبخاصة في مجال الإدارة العامة للحكومة والتعليم بأنواعه؛ إذ يجب اختيار اللغة المنوط بها عملية التواصل مع الناس، وكذلك ينقل التعليم عبر اللغة المعرفة والعلم إلى النشء في المدارس.^٢

وللغة دور مع الثقافة والدين والتاريخ في الهوية الوطنية، وهي من المقومات الرئيسة للهوية؛ لأنها تربط الحاضر بالماضي، وتوحد الشعور لدى الفرد بأنه يتماثل ويتوحد مع الآخرين الذين يتحدثون لغته، وينفصلون عن الذين لا يتحدثونها في العرق والعادات والسلوك اللغوي.

وفكرة التوحيد والانفصال؛ أشار إليها الغربيون في أدبياتهم من مثل جارفين (Garvin) وماثيوت (Mathiot)، وأطلقا عليها "وظائف التوحيد والفصل".^٣

واللغة رمز للهوية الثقافية الوطنية التي تقاوم العرقية المحدودة داخل المجتمع، وتساعد على الاندماج فيه لغويًا وثقافيًا، ومن المشكلات التي تواجه الهوية اللغوية الوطنية مشكلات التعدد اللغوي، والثنائية اللغوية، والازدواج اللغوي.

أولاً: التعدد اللغوي

أشار الغربيون إلى تعريف التعدد اللغوي (Multilingualism) في ضوء إجادة الفرد أكثر من لغتين، وقدرته على الاستعمال اللغوي لإحداها بالتناوب عبر التواصل اللغوي مع الآخر، وقد قسّموا هذا التعدد اللغوي إلى نوعين؛ أولهما التعدد اللغوي الأحادي (Multilingual Person)، وهو الفرد الذي يستطيع الاتصال بالآخرين مباشرة بأكثر من لغة كلامًا وكتابة، أو غير مباشر عبر الاستماع والقراءة، والفرد المتعدد اللغوي اكتسب اللغة الأم في الطفولة، ثم

^١ انظر في هذا المعنى لمفهوم القومية أو الوطنية في علم اللغة الاجتماعي:

Fasold, Ralph. 1984. *The Sociolinguistics of Society*, first published, Basel Black well Ltd, UK, p1.

^٢ انظر: فاسولد، رالف، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة: إبراهيم بن صالح بن محمد الفلاي (الرياض: جامعة الملك سعود، ٢٠٠٠م)، ص ٢.
Yaacob, Zulkeflee. 2011. *Sociolinguistik: Wacana PPSMI dan Yang Indah Bahasa*, Penerbit Percetakan ST Sdn Bhd., Kelantan, Malaysia, p.19.

^٣ انظر: فاسولد، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ص ٥.

اكتسب لغات أخرى وأتقنها كصاحب اللغة الأم؛ أما النوع الثاني من التعدد اللغوي فهو التعدد اللغوي الجماعي، ويشير إلى أن أفراد المجتمع الواحد يستخدمون ثلاث لغات على الأقل بالتناوب فيما بينهم من أجل التواصل الاجتماعي.

وقد أشار فاسولد إلى كيفية نشوء الأمم ذات التعددية اللغوية، فربط التعدد اللغوي بأربعة نماذج تاريخية أدت إلى وجودها؛ منها الهجرة، والإمبريالية، والائتلاف، والتعددية اللغوية في مناطق الحدود، وقصد بالهجرة نوعين؛ الأولى توسيع جماعة كبيرة إقليمها بالتحرك إلى مناطق مجاورة، مسيطرة في الوقت نفسه على مجموعات اجتماعية ثقافية أصغر كانت من قبل، وفي نهاية المطاف تعتنق بعض الشعوب الأصلية قومية الجماعة الكبيرة، وتمثلها لغويًا وثقافيًا بدرجات متفاوتة، والثانية يحافظ فيها الآخرون على قوميتهم الأصل، ومثالها البريتونز في فرنسا والكاتالونيون في إسبانيا.¹

أما الإمبريالية فقصد بها إلى الاستعمار والسيطرة الاقتصادية، وتختلف عن الهجرة في أنها تسيطر فيها فئة قليلة من قومية ما على دول أخرى أيًا كانت قومياتها، ومنها ضمُّ الاتحاد السوفياتي جمهوريات البلطيق (لتوانيا، لاتفيا، أستونيا) بعد الحرب العالمية الثانية، وتأخذ لغة الإمبريالية الاقتصادية الأجنبية طريقها إلى بلد ما من دون أن يكون للقومية المصاحبة؛ أي سيطرة سياسية؛ لأن الميزة الاقتصادية هي المصاحبة إليها، ومثاله استخدام الإنجليزية في تايلاند التي لم تكن مستعمرة من أي دولة تتحدث الإنجليزية، ومع ذلك درست الإنجليزية شريحة كبيرة من التايلانديين.

وأما الائتلاف فقصد به إلى اتحاد مجموعات عرقية مختلفة أو قوميات تحت سيطرة سياسية لدولة واحدة، ومثاله سويسرا التي هي اتحاد من الدول التي تسمى "الكانتونات" دخلت في الائتلاف طوعًا، ففي سويسرا أربع لغات رسمية؛ هي الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والمانش، وكذلك بلجيكا، والكاميرون.

وأخيرًا التعددية اللغوية في المناطق الحدودية؛ حيث لا بُدَّ لكل دولة من أن تكون لها حدود جغرافية محددة منطقيًا.²

ومن أمثلة التعدد اللغوي في العالم الباراغوي في أمريكا الجنوبية؛ حيث يعود التعدد اللغوي إلى الاستعمار الإسباني والسكان الأصليين، وهجرة الألمان والسلاف واليابان، مما حدا باستخدام الإسبانية لغة الحكومة والقوانين، وفي التشيك التي تقع في الجزء الغربي من الباراغوي؛ يتحدث السكان لغتي الأنجاني والتشولي الهنديتين، أما في الهند فاللغة الرسمية هي الإنجليزية، واللغة القومية هي الهندية، وهناك لغات أخرى يتحدث بها الناس؛ منها الأردية في بعض الولايات، واللغة الكشميرية في ولايتي جامو وكشمير، ولغة المالاليان في ولاية كيرالا،³ وفي ماليزيا؛ اللغة الملايوية هي

¹ Fasold, Ralph. 1984. *The Sociolinguistics of Society*, first published, p 9; Edwards, John. 1994. *Multilingualism*, Routledge, London, p33, 34.

² Edwards, John. 1994. *Multilingualism*, Routledge, London, p10, 11.

³ Fasold, Ralph. 1984. *The Sociolinguistics of Society*, first published, p 13, 20.

اللغة الوطنية التي تهدف إلى تعزيز الهوية الوطنية الماليزية، وتأكيد التكامل الوطني العرقي للقومية الماليزية، فالهوية الوطنية لها علاقة بكرامة المجتمع بوصفه أمة واحدة مستقلة، والاستخدام اللغوي الذي اختير يُسهم في تقديم الدعم للإجراءات التي اتُّخذت من أجل ضمان اختيارات الدولة للهوية الوطنية، فالمجتمع الماليزي يتألف من أعراق شتى، ولكنه ينتمي إلى أسرة لغوية واحدة، وفي الوقت نفسه نجد بين أفرادها في مجموعاتهم ازدواجية لغوية في الكلام أو الاستعمال اللغوي، فالمجموعة الأولى من أهل البلد الملايو "بوميبوترا" (Bumiputra)، ونسبتهم ٥٥٪، والمجموعة الثانية الصينيون، ونسبتهم ٣٥٪، والمجموعة الثالثة الهنود التاميل، ونسبتهم ٥٪، ويتكافون من حيث التعدد اللغوي. والتعدد اللغوي مفيد لعالم اللغة؛ إذ يثبت تعقيدات اللغة بالنسبة إلى الحكومة للعودة بالناس إلى العلاقة الاجتماعية بينهم، وفي الوقت نفسه قد يجد الناس في أنفسهم صعوبة في الاتصال على كل المستويات؛ لأنه إذا لم يكن بين أفراد المجتمع والحكومة أي اتصال؛ فإن ذلك يعني الفشل في تحقيق الغايات العامة للدولة الوطنية، وفقد الثقة بين الدولة والشعب؛ لذا يسير الاتصال اللغوي في ماليزيا في اتجاهين؛ الأول الرسمي من حيث استعمال اللغة الملايوية في الاحتفالات الرسمية والاجتماعات والكتابة والتقارير والوثائق والمراسلين، والثاني الوطني من حيث استعمال الإنجليزية رسمياً في ولايات: سلانجور (Selangor)، ونجري سمبلان (Negri Sembilan)، وبهنج (Pahang)، وبيراك (Perak)، وملاكا (Melaka)، وبننج (Penang)، وسرواك (Sarawak)، وصباح (Sabah)، أما الملايوية فكانت تستعمل زمن الاستعمار البريطاني في الولايات غير الفدرالية آنذاك؛ أي قده (Kedah)، وبرليس (Perlis)، وكلنتان (Kelantan)، وترنجانو (Terengganu)، وكانت لغة التواصل لدى السلاطين هي الملايوية على الرغم من أن الموظفين كانوا من البريطانيين.^١

وعلى الرغم من أن استخدام الملايوية والإنجليزية في المعاملات الرسمية والتقارير والمقابلات؛ لم يُبعد هذا التطبيق استخدام لغة "المندرين" الصينية (Mandarin)، ولغة "التاميل" الهندية (Tamil) من المعاملات العامة، وفي الطلبات الرسمية، ووسائل الإعلام، وتعد الإنجليزية اللغة المستخدمة لدى الأعراق؛ لأنها كانت لغة المستعمر البريطاني، ولغة النخبة من أبناء الأعراق الثلاثة في ماليزيا، وتستخدم الملايوية بين السكان الأصليين من الملايو. ومن الصينيين الماليزيين من لغتهم "الكانتونيس" الصينية (Kantones)، ومن الملايو في سرواك من يستعملون لغة "الباجو" (Bajau) ولغة "الإيبان" (Iban)، أما في الأسواق العامة فنجد أن لغة الاتصال بين المواطنين على اختلاف أعراقهم هي اللغة الملايوية، وهناك رطانة (Pidgins) تجمع بين الصينية والملايوية، ولغة "الهلوكين" (Holkin) في ولاية بننج التي تستعملها مجموعة صغيرة من الصينيين هناك.^٢

وعليه؛ اللغات المختارة على المستوى الاجتماعي في ماليزيا بين الأعراق المتعددة هي:

- الملايوية بين الماليزيين على اختلاف أعراقهم من الملايو والصينيين والتاميل الهنود الذين لا يتقنون الإنجليزية.

^١ Hj Omar, Asmah. 1987. *National Language and Communication In Multilingual Societies*, Dewan Bahasa Dan Pustaka, Kuala Lumpur, p. 14- 15.

^٢ انظر: السابق نفسه.

- الإنجليزية بين النخبة من الأعراق الثلاثة في العلوم والتحدث مع الأجانب.
- الملايوية بين الملايو.
- المندرين والكانتونيس بين الصينيين.
- التاميلية بين الهنود التاميل.

ثانياً: الازدواجية اللغوية

الازدواجية اللغوية (Diglossia) موقف لغوي ثابت نسبياً يتضمن اللهجات الأساس للغة بعينها، ومن بينها لهجة متواضع عليها، أو لهجات إقليمية متواضع عليها، أو نوعية أخرى مختلفة صارمة من حيث التقنين.^١

ومن المعايير المهمة للازدواجية اللغوية الوظيفة من حيث تقسيم اللغة نفسها، فالعربية مثلاً قسماً؛ الأول هو اللهجة العليا، والثانية اللهجة الدنيا، فالفصحى لغة القرآن الكريم هي اللهجة العليا، واللهجات العربية الشائعة في العالم العربي هي اللهجة الدنيا، ومن أمثلة ذلك في أوروبا؛ أن اللهجة العليا في اليونان مثلاً تسمى "كاثاريفوسكا" (Katharevusa)، أي اللهجة النقية، واللهجة الدنيا تسمى "الديموطيقية" (Demotic)، أي اليونانية المحكية، وفي هايتي اللهجة العليا هي اللغة الفرنسية، واللهجة الدنيا هي اللغة الهايتية، وهذا التوزيع الوظيفي لكل من اللهجات العليا والدنيا يعني أنه لا يمكن استخدام إلا إحداهما في بعض الحالات.

وقد وضع فرجسون سمات أخرى لازدواجية اللغة بعد الوظيفة:

- **المقام من حيث استخدام اللهجة العليا في المناسبات السياسية وإلقاء الشعر، أما الدنيا فلغة الكلام.**
- التراث الأدبي.
- الاكتساب من حيث أنماط اللغة المكتسبة المرتبطة باللهجتين العليا والدنيا، فالدنيا تستخدم لدى الأطفال من غير شعورهم، أما العليا فيتعلمونها بعد أن يكتسبوا الدنيا، وهي تُكتسب عبر التعليم الرسمي في المدرسة.
- التقييس؛ أي القياس بالوسائل المعتادة كالمعاجم وكتب القواعد والتهجئة، وهي متوفرة بكثرة في اللهجة العليا على عكس اللهجة الدنيا.
- الثبات من حيث المحافظة على شكل اللغة في المجتمع الواحد.
- القواعد.
- المعجم عبر الاشتراك بين اللهجتين في المفردات.
- علم الأصوات بين اللهجتين من حيث النظرية الصوتية.^٢

^١ انظر: هيدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص ٨٩.

Ferguson, Charles. 1959. Diglossia. Journal Word. In Giglioli, Pier Paolo (ed.). 1972. *Language and Social Context*. Harmondsworth, England: Penguin Book; Fasold, Ralph. 1984. *The Sociolinguistics of Society*, p34.

^٢ انظر: فاسولد، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ص ٦٠-٧٦.

وقد عرض فيشمن (J. Fishman) ¹ رأيه في مجال تعريف الازدواجية اللغوية، وتوسّع فيها، فرأى أن يفرق بين الازدواجية والثنائية التي هي موضع عناية علماء النفس وعلماء علم اللغة النفسي، أما الازدواجية فموضع عناية علم الاجتماع وعلماء علم اللغة الاجتماعي؛ لذا قلّل من وجود شكلين للغة نفسها، وذكر أن ليس من الضروري وجود ازدواجية لغوية في مجتمعات تعددية اللغة؛ ولكنها قد تكون في المجتمعات التي تستخدم لهجات منفصلة، أو لغات خاصّة، أو ضروريًا لغوية مختلفة وظيفيًا مهما كان نوعها.²

ثالثًا: الثنائية اللغوية

الثنائية اللغوية (Bilingualism) أن يتكلّم الفرد أو الجماعة في مجتمع ما؛ لغتين في آن معًا، وقد تكون هذه المعرفة باستعمال اللغتين، أو إتقانهما، أو معرفة نظاميهما اللغويين.³ وفي ضوء هذا؛ تنقسم الثنائية اللغوية إلى ثنائية لغوية فردية، وثنائية لغوية جمعية، وقد أشار الدارسون إلى أن الثنائية اللغوية منذ الطفولة تدوم أطول مع كثرة الاستعمال جنبًا إلى جنب من قبل الفرد، وهذا يعتمد على إتقان الفرد اللغة منذ الطفولة، واستمرار إتقانه إياها حتى النهاية؛ أما إذا كانت لغته معيبة؛ فإنّه يستمرّ في الضعف اللغوي حتى النهاية سواء من حيث الكلام أم الكتابة.⁴ وقد ذكروا أسبابًا عدة لظهور الثنائية اللغوية بقسميها في المجتمعات الإنسانية؛ منها العامل العسكري بسبب الاستعمار، والعامل السياسي بسبب السيطرة بعد الاستعمار، والعامل الاقتصادي، والعامل الثقافي، وعامل التعداد العرقي.⁵

¹ Fishman, Joshua. 1972. *Societal Bilingualism: Stable and Transitional*. Section VI of the *Sociology of Language*, 19-106. In Roeley, MA: Newbury House. Also In; Fishman, *Sociolinguistics; A Brief Introduction*, 73-90, MA: Newbury House.

² انظر: فاسولد، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ص 68؛ هيدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص 91.

Fishman, Joshua. 1972. *Societal Bilingualism: Stable and Transitional*. Section VI of the *Sociology of Language*, p92.

³ Hamers, Josiane F and Michel H. A. Blanc. 2000. *Bilinguality and Bilingualism*, Secnd Edtion, Cambridge University Press, p1-3.

وقد أشارت الدراسة إلى آراء العلماء الغربيين من مثل: بلومفيلد، وماكانامارا، وتيتون، وبارادس، وموهانتي، وجروسجين، وبيتز بيردسمور، وغيرهم؛ في تعريف الثنائية، وأنها تدور بين تحكّم المتكلم بلغتين في آن معًا، أو تملّك الفرد الحد الأدنى من إحدى المهارات الأربع في اللغة الثانية المكتسبة، أو قدرة الفرد على الكلام بلغته الأم واللغة الثانية المكتسبة، أو قدرة الفرد على التواصل مع الآخرين بلغة أخرى غير لغته الأم.

⁴ انظر: باي، ماريو، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر (القاهرة: عالم الكتب، ط 8، 1998م)، ص 192.

⁵ انظر: الخولي، محمد علي، الحياة مع لغتين: الثنائية اللغوية (عمان: دار الفلاح، 2002م)، ص 60.

Hoffman, Charlotte. 1991. *Introduction to Bilingualism*, Longman, London, p162.

أسئلة ومراجعات

١. ما المقصود بالهوية الوطنية اللغوية في ضوء علم اللغة الاجتماعي؟
٢. اذكر التعدد اللغوي في ضوء إجادة الفرد أكثر من لغتين، مع شرح وجيز.
٣. ارتبط التعدد اللغوي بأربعة أمثلة تاريخية أدت إلى وجودها؛ هي الهجرة، والإمبريالية، والائتلاف، والتعددية اللغوية في مناطق الحدود؛ اشرح هذه الأمثلة.
٤. هات أمثلة للتعدد اللغوي في العالم، أو في ماليزيا.
٥. بيّن أهمية التعدد اللغوي لعالم اللغة.
٦. عرّف الازدواجية اللغوية المصطلح عليها بالإنجليزية (Diglossia).
٧. من المعايير المهمة للازدواجية اللغوية الوظيفة من حيث تقسيم اللغة نفسها إلى لهجتين؛ عليا، ودنيا، في ضوء ذلك؛ هات أمثلة من لغات العالم لهذه المفاهيم.
٨. اذكر سمات الازدواجية اللغوية التي وضعها العالم فرجسون، مع الشرح.
٩. ما المقصود بالثنائية اللغوية المصطلح عليها بالإنجليزية (Bilingualism)؟

مراجع أولية للمطالعة

- البقري، أحمد ماهر، **اللغة والمجتمع** (الإسكندرية: د.ن، ١٩٨٣م).
- خليفة، عبد الكريم، "الألوان في معجم العربية"، **المؤتمر الثالث والخمسين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة**، ١٩٨٧م.
- السيد، محمود أحمد، **اللغة تدريسيًا واكتسابًا** (الرياض: دار الفيصل، ط١، ١٩٨٨م).
- صحراوي، عز الدين، "اللغة بين اللسانيات واللسانيات الاجتماعية"، **مجلة العلوم الإنسانية**، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد ٥، ٢٠٠٤م.
- علي، عاصم شحادة، "الأسماء الماليزية ودلالاتها: دراسة تأصيلية"، **مجلة البصائر**، جامعة البتراء، المملكة الأردنية الهاشمية، مارس ٢٠١٠م، المجلد ١٣، العدد ٢.

مراجع متقدمة للمطالعة

البريدي، عبد الله، التخطيط اللغوي: تعريف نظري ونموذج تطبيقي (الرياض: الملتقى التنسيقي للجامعات، ٢٠١٣م).

توماسيلو، ميشيل، الثقافة والمعرفة البشرية، ترجمة: شوقي جلال (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٦م).

الراجحي، عبده، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م).

سكر، ماجد رجب العبد، التواصل الاجتماعي؛ أنواعه، ضوابطه، آثاره ومعوقاته: دراسة قرآنية موضوعية (رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١١م).

المصري، عباس؛ أبو حسن، عماد، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية (جنين: الجامعة العربية الأمريكية، ٢٠١٤م).

الفصل الثالث التنوعات اللغوية

المبحث الأول التنوعات اللغوية في المجتمع الإنساني

يُعرف عن علم الاجتماع أنه الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي للأفراد، والأساليب التي ينتظم بها المجتمع؛ باتباع خطوات المنهج العلمي، وهو توجهٌ أكاديمي جديد نسبيًا بين علوم الاجتماعيات الأخرى بما فيها الاقتصاد، والسياسة، والإناسة، والتاريخ، والنفس، ولكن الأفكار المؤسسة له ذات تاريخ طويل، ويمكن أن نتبّع أصولها في خليط المعرفة الإنسانية والفلسفة المشتركة، فقد ظهر علم الاجتماع كما هو حاليًا - بوصفه صياغة علمية - في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وتطور ليهتم بالقواعد والعمليات الاجتماعية التي تربط وتفصل الناس أفرادًا وأعضاء جمعيات ومجموعات ومؤسسات.

ومفهوم "الاجتماع" مفهوم أساس في علم الاجتماع؛ لأن الفرد لا يملك إلا أن يكون كائنًا اجتماعيًا يعيش في وسط اجتماعي، وعلى اتصال مستمر بسائر أفراد المجتمع، فيندمج في محيطهم ويتفاعل معهم إيجابيًا، وهذا يؤكد أنه من دون وجود تفاعل إنساني مستمر؛ لا يمكن أن يُطلق على أحدنا صفة "اجتماعي".

ويُعدُّ علم اللغة من العلوم الاجتماعية التي تهتم بدراسة كثير من نشاطات الإنسان خلال تفاعله وعلاقاته وانفعالاته وسلوكه أو رد فعله الفردي تجاه الآخرين، وتُعدُّ اللغة رمز الاتصال بين الكائنات الحية بما فيها البشر، وجزءًا من مكونات الثقافة وعناصرها المختلفة.

ومعرفة تنوعات اللغة في المجتمع الإنساني من حيث اللغة، واللهجة، والتباين الاجتماعي، ولغة الصغار، ولغة المرأة؛ تعبر عن العلاقات الاجتماعية، ولا بُدَّ من أن ندرك الظواهر والحقائق التي تتصل بهذه القضية؛ إذ تشمل الدراسات الإنسانية دراسة اللغات، والآداب، والتاريخ، والفلسفة، والاجتماع، والقانون، ومجالات أخرى ماثلة تسهم في فهم الحياة، والسلوك، والتجارب الإنسانية، ولا ينكر أحد أن هناك فرقًا بين لغتي المرأة والرجل، ولغتي الكبار والصغار، وبين اللهجات؛ لأن اللغة وسيلة للتعامل بين الناس، وتفيد في تيسير الاتصال اللغوي ووضوح معاني عناصره، فالإنسان سواء أكان صغيرًا أم شيخًا؛ يستخدم اللغة للتعبير عن شعوره وآرائه وتجاربه بطرق وتعبيرات مختلفة، ولنفهم العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الناس من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي؛ ينبغي لنا معرفة مظاهر التماثل والاختلاف بينهم في استخدام اللغة للتعبير بما عن حاجاتهم ومواقفهم.

وقد كانت اللغة - ولا تزال وستظل - إحدى القوى التي ساعدت الكائنات البشرية على الخروج من العالم الحيواني، والانضواء في جماعات، وتطور القدرة على التفكير، وتنظيم الحياة الاجتماعية، وتحقيق التقدم الذي عليه الإنسان اليوم؛ لأن الكلام بطبيعته "يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية، ويسمح لنا بالخروج عنه، إنه مبدع،

وصانع الحياة الاجتماعية"؛^١ لذا يَحْتَمُّ على من يريد دراسة الإنسان أن يعكف على درس لغته، وتعرّف هذا الكائن خارج الحقل اللغوي؛ لأن كل ما في هذا العالم - شئنا أم أبينا - مرتبط باللغة،^٢ فقد نشأت مع نشوء العمل، وتطورت معه، ومن دونها لن نحسن عملنا، ولن يتقدم علمنا وفننا، ولن تتقدم حياتنا، ولن تكون لنا حضارة،^٣ فاللغة أهم وسائل نشاطنا العلمي والفكري والاجتماعي.

ومن ثمّ؛ نعرف أنه لا يمكن أن نفهم اللغة وقوانين تطورها بمعزل عن حركة المجتمع الناطق بها في الزمان والمكان المعينين؛ لأن فيها من الإنسان فكره وطرائقه الذهنية، وفيها من العالم الخارجي تنوّعه وألوانه.

وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر نجهل تحديده؛ تعامل فيه مع اللغة تعامله مع الهواء والماء، فلم يكلف نفسه عناء البحث عن مكوّناتها، ولم يشغل باله في معرفة كُنْه وسيلته الإبلاغية المثلى، ثم جاء زمن بدأ فيه الإنسان يصرف جهداً من أجل الوقوف على سير سلوكه التواصلية "الكلام"، أو إثراء نظام هذا السلوك "اللغة"، ولكن لا يزال الإنسان يكتشف أن معرفته باللغة على النحو الذي يطمح إليه في حاجة إلى مزيد من الدرس والبحث؛ لذا يؤكد راسل ضالة معرفتنا بالكلام واللغة، ويدعو إلى طريقة سلوكية دقيقة في البحث اللغوي؛ لأن المعنى لا يمكن أن يفهم إذا عاجنا اللغة على أساس أنها عادة جسمية، والميدان الصحيح لعلم اللغة هو دراسة ما يقوله الناس، وما يسمعون وسط المحيط والتجارب التي يعلمون فيها الأشياء.^٤

ويؤكد فيرث هذه النظرة الاجتماعية إلى اللغة بقوله إن الإنسان ليس مفصلاً عن العالم الذي يعيش فيه، فليس إلا جزءاً منه، إنه ليس موجوداً ليفكر فيه؛ ولكن ليعمل ما يناسب، وذلك يقتضيه أن يمتنع عن العمل في الوقت المناسب أيضاً، وهذا ينطبق على أهم نشاط اجتماعي للإنسان؛ أي دفع الهواء وآذان الآخرين إلى الاضطراب بوساطة ما ينطقه، فكلامك ليس مجرد تحريك للسان أو اهتزاز في الحنجرة أو إصغاء، إنه أكثر من ذلك؛ نتيجة لعمل العقل في تأدية وظيفته مديراً للعلاقات؛ لتحفظ عليك سيرك في المحيط الذي تعيش فيه.^٥

وهذا الارتباط بين اللغة والإنسان يؤكد أن الإنسان لغة، ويلزم عن هذه المقولة أن اللغة من كيان الإنسان، فلا إنسانية من دون لغة،^٦ والإنسان من دون لغة لا يمتاز بالإنسانية الكاملة، ولو كان عقله وأفكاره في مستوى أعلى بكثير من المستوى الحيواني، وقد أثبتت الأبحاث التي قام بها بعض العلماء أن العقل لا يبلغ نموه إلا بعد أن يتمكن الإنسان من النطق كل التمكن.^٧

^١ نحر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ١٥.

^٢ انظر: السابق نفسه.

^٣ انظر: القضايني، رضوان، علم اللسان (بيروت: دار الكتاب الحديث، ١٩٨٤م)، ص ٨.

^٤ انظر: أبو الفرج، محمد أحمد، مقدمة لدراسة فقه اللغة (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٦م)، ص ٢٨.

^٥ انظر: المرجع السابق، ص ٢٩.

^٦ انظر: الحيايبي، محمد عزيز، تأملات في اللغو واللغة (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م)، ص ١١.

^٧ انظر: شوشار، بول، اللغة والفكر، ترجمة: صلاح أبو الوليد (باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٧٣م)، ص ٨٧.

أما أنماط النوعيات اللغوية فتفاصيلها كما يأتي:

أولاً: اللغة

ذكر الدارسون في علم الإناسة أن اللغة ارتبطت بالثقافة وظهور الرموز والعلامات التي تكوّن نظامها، فاللغة من مظاهر ثقافة المجتمع، وأي فصل بينهما ينافي طبائع الأشياء.

ولتحديد مفهوم اللغة لا بُدَّ من ذكر أن اللغة أكبر من اللهجة، والمعايير المعتمدة في تحديد تعريف اللغة تكون في إطار الاستخدام الشائع لكلمة (لغة)، وارتباطها بالأجزاء الثقافية المرتبط بالكلام واللغة، وقد نكتشف في الثقافات المختلفة الإنسانية أن لا تمييز بين اللغة واللهجة، ومن هنا لا بد من بيان مفهوم اللغة، وهو مفهوم يدور في الوحدات اللغوية التي تتضمنها، وتدعى اللغة المتواضع عليها (Standard Language)، وهي لغة اتفق على استخدامها في علم اللغة الاجتماعي للإشارة إلى تنوعات اللغة في مجتمع معين، وهي لغة خلت من الظواهر اللهجية والبيئية، وقواعدها مستقرة ومنضبطة بقوانين، وهذه اللغة المثالية هي المستعملة في التعليم، والدوائر الرسمية، والصحافة، والإعلام، والأدب، والأعمال الفنية، والمؤتمرات، وقد عرّفها بعض الغربيين المتخصصين في علم اللغة الاجتماعي بأنها تلك التي ينبغي أن تكشف عن استقرار مرن وقابلية لاكتساب المعرفة وعوامل التنوير.^١

وقد أشار هرسون إلى أن نوعية اللغة مرت بمراحل عدة؛ منها الاختيار، والتقنين، وتوسيع الوظائف، والمواضعة على النوعية، وذلك من أجل الوصول إلى حقيقة أن لا تمييز بين اللغة واللهجة باستثناء المكانة التي تمتاز بها لغة معينة، وبذلك نصل إلى أن اللغة المثالية هي التي تمثل وحدة المجتمع الذي يستعملها وموقعه ومنزلته، وقد يُطلق عليها أحياناً "اللغة القومية"؛ لأنها تجمع أفراد المجتمع على لسان، أو هي اللغة المشتركة، وهذا يشبه العربية الفصيحة، وهي لغة الكتابة بعامة.^٢

ثانياً: اللهجات

يضم المجتمع مجتمعات صغيرة؛ منها مجتمع المدينة، ومجتمع القرية، ومجتمع البادية، وكل مجتمع يتحدث بلهجة تختلف اختلافاً ضئيلاً عن لهجة المجتمع الصغير الذي يجاوره، وبهذا تستند اللهجات في توزيعها إلى التوزع والتحرك الجغرافي، والطبقة الاجتماعية، والجنس، والسن، وقد أدى الاختلاف في هذه العوامل إلى أن انتمى الفرد المتحدث بلغة ما واقترب إلى المجموعة التي تتحدث لغة نفسها، ومثل ذلك بريطانيا حيث تتميز بتوفر الطبقة الاجتماعية فيها وفق التوزع الجغرافي بوصفه عنصراً محددًا لنوع اللغة، مما أدى إلى وجود لكنة (Accent) إلى جانب اللهجة؛ للدلالة على الاختلاف في النطق.^٣

^١ انظر: علي، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة، ص ١٤٤.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ١٤٤-١٤٥.

^٣ انظر: علي، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة، ص ١٤٥.

فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، واللغة تشتمل عادة على عدة لهجات، ولكل منها ما يميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية؛ التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات.

وقد كان القدامى من علماء العربية يعبرون عما نسميه اليوم "اللهجة" بكلمتي (اللغة) حينئذ، و(اللحن) حينئذٍ آخر، ويؤرى هذا واضحاً جلياً في المعاجم العريقة القديمة، وفي بعض الروايات الأدبية، فيقولون مثلاً: الصقر؛ بالصاد من الطيور الجارحة، وبالزاي لُغَةً، ويروى أن أعرابياً قال في معرض الحديث عن مسألة نحوية: "ليس هذا لحنى، ولا لحن قومي"، وكثيراً ما يشير أصحاب المعاجم إلى لغات تميم، وطبيع، وهذيل، ولا يريدون بمثل هذا التعبير سوى ما نعنيه نحن اليوم بكلمة (اللهجة).^١

فلا بُدَّ من أن تشترك لهجات اللغة الواحدة في الكثرة الغالبة من الكلمات ومعانيها؛ في معظم الأسس التي تخضع لها بنية الكلمات، وفوق هذا وذاك؛ في تركيب الجمل، فإذا اختلفت معاني معظم كلماتها، واتخذت أسساً خاصة في بنية كلماتها، وقواعد خاصة في تركيب جملها؛ لا تسمى حينئذٍ "لهجة"، وإنما "لغة مستقلة"، وإن ظلت تتصل وغيرها بوشائج تجعلها تنتمي إلى فصيلة واحدة من الفصائل اللغوية.

فالفصيلة اللغوية تتألف من عدة لغات ترجع جميعها إلى أرومة واحدة، وقد احتفظت كل منها بصفات يسهل على اللغوي إرجاعها إلى ذلك الأصل القديم، والعناصر التي تحتفظ بها لغات الفصيلة الواحدة هي تلك العناصر التي لا يصيبها إلا قليل من التغير على الرغم من مرور الزمن وتطور فروع الفصيلة الواحدة، وتلك العناصر القديمة تكاد تنحصر فيما يأتي:^٢

- الضمائر.
- الأعداد.
- أسماء الإشارة والموصول.
- الاشتراك في معاني نسبة كبيرة من الكلمات ذات الدلالات القديمة؛ كالأرض والسماء، وألقاب الأسرة كالأب والأم، والأخ والابن.
- أدوات الربط بين أدوات الجملة.
- الاشتراك العام في كيفية تركيب الجمل.
- أما تلك الصفات الصوتية التي تميز اللهجات؛ فيمكن أن تلخص فيما يأتي:^٣
- اختلاف في مخرج بعض الأصوات اللغوية.

^١ انظر: أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م)، ص ١٦-١٧.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ١٨-١٩.

^٣ انظر: أنيس، في اللهجات العربية، ص ١٩.

- اختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات.

- اختلاف في مقياس بعض أصوات اللين.

- تباين في النغمة الموسيقية للكلام.

- اختلاف في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض.

ومن العسير أن نضع حدًا أدنى للفروق بين لهجات اللغة الواحدة؛ متى وُجد امتازت لهجة من أختها، أو قيل إن هذه لهجة، وتلك لهجة أخرى، وكلاهما في لغة واحدة، نعم؛ من العسير وضع هذا الحد الأدنى؛ لأن عملية النطق ليست إلا نشاطًا عضليًا يختلف أدائه باختلاف أفراد البيئة اللغوية الواحدة، وقد برهنت التجارب الدقيقة التي أجراها علماء الأصوات اللغوية على أنه لا يكاد يكون شخصان في بيئة واحدة ينطقان نطقًا متماثلًا تمامًا، وإنما لا بُدَّ من أن تلحظ الأذن المدربة بعض الفروق الصوتية الدقيقة، وقد ظهر هذا جليًا حين سُجل نطق بعض الأفراد في البيئة اللغوية الواحدة، بل إن من العلماء من يؤكد أن المرء نفسه يختلف نطقه بعض الاختلاف في كل مرة يتكلم فيها، وإن اشتركت الكلمات نفسها في قوله؛ لأن عضلات النطق لا تؤدي عملها التآدية نفسها في كل مرة، ولعل مثل هذه الفروق الدقيقة بين نطق المرء ونفسه في طرفين متماثلين، أو بين أبناء اللهجة الواحدة؛ ليست من الأهمية في الدراسة اللغوية؛ لنعني بها، ونحللها، ونشرحها، وإنما يكتفي اللغوي عادة بملاحظة تلك الصفات العامة التي تميز لهجة من اللهجات، ويشترك فيها أفراد تلك اللهجة، وهي الصفات التي نراها ممثلة دائمًا في كلامهم، وتصدر عنهم بالسليقة من دون تكلف أو تعمُد.^١

ويشير هذا إلى أن الظروف الاجتماعية في البيئة الواحدة قد تولد أنواعًا من اللهجات الخاصة؛ كتلك التي نراها بين أصحاب حرفه من الحرف، أو بين اللصوص وطريدي القانون، أو بين طائفة من الناس انعزلت عن المجتمع لسبب ديني أو سياسي، فإذا توفرت في بيئة اللهجة الواحدة منطقة صغيرة ذات خصائص متميزة تخالف ما يشيع في هذه اللهجة من صفات؛ كأن نجد قرية تنطق القاف أشبه بالجيم غير المعطشة في وسط مديرية يُنطق فيها القاف همزة؛ سميت مثل هذه القرية جزيرة لغوية (Speech-Island)، ويعني اللغوي الحديث بمثل هذه الجزائر اللغوية عناية كبيرة في دراسة اللهجات، ويحاول أن يتعرف على تاريخ هذه القرية، والسر في احتفاظها بمثل هذا النطق.^٢

وهناك عاملان رئيسان يعزى إليهما تكوُّن اللهجات في العالم؛^٣ هما الانعزال بين بيئات الشعب الواحد، والصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرة، وقد شهد التاريخ نشوء عدة لغات مستقلة للغة الواحدة نتيجة أحد هذين العاملين، أو كليهما معًا.

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٢٠.

^٢ انظر: أنيس، في اللهجات العربية، ص ٢١.

^٣ انظر: المرجع السابق، ص ٢١.

ثالثاً: التباين الاجتماعي

ثمّة تمييز بين لغات الأطفال والبالغين، والمرأة والرجل، والمتقف والأمي، والمدرّس والحدّاد، والريف والمدينة، وهناك في الوقت نفسه أساليب لغوية يقوم بها الفرد في الاتصال بالآخر؛ هي:

- الأسلوب الجادّ؛ كالخطب الرسمية، والأدعية، والصلوات، وإلقاء الشعر.
- الأسلوب الرسمي؛ كالأخبار، والمحاضرات.
- الأسلوب الاستشاري، ويكون في المحاكم، أو بين الوزراء في المناقشات.
- الأسلوب العادي الذي يقوم به الصديق مع صديقه، أو أصحاب المهنة الواحدة فيما بينهم.
- أسلوب الألفة، ويتألف من الإيماءة، والجملة، والمفردة في اللغة العادية.

وقد يحدث أن ينتقل المتكلّم من أسلوب إلى آخر حسب المقام الذي هو فيه؛ كأن ينتقل أحدنا من أسلوب

التحدث بالفصيحة إلى العامية.^١

ولدينا تاريخياً تحدّ مع اللغة من حيث صلتها بالتنوع؛ إذ استخدم كثيراً أداة للقمع؛ لغرض صريح يتمثل في إدامة نُظُم الهيمنة والتسلسل الهرمي بين المجموعات، وفي النتيجة؛ كانت اللغة في كثير من الحالات طيلة تاريخ مجتمعاتنا من أجل النهوض بمركز بعض المجموعات، مع إحالة المجموعات الأخرى على الدونية، وتشمل الأمثلة المبكرة لاستخدام اللغة لهذا الغرض تعيين الأميركيين الأصليين من مثل (savages) و (primitive)؛ على النقيض من المستوطنين الأوروبيين من مثل (civilized)، كما استُخدم مصطلح (African slaves)؛ ليصف سلبياً نظاماً غير إنساني من العبودية القسرية "يستعبد" الشعب الحر في أفريقيا، وكذا التقليل من شأن النساء البالغات من خلال الاستخدام النشط لمصطلح "الفتاة"، وأيضاً إطلاق مصطلح "أميركا" تحديداً على الولايات المتحدة بدلاً من القارة كلها بما فيها من دول جنوبها وشماليها؛ لذا كانت هذه الاستخدامات تساعد اللغة منهجياً على إحالة فئات معينة على الدونية وتهميشها وتسويغ أنماط الاستبعاد اللاحقة وسوء المعاملة والاستغلال.^٢

أسئلة ومراجعات

١. ما المقصود بنمط اللغة؟
٢. ذكر الدارسون في علم الإناسة أن اللغة ارتبطت بالثقافة وظهور الرموز والعلامات التي تكوّن نظام اللغة؛ اشرح هذا القول.
٣. اذكر العلاقة بين اللغة واللهجة.

^١ انظر: علي، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة، ص ١٤٥.

^٢ انظر على الشابكة: "لغة التنوع"، المطالعة في ٢ مايو ٢٠١٧م.

٤. تحدث في اختصار عن اللغة والتباين الاجتماعي.

المبحث الثاني التنوعات اللغوية الاجتماعية

يمكن فهم التنوع اللغوي داخل مجتمع الكلام العام بطريقتين رئيسيتين؛ إحداهما استخدام مجموعة متميزة من اللغة لتأكيد التضامن الاجتماعي بين من يستخدمونها، والأخرى استخدامها في حدود المحافظة على المسافة بين من يستخدمونها وغيرهم.

وهناك أنماط من التنوعات اللغوية الاجتماعية تتمثل بخاصة في لغتي الطفل والمرأة، فقد عرفنا أن اللغة تلازمت منذ الولادة، ونستخدمها في جميع مجالات الحياة؛ للتعبير عن مشاعرنا، أو نقل أخبارنا، أو الاستعلام عما يشغلنا، وهذا كله يتعلمه الطفل في أثناء نموه لغوياً، أما المرأة فلغتها مُربكة؛ لأنها تشعر أن كل ما حولها يُناقض طبيعتها، ولو حصلت على دورها في الكلام فستجد مزاجها الذي دفعها إلى طلب ذلك؛ قد أصابه الضعف أو الزوال، فلا يكون في مقدورها حينئذ أن تقول ما أرادت قوله.

أولاً: لغة الطفل

للطفل دور مهم في التنوع اللغوي في المجتمع؛ ذلك لأن حين يقلد الكبير في السلوك اللغوي؛ مُعرّض للوقوع في الانحراف اللغوي أو الخطأ عند محاولاته التقليد والمحاكاة، وقد يكون الخطأ أو الانحراف في الصيغ والتراكيب والأصوات، وقد ينتشر بين أقرانه في المدرسة؛ لذا يحرص المربون على تصحيح الخطأ لدى الصغار بالعناية بالسلوك اللغوي، وإرشاد الأمهات إلى السبل الرشيدة في تنشئة أطفالهم لغوياً، فالطفل يقلد أمه أولاً، ثم الأسرة، ثم ينتقل إلى البيئة، وربما لا تكون لديه قدرة على استيعاب القواعد الكليّة للغة، ومن الصعوبات الإتيان بأصوات معيّنة وتحريفها أو استبدالها، وفي الصيغ يركز الطفل أحياناً على الأسماء أكثر من الأفعال أو العكس، وقد تكون في ترتيب الجملة من حيث الفعل والفاعل والمفعول، أو المبتدأ والفعل والمفعول؛ حسب النظام اللغوي للغة ما، وقد يقيس الطفل قياساً خاطئاً في اللغة.^١

وتحقق اللغة للطفل وظائف إضافية؛^٢ إذ يرى بعض علماء النمو - وعلى رأسهم عالم النفس بياجيه نتيجة لدراساته وتجاربه على الأطفال - أن الطفل يحقق عن طريق حديثه - وبخاصة خلال السنوات المبكرة من عمره -

^١ انظر: علي، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة، ص ١٤٦؛ بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٠٣.

^٢ انظر: كرم الدين، ليلي أحمد، اللغة عند الطفل: تطورها ومشكلاتها (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٠م)، ص ١١.

رغبته في التحدث أولاً وقبل كل شيء لنفسه وعن نفسه للآخرين، ويطلق بياجيه على حديث الطفل لنفسه اسم "اللغة المركزية الذات" (Egocentric Speech)؛ بينما يطلق على اللغة الموجهة للمجتمع اسم (Socialized Speech)، ومن أهم خصائص النوع الأول أن الطفل في حديثه لا يهتم بأن يسمعه الآخرون أو يفهموا ما يقوله، ولا يأخذ وجهة نظر السامع في الاعتبار، ويكون حديثه شيئاً يصاحب نشاطه الجسمي.

وقد حدد بياجيه خصائص كل من الحديث المركزي الذات والموجه للمجتمع بالتفصيل، وكشفت نتائجها أن نسبة الحديث المركزي الذات تبلغ حوالي ثلث حديث الطفل حتى السادسة من عمره، وأنها تتناقص تدريجياً مع زيادة عمر الطفل وتطوره، وتساعد اللغة على تكوين عالم الطفل بأبعاده وجوانبه، وتساعد على وضع الافتراضات عن الأشياء الممكنة الوقوع في العالم من حوله، وتساعد اللغة الطفل على تعرّف العادات والقيم السائدة في مجتمعه، ومن ثم؛ على التحكم في سلوكه وضبطه وفقها، ويتعلم الطفل عن طريق اللغة واستبطان (Intevnalization) الأفكار والمشاعر والاتجاهات السائدة حوله، ولا سيما تلك الخاصة بالوالدين، وللغة دورها في تحقيق شعور الطفل بالأمن أو الخوف، ومن المعروف أن الطمأنينة شعور ضروري لصحة الطفل النفسية وسلامتها، فجميع مشاعر الأمن والطمأنينة وغيرها يمكن غرسها في الطفل عن طريق اللغة وما تتضمنه من كلمات؛ لذا يؤكد كثير من علماء النفس أن مدى توافق الطفل الاجتماعي (Social Adjustment) يتأثر إلى حد بعيد بلغته، كما أن لغته بدورها تتأثر بمدى توافقه الاجتماعي؛ أي إن العلاقة بين اللغة والتوافق الاجتماعي متبادلة تفاعلية، وفضلاً عن ذلك؛ هناك العلاقة بين التطور اللغوي وبعض العوامل الفردية البيئية.

ويكشف استعراض التراث الغزير من الدراسات التي أجريت في التطور اللغوي للطفل؛ أن أكثر العوامل التي حظيت بحظ وافر من الدراسات؛^١ هي:

١. العوامل البيئية:^٢

(أ) المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي لأسرة الطفل:

هناك أدلة كثيرة على علاقة قوية واضحة وثيقة بين المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي لأسرة الطفل، وتطوره اللغوي، فقد أكدت نتائج بعض الدراسات أن الطفل الذي ينتمي إلى المستويات الأعلى لا يستخدم جملاً أكثر طولاً فقط، وإنما يستخدم أيضاً جملاً أكثر نضجاً وتطوراً، في حين تقل بكثير عند قرينه الذي ينتمي إلى المستويات الدنيا.

(ب) نوع الخبرات التي يتعرض لها الطفل:

كشفت نتائج بعض الدراسات التي أجريت في التطور اللغوي للطفل؛ عن علاقة بين ذلك التطور وبعض الخبرات التي يتعرض لها خلال مرحلة الطفولة المبكرة، ومن أهم تلك الخبرات السفر، والأحداث التي توسع خبرات الطفل، وخط الحياة الأسرية، وبخاصة التفاعل الاجتماعي بين الطفل والوالدين، وعمر الأشخاص المحيطين به، وحياة

^١ انظر: كرم الدين، اللغة عند الطفل، ص ٣٨.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ٤٢-٤٧.

المؤسسات الاجتماعية ودور الرعاية، وكلها يصاحبها زيادة كبيرة في تطوره اللغوي، وتحديدًا حصيلته اللغوية. ويرى بعض العلماء أن الفروق الواضحة الثابتة التي كشفت عنها مختلف الدراسات بين الأطفال الذين ينتمون إلى مختلف المستويات الاقتصادية أو الاجتماعية؛ قد ترجع على الأقل جزئيًا إلى الاختلاف في الخبرات التي يتعرض لها الطفل في مختلف المستويات؛ أما نمط الحياة الأسرية والتفاعل بين الطفل والوالدين؛ فكشفت بعض الدراسات أن هناك أنماطًا للحياة الأسرية والتفاعل المتبادل بين الطفل والأسرة تساعد على تطوره اللغوي، بينما لا تساعد أنماط أخرى على ذلك، وقد أشارت تلك الدراسات إلى أن التطور اللغوي للطفل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحجم التفاعل الاجتماعي بين الطفل والوالدين، فالأسر التي تحرص على قضاء أوقات طويلة مع أطفالها تتبادل معهم الآراء والمناقشات؛ تساعد التطور اللغوي للطفل بأبعاده وجوانبه.

أما عمر الأشخاص المحيطين بالطفل فيشير الحجم الأكبر من الأدلة التي كشفت عنها الدراسات إلى أن التطور اللغوي للطفل الذي يصاحب البالغين دائمًا؛ يكون أسرع منه لدى الطفل الذي يرافق الأطفال. أما حياة المؤسسات الاجتماعية ودور الرعاية؛ فكشفت الدراسات المختلفة، وأكدت مرارًا؛ أن الأطفال الذين ينشؤون في البيئات المحرومة (Deprived) كدور الرعاية والملاجئ وغيرها؛ يكونون من أكثر المجموعات تأخرًا في تطورهم اللغوي.

(ج) تعدد اللغات التي يتعلمها الطفل:

هناك عامل بيئي آخر له أهمية كبيرة في التطور اللغوي واكتساب اللغة لدى الطفل ما قبل المدرسة، وهو تعلم أكثر من لغة، وبخاصة لغتين في آنٍ معًا، ويهم الآباء والمعلمين أن يعرفوا الإجابة عن بعض التساؤلات في هذه القضية المهمة؛ من مثل: هل من المفيد للتطور اللغوي للطفل أن يسمع ويتعلم لغتين في الوقت نفسه خلال المدة الحرجة في تطوره اللغوي، أو من الأفضل له أن يحقق أولاً حدًا أدنى من إتقان اللغة الأولى قبل أن تقدم إلى اللغة الثانية؟ ومن الجدير بالملاحظة أن التساؤل السابق لا يتعلق بطفل ما قبل المدرسة فقط، وإنما يتعلق أيضًا بتعلم الطفل لغة أجنبية خلاف لغته الأم خلال السنوات الأولى من الدراسة، والملاحظ أن الأدلة العلمية في هذه القضايا العلمية المهمة التي تمس حياة الأفراد ما زالت ناقصة متناقضة.

٢. العوامل الفردية:

دفع الاختلاف الكبير بين الأطفال في سرعة تطور اللغة؛ دفع المشتغلين بالدراسات النفسية إلى تتبع مصادر هذه الفروق التي تؤثر في اكتساب اللغة، ويمكن حصرها في مجموعتين؛ هما:^١
(أ) مصادر شخصية تنبع من ذات الطفل؛ كالصحة، والذكاء، والعرق.
(ب) مصادر اجتماعية تنبع من محيط الطفل، وتتضمن:

^١ انظر: صالح، عبد الرحيم، تطور اللغة عند الطفل وتطبيقاته التربوية (عمان: دار النفائس، ١٩٩٢م)، ص ٢٧-٣٠.

- إثارة الطفل للكلام، فكلما ازدادت تحسن نموه اللغوي إلى حد كبير بالنسبة إلى النمو اللغوي للطفل المماثل له في العمر، ولا يجد مثل هذه الإثارة.
- أساليب المعاملة الاستبدادية، فالطفل الذي يُفرض عليه قضاء معظم وقته صامتًا، ويُحرم من الإثارة للكلام؛ يُعيقه ذلك عن اكتساب اللغة، على العكس من الطفل الذي يُعامل بالأساليب التي تتيح له التعبير عن كل ما يريد التعبير عنه في أي وقت يشاء، ويُشجّع على ذلك، فهذا يتفوق في نموه اللغوي على الأول.
- الطفل الوحيد في الأسرة يتفوق في جميع أشكال النمو اللغوي على من يعيش مع أطفال آخرين في الأسرة؛ لأن الوالدين بمنحانه وقتًا أكبر لإثارته لتعلم اللغة من الوقت الذي كان من الممكن أن يعطوه لإثارته لو كان له إخوة آخرون، ومن الواضح أن كلما ازداد اتصال الطفل بالكبار؛ ازدادت إثارته إياه للكلام، وازداد في الوقت نفسه عدد الكلمات التي قد يتعلمها.
- لترتيب الطفل في الأسرة أثرٌ في تعلمه اللغة، فالمولود الأول في الأسرة يتفوق في نموه اللغوي على من يلونه في ترتيب الولادة؛ لأن الأبوين يستطيعان أن يقضيا وقتًا في إثارته للتحدث، وتشجيعه على ذلك أكثر من الوقت الذي يستطيعان قضاءه بالنسبة إلى من يولدون بعده؛ شأنه في ذلك شأن الطفل الوحيد في الأسرة.

ثانيًا: لغة المرأة^١

الحديث عن المرأة هو الحديث عن "نصف المجتمع" كما يقال، ومن ثم؛ تكون أهميته في كشف معتقدات المجتمع، وما تنبئ عنه الكلمات من دلالة نفسية، فإذا كان المعتقد مثلاً تقدير المرأة وألا يُتعرّض لها بأذى؛ فإن ذلك ينعكس على العبارات التي يتفوه بها الناس.

وإن كلمة (امرأة) إن أُضيف إلى العلم المذكر أو ضميره؛ فتعني "الزوجة" ليس غير، كما في القرآن الكريم؛ (امرأة عمران)، و(امرأة العزيز)، و(امرأة فرعون)، و(امرأة نوح)، و(امرأة لوط)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، [العنكبوت: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكَاثِبِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨].

وتتوطد علاقة الزوجية بالولد، وإن كان استعمالنا لكلمة (زوجة) لا يعني الولد، ففي القرآن الكريم إيماءات تحمل فارقاً بين (زوجه) و(امراته) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَقْدَةٍ﴾ [النحل: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

والحياة الزوجية علاقة حميمة؛ إذ لا يكون معها الرجل فردًا أو تستوحش المرأة من الوحدة؛ لذا تُستعمل كلمة (زوج) في القرآن الكريم في النصح والإرشاد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ف(نساء المؤمنين) لا تعني الزوجات فحسب، وإنما كل من يتولى المؤمنون أمرهن من

^١ انظر: البقري، اللغة والمجتمع، ص ٤١.

الزوجات والبنات والأخوات، وعلى الرغم من أن نساء النبي ﷺ لسن كأحد من النساء، فهن في رتبة عليا قريبة من مرتبة النبوة؛ فإننا نلاحظ أن الآية جاءت على استعمال كلمة (أزواج)، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، والمؤمنون يدعون في قوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ذلك لأن التمايز فيما وقر في القلب من إيمان وإخلاص وصدقه العمل، وليس في الألقاب.

والمرأة شريكة الرجل في الحياة في مجمل أنماط السلوك فيها، واللغة ضرب من هذا السلوك، وعلى الرغم من هذه الشراكة العامة؛ للمرأة طبيعتها وميولها ومواقعها الخاصة، فهي أكثر التزامًا بالمثل الاجتماعية من الرجل، وأقوى استقرارًا منه في عاداتها الاجتماعية، ومن ثم تبدو أشد منه مقاومة للتغيرات عندما تنتقل إلى بيئات جديدة، وهي تفعل ذلك حفاظًا على شخصيتها، ورغبة في تأكيد مكانتها؛ لئلا ترخص قيمتها الاجتماعية، وتندني منزلتها في السلم الاجتماعي؛ إذ تنشأ السمو والامتياز والابتعاد عن كل ما يشينها أو يُنقص من قدرها، وبخاصة في المجتمعات التي لا تعدل بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات.

ونستطيع أن نمثل لذلك بنمطين من السلوك يبدوان أولاً متناقضين أو متعارضين، ولكنهما في الحقيقة يؤكدان إلاح المرأة ونزعتها الشديدة إلى الامتياز وعلو القدر والمكانة، وأنها في سلوكها العام قد تبدو نزاعة إلى التجديد والتغيير والخروج عن المألوف، ويظهر ذلك مثلاً في نطاق المأكل والملبس، فهي ذات مهارة فائقة في صنع الطعام وإعداده وتنويع ألوانه، وكذلك الحال في أزيائها، فهي مولعة بتغييرها وتجديدها من وقت إلى آخر، وتجري وراء كل مستحدث طريف في هذين المجالين،^١ وهي في سلوكها الخاص؛ أي سلوكها اللغوي؛ أكثر التزامًا وتمسكًا بالعرف اللغوي العام، ولا تسمح لنفسها بالسقوط أو التورط فيما نبا وشذ من الكلام، أو جاوز حدود اللياقة، أو ما من شأنه أن يحط من كرامتها أو يفقدها ميلها الطبيعي إلى حمايتها بسياج من الاحترام والتقدير، ويظهر هذا في وضوح بابتعادها عن المبتذل المرذول من الكلام.^٢

هذان مثالان يبدوان متناقضين كما قرنا؛ أحدهما دليل النزعة إلى التجديد، وثانيهما شاهد على المحافظة والميل إلى الاستقرار، ولكنهما - بتفسير عادل منصف - ينبئان عن خاصية مميزة في المرأة، تتمثل في نُشدانها السمو والارتقاء بمكانتها في مجتمعتها، ولكن؛ هذا لا ينفي أن للمرأة بعضًا من الخواص اللغوية التي تميز كلامها، وهي خواص تنبئ في جملتها عن طبيعة المرأة وموقعها في بيئتها، ويمكن ذكر شيء من الأمثلة لسلوكها اللغوي؛ قصدًا إلى توجيه الاهتمام بهذا السلوك الذي تخفى أعماقه وأسارته على كثير من الدارسين، ففضلاً عما تمتاز به المرأة من خواص حيوية في بعض أعضاء النطق (الوترين الصوتيين)؛ نلاحظ بعض السمات الصوتية التي تكاد تنفرد بها أو

^١ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٠٦.

^٢ انظر: علي، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة، ص ١٤٦-١٤٧.

Wolfram, W. A. 1969. *A Sociolinguistics Description of Detroit Negro Speech*. Washington, DC: Centre for Applied Linguistics; Trudgill, P. 1984. *Applied Sociolinguistics*. New York, Academic Press.

تشيع في محيطها أكثر من محيط الرجل، ومن ذلك الميل إلى ترقيق الأصوات، ولا سيما تلك الأصوات التي لا تظهر قيمتها الدلالية إلا بالتفخيم، كالصاد والضاد والطاء والظاء؛ أي الموسومة في عرف التراث اللغوي بأصوات الإطباق، فهذه الأصوات الأربعة تنطقها المرأة بصورة تماثل في سماتها نظائرها المرفقة؛ أي السين والذال والتاء والذال، وكذلك الحال في نطق الراء المفخمة، وهو سلوك لغوي يشترك فيه معنا في وقتنا الحاضر كثير من الشباب، وكذلك بعض كبار السن غير العارفين وغير المثقفين لغويًا.^١

وتميل المرأة في الإلقاء والأداء النطقي للكلام إلى السرعة النسبية، ولها نمط يكاد يكون خاصًا بها في قواعد النبر (Stress) وطرائق توزيعه في الجملة والعبارة، وكذلك الحال في أنماط التنغيم أو موسيقا الكلام (intonation)، وهذان ملمحان في حاجة إلى نظرة متأنية، بل إلى بحوث مستقلة.

والمرأة في المواقف الحرجة تحوم حول المعنى، وتحاول البيان بأساليب حُسن التعبير، فتلجأ إلى الكلمات أو العبارات الرقيقة، أو تكتفي بالإشارة والتلميح إلى المقصود، وهذا هو السلوك العام من المرأة، وإن كانت درجة الخطر أو التحريم تختلف نسبيًا من بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر؛ طبقًا للعادات والتقاليد، فالسراويل (اللباس في العامية المصرية) - التي تشير في الأصل إلى قطعة معينة من الملابس الداخلية للرجل والمرأة - قد اختلفت تمامًا من لغة المرأة في بعض البيئات، في حين يجري استخدامها في بيئات أخرى للجنسين معًا، ويروي لنا يسبرسن (Jespersen) أن سيدات مدينة بوسطن (Boston) في الماضي كن يكتفين بالإشارة إلى قوائم البيانو وإلى أرجلهن؛ ليتجنبن ذكر الكلمة المعينة (سيقان).^٢

وفي كل مجتمع مسكوكات لغوية من كلمات وعبارات تختص المرأة بتوظيفها في مواقف وسياقات معينة، وهي مسكوكات تختلف في مبنائها عما يستعمله الرجل عادة في هذه الواقف والسياقات ذاتها، فالمرأة في بعض البيئات المصرية وفي بعض المواقف والظروف المشتركة تقول: ^٣ يا دهوتي، والرجل يقول: يا دي الداهية، وتقول: يا مصيبي، والرجل يقول: يا دي المصيبة، وأحيانًا تنفرد المرأة بعبارات ليس لها مقابل من بابها في كلام الرجل؛ من مثل: يا دي الأزية، يا دلعدى.

وهذه الأمثلة إشارات خفيفة إلى ما في كلام المرأة من خصوصيات تستحق النظر والدرس، وهي أمثلة من خطابها بوصفها مرسله؛ أما خطابها مستقبله فله شأن آخر، وهو كسابقه ينبئ عن موقع المرأة في السلوك اللغوي، وهو كذلك في حاجة إلى دراسة ونظر.

والملاحظ أن الرجل عندما يخاطب المرأة يكون حريصًا في انتقاء كلماته وعباراته، فلا يأتي بما من شأنه أن يمس كرامتها، أو أن يفسر تفسيرًا غير لائق في البيئة المعينة، أو أن ينتظم إيماءات أو إيماءات إلى معانٍ غير مقبولة

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٢٠٧.

^٢ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٠٨.

^٣ انظر: المرجع السابق، ص ٢٠٩.

في العرف اللغوي العام، فلا يخاطبها مثلاً في المواقف الحياتية بقوله: يا ولية، وإنما يقول: يا هانم، أو: يا ست... إلخ، ولا يقول للسيدة المتقدمة في السن: يا حبيبتي، وإنما يقول: يا ستي، أو: يا أمي، أو: يا حاجة، أو يا هانم... إلخ.

وقد حظيت النساء في الحديث عنهن بلقب (السيدات) من دون ضميمة تحدد فصيلتهن، فيقال: حضرت السيدات، في مقابل: حضر الرجال؛ من دون ذكر اللقب المقابل؛ أي (السادة)، وإن دُكر جاء متبوعاً بما يحدده، فيقال: السادة الرجال، وهو قليل الحدوث.

ولا يقتصر ذلك على اختيار الكلمات والعبارات في الحديث إلى المرأة وعنها، وإنما يمتد إلى اختيار طريق إلقاء الكلام بما ينتظمه من تنغيم وتلوين مناسب لطبيعتها وموقعها، ويروى أن رجلاً إنجليزيًا كان يخاطب إحدى السيدات بقوله: You are beautiful today (أنت جميلة اليوم)، بتركيز النبر (stress) على today، فغضبت وأشاحت بوجهها؛ إذ المعنى حينئذ: أنت جميلة اليوم فقط، فأحس الرجل بذلك، ولَوّن الكلام بلونٍ آخر بتركيز النبر على beautiful، ومعناه: أنت جميلة دائماً واليوم بخاصة، ومن المعلوم أن التنوع في توزيع النبر في الجملة تواكبه تلوينات صوتية أخرى، كدرجة الصوت من ارتفاع وانخفاض، وما يرتبط بذلك من تلوين موسيقا الكلام؛ أي التنغيم. وليس من الشذوذ، وإنما من الطريف حقاً؛ أن تتميز العربية من كثير من اللغات بمراعاة الوضع الاجتماعي للمرأة، فقد خصتها بمجموعة غير قليلة من الظواهر والقواعد اللغوية التي ينبغي الأخذ بها عند مخاطبتها أو عند الحديث عنها، ولسنا قادرين في هذا المقام أن نأتي بتفصيل الكلام عن هذا الموضوع، وسنكتفي بالإشارة إلى أمثلة متنوعة تغطي جملة المستويات اللغوية؛ تأكيداً لوفاء العربية بحاجة المجتمع، وقدرة استجابتها للواقع، بتنوع بنيتها اللغوية؛ لتوائم طبيعة البنية الاجتماعية في بيئتها الخاصة، ولا يضيرنا ههنا أن يدعي بعضهم أن هذا التفريق في الخطاب اللغوي قد يؤخذ منبأة عن نظرة العرب للمرأة؛ بحسبانها لا تعدل الرجل، ولا تتساوى معه في السُّلم الاجتماعي، فلذلك بحوث مستفيضة تتولاها زمرة من الباحثين من علماء الأحياء والاجتماع والإناسة واللغة.^١

ففي مجال الثروة اللفظية؛ حفلت العربية بألفاظ خاصة بالمرأة وحدها؛ صفات لها، أو إشارة إليها، وحديثاً عنها، من مثل: كاعب، وحائض، وحامل، ومرضع، وعافر، وناهد، وعانس، وطالق... إلخ.^٢

ومن حيث الظواهر الصرفية والنحوية؛ يسوغ الزعم أن العربية خصت المرأة بنصيب كبير يمكن أن يشكل نظاماً لغوياً متكاملاً تنفرد به، ويظهر ذلك بوضوح في انشغال العربية بفكرة التفريق بين التذكير والتأنيث في أساليبها، وهذه الفكرة انعكاس صادق لطبيعة الجنسين، ومولدة عن الفرق الطبيعي بينهما، وقد امتد هذا التفريق بين الرجل والمرأة (وهو الأصل)؛ ليغطي أنواع الموجودات الأخرى غير البشرية، فصُنفت هي كذلك إلى مذكر ومؤنث، وطُبقت على أفرادها أساليب التذكير والتأنيث، ومعناه أن تصنيف الموجودات غير البشرية إلى مذكر ومؤنث في الفكر العربي

^١ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢١٠.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ٢١١.

ولغته؛ بُني على تصوّر معايير للتفريق في أصله ونشأته تماثل معايير التفريق بين أفراد البشر، ثم اتسع نطاقه ليغطي أفراد الموجودات غير البشرية.^١

ومن هذا المنطلق أو التصور؛ يمكن لنا في هدوء أن نقرر أن كل ظواهر التأنيث صرفيًّا ونحويًّا في اللغة العربية محورها المرأة (في الأصل على الأقل)، وهي ظواهر متشعبة متنوعة؛ ولكنها جميعًا تُرد إلى فكرة واحدة هي تفرد المرأة بنمط من الخطاب اللغوي خاص بها، وهو خطاب التأنيث في العربية، والأمثلة الجزئية لهذا الخطاب كثيرة، نكتفي هنا بذكر أمثلة لأهم أنماطها؛ منها استقلالية الضمائر الشخصية متصلة ومنفصلة؛ للمؤنث عن ضمائر المذكر، وكذلك الحال في صيغ أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، ووجود عناصر صرفية نحوية خاصة بالمؤنث (والمرأة فيها أصل كما قررنا)، وليس لها مقابل في أي صورة للمذكر، ونذكر منها ثلاثة لأهميتها الخاصة:^٢

- **نون النسوة:** يدل هذا المصطلح دلالة قاطعة على اختصاص المرأة بهذه النون في الأصل والتوظيف العام، وإن امتد استخدامها إلى موجودات غير بشرية في بعض الأساليب، وهذه النون كما هو معلوم؛ تشكل صعوبة لغوية، وتثير أحيانًا جدلاً اجتماعيًا في الوقت الحاضر، وهي في كل الأحوال عنصر صرفي نحوي، له أحكامه وقواعده المقررة.

- **ألف التأنيث المقصورة والممدودة:** لهما أحكام صرفية نحوية امتد أثرها إلى غير المؤنث، فأخضعته لقوانينها، كالمنع من الصرف في نحو: بشرى، وكرى؛ علمين للمذكر.

- **تاء التأنيث المربوطة:** كسابقتها علة من علل المنع من الصرف (وإن في الأعلام فقط)، وامتد هذا الحكم إلى أعلام الذكور، كما في نحو: طلحة، وعبيدة.

ولهذه الأمثلة - وإن سجلت هنا عناصر مفردة - أثرها البالغ في الجمل والتراكيب؛ إذ إن وجودها يستوجب ظواهر نحوية أسلوبية معقدة تتعلق بفكرة الربط والمطابقة بين عناصر الجملة من حيث قواعد التأنيث وجوبًا وجوازًا، كما في حال الفعل مع الفاعل، والموصوف والصفة، والمبتدأ والخبر، وكلها في حاجة إلى دراسة متأنية تجمع شتات الأمثلة الموزعة هنا وهناك في التراث النحوي تحت باب واحد هو المطابقة في النوع؛ والتذكير، والتأنيث.

وهي كذلك أمثلة قُصد بها إلى التنبيه إلى أن للمرأة نوعًا من الخطاب (إرسالًا واستقبالًا) له خواصه ومميزاته التي توائم بنيته اللغوية البنية الاجتماعية في المجتمع المعين.

ومن الطريف أن نذكر في ختام الحديث عن لغة المرأة أن بعض الصيغ المشهورة من مثل: عضو، ورئيس؛ يُنكر بعضهم جواز تأنيثها بأنها لم ترد لمؤنث، ولكن هذا ليس سببًا لغويًّا، وإنما يرجع إلى الوضع الاجتماعي للمرأة عند تقعيد اللغة؛ إذ لم تحظ آنذاك بهذه المناصب؛ بدليل أن هناك نحو: أميرة، بالتأنيث؛ إشارة إلى واقع اجتماعي مقرر آنذاك.

^١ الحسن، شاهر، علم الدلالة: السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية (عمان: دار الفكر، ط ١، ٢٠٠١م)، ص ٤٤.

^٢ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢١١-٢١٢.

ثالثاً: الاختلافات اللغوية بين النساء والرجال^١

الاختلافات بين النساء والرجال - على الرغم من أنها محددة لا يمكن ملاحظتها بوضوح كبير - قائمة وتؤثر في نطق الكلمات، وإذا كنا لا نستطيع أن نعزو الاختلافات اللغوية في النطق بين الرجال والنساء إلى الاختلافات الاجتماعية - إذ إن الرجل والمرأة يرتبطان بمحض إرادتهما - فإن ذلك يؤكد بدوره على دلالة الفروق النوعية بينهما على لهجة كل منهما، فكثير من التعبيرات التي يستخدمها الرجال لا تميل النساء إلى استخدامها، كما أن كثيراً من التعبيرات التي تستخدمها النساء؛ لا يستخدمها الرجال، وذلك لأن معظم تلك التعبيرات المستخدمة من أي منهما تلائم طبيعة كل منهما، والتوقعات الثقافية من السلوك اللغوي لأي منهما، كما أن النساء يفضلن استخدام مفردات لغوية معينة لا يميل إلى استخدامها الرجال، ويحدث العكس بالنسبة إلى الرجال، ولذلك منطوقه وعوامله، فللنساء زِيَّهَم، وللرجال ملابسهم، كما أن للنساء اهتمامهن بأدوات تتعلق بالزينة وتتناسب مع طبيعتهن، في حين أن الرجال لهم اهتمامات معينة، ولتلك الفروق في ظروف النساء والرجال ما يناسبها من توقعات ثقافية من كل من الفئتين، كما أن لها أثرها في إبراز الفروق اللغوية بين الرجال والنساء.

وتتجسد مظاهر الاختلاف بين لهجات الرجال والنساء فيما يظهر من تفاوت بين الأصوات والمفردات المستخدمة لتراكيبات الجمل والتعبيرات والأساليب، وتزداد هذه الاختلافات كلما زادت المسافة بين الفئتين، وقلت المخالطة بينهما، وهذه الاختلافات في اللهجات اللغوية نوع من أنواع اللهجات الاجتماعية، وبذلك تخضع في نموها وتقلصها إلى عوامل اجتماعية وثقافية وشخصية تؤثر في اتجاهات الفئتين نحو اللغة، واستخدامها مفرداتها وتعبيراتها.

وقد يضحك الرجال إذا ما استخدم أحدهم مفردات أو تعبيرات لغوية تنفرد باستخدامها النساء، والشيء نفسه يحدث إذا ما استخدمت إحدى النسوة مفردات أو تعبيرات لغوية ينفرد باستخدامها الرجال، وبذلك تؤدي ثقافة المجتمع نفسها دوراً واضحاً في تعزيز تلك الفروق اللغوية، واختلاف اللهجات بين النساء والرجال في المجتمع الواحد.

رابعاً: الرجل لا يستخدم لغة العاطفة^٢

عندما يتكلم الرجل يختار كلماته بدقة وواقعية، فكل كلمة ينطقها يقصدها ويعنيها بذاتها؛ لذا نرى كلامه مرتباً متسلسلاً منطقيًا، ويتعد عن استخدام لغة العاطفة في حديثه، بينما المرأة عندما تتحدث تستخدم لغة العاطفة في كلامها، وعندما تتكلم تطلق أحكاماً عامة شمولية، ولا تقصدها لذاتها، وإنما لتبالغ في التعبير عن شعورها أو ما يزعجها، فيجب ألا يستغرب الرجل حين يراها تعمم بهذا الشكل؛ كأن تقول: ألف مرة قلت لك لا تفعل ذلك، إنك لا تشعر بي أبدًا، كما أن المرأة تلجأ لتعبّر عن معاناتها أو ما يؤلمها ويشغل بالها من خلال الحوار، فالمرأة تفكر

^١ انظر: شتا، علم الاجتماع اللغوي، ص ١٨٨-١٨٩.

^٢ انظر على الشابكة: إبراهيم، شيماء، "لكل من الرجل والمرأة لغته: فمن يفهم الآخر؟"، موقع سيدتي، المطالعة في ٣٠ أبريل ٢٠١٧م.

بصوت عالٍ، وهي توجّه الحديث إلى زوجها؛ لأنها تحتاج في هذه اللحظات إلى دعمه العاطفي والمعنوي؛ كأن تقول الزوجة: إن رأسي يؤلمني، كم تعبت اليوم في العمل، لقد واجهت مشكلات كثيرة، لا أدري ماذا أفعل غداً في هذا الموقف، إن والدي مريضة ولدي التزامات كثيرة غداً، فكيف سأوفق بين ذلك كله؟

وتستخدم الزوجة هذه العبارات لتعبّر عما يجول في خاطرها من أفكار، ولكن ما يزيد من ألم الزوجة هو عدم تفهّم الزوج حاجتها للدعم النفسي والعاطفي، وبخاصة عندما يرد عليها قائلاً: يمكنك أخذ مسكّن للصداع، تركي العمل، خففي من وقت العمل، يمكن فعل كذا في هذا الموقف، يمكنك الاعتذار عن بعض الالتزامات وإخبار والدتك بذلك، فالرجل هنا يرى المرأة عندما تشتكي بهذه الطريقة؛ عاجزة عن إيجاد الحلول، وأنها تطرح عليه ذلك للمساعدة، والرجل بطبيعته العملية يصغي لما تقول، ويرى أنه المسؤول عن إيجاد الحلّ لمساعدة زوجته في ذلك، ولكن المرأة يغضبها ردّ الرجل، وتتهمه في مثل هذه الأحوال بأنه لا يفهمها، ولا يشعر بها، فبدلاً من أن يخفّف عنها معاناتها؛ يزيد لها أماً، فهي في هذه اللحظات تحتاج لأن يقول لها: سلامتك حبيبتي، ماذا حدث معك في العمل؟ لماذا أنت متعبة؟، كم أنت حنونة وحساسة، أنا فخور بك لأنك تحترمين والدتك، تعالي نتحدث عن الطريقة التي يمكن أن تساعدك على الخروج مما تعانين منه، وبهذه العبارات يمتلك الرجل المرأة، ويُشعرها بأنها محظوظة بهذا الزوج الذي يفهمها ويقدرها؛ لذا ينبغي للرجل أن يفهم هذا الاختلاف في التعبير، فالمرأة هنا لا تشتكي لعجزها عن الحل، وإنما لتعبّر عن مشاعرها، أو لأنها تفكّر بصوت عالٍ.

خامساً: الرطانة (Pidgins)

كلمة مشتقة من تحريف الكلمة الأجنبية (Business) التي تعني العمل، وتنتشر في أرجاء العالم، وفي أوروبا، وبخاصة في ألمانيا لدى العمال التي يستخدمونها في الاتصال، وتتميز الرطانة بالسهولة والبساطة، ومفرداتها تؤخذ غالباً من لغة الجماعة الكلامية السائدة، وفي العربية تعني الكلام بلغة أعجمية، وهي من أشكال اللغة العامية أو الدارجة في المجتمعات، وتتغير من زمان إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن جيل إلى آخر.

ففي الإنجليزية يقول الصيني الأوروبي في رطانة لغوية: (Before my sell-um for ten dollar)، وتعني بالإنجليزية الفصحى: (I sold it for ten dollar)، ومنها رطانة أهل جزيرة نورو في الباسيبك حيث يقولون: (Mi hasiben flen waifu)، وتعني (my husband friend no wife)، وهي في الفصحى الإنجليزية: (My husband's friend has no wife).

ومن أمثلة الرطانة في الثقافة العربية قولهم: طريقك أخضر؛ دعاء بالسلامة في الطريق، أو: على باب الله؛ أي الرزق على الله، وهي اللغة التي يجد الإنسان نفسه يتعلم فيها اللغة الثانية من دون أن يكون هناك أي خدمات تعليمية أو فصول خاصة يستطيع أن يكتسبها فيها، فيستخدم الطريقة التي درس فيها اللغة الأم؛ لذا يغير في اللغة

الثانية أو الهدف حسب لغته الأم، وتكون النتيجة لغة مستعملة مختلفة عن اللغة الأصل.^١
ومن الرطانة ما توصف بأنها كريولية (Creoles)، وهي رطانة أصبحت لغة أولى أو ثانية للمتكلّم، وتتكون من كلمات ذات أصل غربي مثلاً مع اللغة الأم للمتحدث، ومن ذلك رطانة كريولية فرنسية في هايتي وغويانا، ورطانة كريولية إنجليزية في هونج كونج وجامايكا.^٢

فشعب جامايكا عندما يستخدمون الإنجليزية؛ يعبرون عن الجمع بقولهم:

(Di adda girl)- (The other girls)
(dem wid dem addah girl)- (with those other girls)

أما عندما يعبرون عن الماضي فإنهم يقولون:

(Me go yesid)- (I went yesterday)
(mi tel yu so aredi)- (I told you so already)
(mi ben waak hoom aredi)- (I had already walked home)
(mi don slip)- (I have finished sleeping)

وللتعبير عن الفعل الحاضر يقول الكاريبي:

(Why you a dhu out yah?)-(What are you doing out there?)
(Why you ago?)- (Where are you going?)

أما التعبير عن الملكية فيأخذ مجرى آخر، كقوله:

(di man hat)-(the man's hat)
(di man woman noh like dis)-(The man's woman didn't like this)

سادساً: التخطيط اللغوي

ثمة تعريفات للتخطيط اللغوي (Language Planning) أشار إليه الغربيون في مؤلفاتهم، وقد بدأت فكرة التخطيط اللغوي في مصطلحات الهندسة اللغوية، أو التطور والتنظيم اللغوي، أو إدارة اللغة، ولكنها بعد هذا استقرت في الصحف والأخبار العالمية المتخصصة باسم (Language Planning)، أي التخطيط اللغوي، وقد أشار بعض الغربيين إلى أن أول من استخدم هذا المصطلح فرنخ (U. Weinreich) في حلقة دراسية في جامعة كولومبيا عام ١٩٥٧م.

^١ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٢١٤؛ هيدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص ١٠٠.

Melebek, Abdul Rashid Daing and Amat Juhari Moain. 2011. *Sociolinguistik dan Bahasa Melayu*, p. 49; O'Grady and John Archibald, Mark Aronoff, Janie Rees-Miller. 2005. *Contemporary Linguistics: An Introduction*, p. 519; Holmes, Janet. 2008. *An Introduction to Sociolinguistics*, p. 84; Versteegh, Kees. 1984. The Pidginization and Creolization Theory: The Case of Arabic, *Current Issues In Linguistic Theory*, Vol.33, p.1.

^٢ انظر: هيدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص ١٠٨.

Melebek, Abdul Rashid Daing and Amat Juhari Moain. 2011. *Sociolinguistik dan Bahasa Melayu*, p. 50; Holmes, Janet. 2008. *An Introduction to Sociolinguistics*, p. 85.

وقد عرّف هاوجن¹ (E. Haugen) التخطيط اللغوي بأنه النشاطات المتعلقة بإعداد دليل الكتاب "قواعد الإملاء"، أو إعداد كتاب في قواعد اللغة، أو إعداد معجم لغوي؛ من أجل إرشاد الكتّاب والناطقين بلغة ما في مجتمع غير متجانس لغويًا، وقد أدخله هاوجن في مجال علم اللغة الاجتماعي.

وعرّفه ثوربرن (J. Thurburn) بأنه استغلال الفرد لمعارفه اللغوية لتغيير السلوك اللغوي لمجموعة من الأفراد في المجتمع.

وعرّفه أيضًا كلٌّ من روبن (J. Rubin) وجيرند (B. Jernudd) بأنه تغيير متعمّد في اللغة يتمحور في إيجاد حلول للمشكلات اللغوية.

ومن تعريفات التخطيط اللغوي ما ذكره غورمان (T.Gorman) أنه إجراءات مرتبة من أجل اختيار لغة ما أو تأطيرها.

أما كوبر فخلص إلى تعريف جامع بعد مراجعته اثني عشر تعريفًا، فقال: "يدل التخطيط اللغوي على السلوك المعتمد الهادف إلى التأثير على سلوك الآخرين فيما يخص اكتسابهم للغة، ويخصّ بنيتها وتحديد وظائفها".²

أسئلة ومراجعات

١. اكتب عن لغة الطفل، وعلاقة ذلك بالمجتمع.
٢. من العوامل البيئية التي لها أثر في تعلم الطفل اللغة في المجتمع؛ المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي لأسرة الطفل؛ اشرح ذلك، واربطه بالاستعمال اللغوي في المجتمع.
٣. ما أنواع الخبرات التي يتعرض لها الطفل في المجتمع؟
٤. تحدث عن تعدد اللغات التي يتعلمها الطفل.
٥. بيّن الفروق الفردية بين الأطفال في تطور اللغة.

¹ Haugen, Einar. 1965. "Construction and Reconstruction in Language Planing: Ivar Asen's Grammar". *Word*, 21 (2), p. 52.

^١ كوبر، أ. روبرت ل. التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي، ترجمة: خليفة أبو بكر الأسود، مراجعة لغوية: الطاهر خليفة القراضي (القاهرة: مجلس الثقافة العام، ٢٠٠٦م)، ص ١٧، وقد اعتمدنا هذا الكتاب الجامع واستخدمنا أسلوبه في التعبير عن المعلومات كلها تقريبًا مع مراجع أخرى سنذكرها في مواضعها.

Haugen, Einar. 1965. "Construction and Reconstruction in Language Planing: Ivar Asen's Grammar". *Word*, 21 (2), p. 52.

^٢ كوبر، التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي، ص ١٧.

٦. تحدث عن لغة المرأة في المجتمع، مع أمثلة متنوعة تبيّن لغة المرأة في المجتمعات الإنسانية، ويمكنك الاستفادة من النقاط الآتية: هناك أساليب متنوعة في كلام المرأة وكلام الرجل، وفي مجال الألفاظ؛ للمرأة سلوك واضح في اختيار معجمها، وهناك اختلافات لغوية بين النساء والرجال.
٧. ما المقصود بالعبارة: الرجل لا يستخدم لغة العاطفة؟
٨. هات أمثلة عن مفهوم الرطانة (Pidgins).
٩. اشرح الرطانة الكريولية (Creoles) بأمثلة مناسبة.
١٠. اشرح التخطيط اللغوي، واربطه باستعمال اللغة في المجتمع.

مراجع أولية للمطالعة

- أبو الفرج، محمد أحمد، مقدمة لدراسة فقه اللغة (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٦م).
- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م).
- الجبالي، محمد عزيز، تأملات في اللغو واللغة (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م).
- علي، عاصم شحادة، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة للمتخصصين في العربية وآدابها: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م).
- القضماي، رضوان، علم اللسان (بيروت: دار الكتاب الحديث، ١٩٨٤م).

مراجع متقدمة للمطالعة

- الحسن، شاهر، علم الدلالة: السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية (عمان: دار الفكر، ط١، ٢٠٠١م).
- شوشار، بول، اللغة والفكر، ترجمة: صلاح أبو الوليد (باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٧٣م).
- كرم الدين، ليلي أحمد، اللغة عند الطفل: تطورها ومشكلاتها (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٠م).
- كوبر، أ. روبرت ل. التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي، ترجمة: خليفة أبو بكر الأسود، مراجعة لغوية: الطاهر خليفة القراضي (القاهرة: مجلس الثقافة العام، ٢٠٠٦م).

هدسون، رتشارد أنتوني، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة: محمود عياد، مراجعة: نصر حامد أبو زيد، محمد أكرم سعد الدين (القاهرة: عالم الكتب، ط ٢، ١٩٩٠م).

الفصل الرابع

قضايا علم اللغة الاجتماعي في التراث العربي الإسلامي

المبحث الأول

التأثيرات المتبادلة بين اللغة والمجتمع

ذكرنا أن علم اللغة الاجتماعي يبحث في الصلات والعلاقات التي تربط اللغة بالمجتمع، ويدرس الأسباب والعوامل الاجتماعية التي يؤثر بها المجتمع في شكل اللغة ووظيفتها^١، ومن موضوعاته الفكر الاجتماعي في التراث اللغوي، والصمت، والتخطيط اللغوي، والسياسة اللغوية، وغيرها، ويهتم بالخطوط العامة التي تميز المجموعات الاجتماعية من حيث إنها تختلف وتدخل في تناقضات داخل المجموعة اللسانية العامة نفسها، ويقف على القوانين التي تخضع لها الظاهرة اللغوية في حياتها وتطورها، وما يعتورها من شؤون الحياة، ومبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية التي لها تأثير في اختيار الناس اللغة، وما تحمله هذه اللغة من طوابع الحياة التي يجيها المتكلمون، وطرائق الاستعمال اللغوي التي يكتسبها الإنسان من المجتمع.

والعربية ليست ببعيدة من هذا كله، وإنما سبق اللغويون العرب مادة ثرى في مجال علم لغتهم الاجتماعي، فكانت لهم قضاياهم الخاصة في هذا المجال، ومن أبرز هذه القضايا:

أولاً: تنوع مصادر المادة

ثمة أمثلة تُبرز المنظور الاجتماعي لعلماء العربية؛ فقد أخذوا مادتهم من مصادر عدة؛ من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والنثر، وقد كان القرآن الكريم في قمة اللسان العربي من حيث انتظامه خواص العربية ومميزاتها من قواعد، وتراكيب، ونظم، وأسلوب؛ ولكنه في الوقت نفسه بلغ إلى رسول الله ﷺ منطوقاً منجماً بحسب الأحوال والظروف، وموزعة آياته وسوره على الزمان والمكان، وإن تحددت أبعادهما باقتصارهما على مدة النزول، وعلى مكة

^١ انظر: جاسم، دراسة في علم اللغة الاجتماعي، ص [ش].

والمدينة، والقرآن الكريم بلغته وأسلوبه هذا - لأنه نزل منطوقاً موجهاً إلى كل أفراد البشرية، ومنتظماً ظواهر لهجية - كان مصدرًا أساسًا من مصادر التقعيد للعربية؛ أي إن صنيع علمائها لم يخلُ من النظرة الاجتماعية إلى اللغة التي تتحقق أساسًا في فكرة التواصل بين المرسل والمستقبل.

ولبيان هذا نذكر أن في حقل القراءات القرآنية شكلاً من التنوع اللغوي الذي يمثل بنية مهمة من بنيات الدرس اللغوي الاجتماعي، وهذا التنوع في القراءات لم يأت عفواً أو عبثاً، وإنما جاء وفق ظرف أو سبب لغوي أو بيئي أو ثقافي، وهو تنوع مشروع في حدود ما رسمه الثقات من الدارسين؛ استناداً إلى لهجات العرب؛ بقصد التيسير على الناس، وهو تيسير محدد مشروط، فلا يخرج بالعربية عن قواعدها وأصولها الأساس المميزة لها.

والنثر والشعر من أهم مصادر استقاء المادة اللغوية لدرسها وتحليلها وضبط قواعدها وتقنين أحكامها، وما يقابلنا من شواهد شعرية أخذ بها النحاة، أو أشاروا إليها؛ للتنبيه أو الاسترشاد؛ كلها تعكس ألواناً من الظواهر اللغوية التي تعني التنوع في الأداء، من ذلك إشارتهم إلى قول أحدهم:

بِأَبِهِ أَفْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمِ وَمَنْ يُشَابِهَ أَبَهُ فَمَا ظَلَمَ^١

وقول آخر:

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا^٢

ثانياً: جمع اللغة

سلك العرب في جمع لغتهم للدرس والتحليل والتقعيد مسلك اللغويين الاجتماعيين؛ للكشف عن الحقائق اللغوية في إطار المجتمع، وكان جمع الكلام من ميدانه من أهم مبادئ النظر الاجتماعي في اللغة؛ إذ إن الكلام في هذه الصفة فيه صدق الواقع ودفء الحقيقة، فضلاً عما ينتظمه هذا الكلام من خواص صوتية، وما يصحبه من إشارات أو حركات جسمية تُيسر عملية التواصل بين المرسل والمستقبل، وهذا التلقي المباشر - أو المشافهة بصورها المختلفة - هو السماع، وكان يتمثل في أن يشد اللغويون رحالهم إلى مضارب القبائل في البادية، وأن الأعراب ينتقلون من بواديهم إلى مواطن العلماء والدارسين ومقارنهم، ويتخذون لأنفسهم نمطاً من العيش أقرب إلى الحياة البدوية، ومن شأن هذا المسلك منهم أن يقوي احتمال محافظتهم على لغاتهم سليمة فصيحة منتظمة ثوابتها التي تضمن لها نوعاً من الاستقلال عن الذوبان فيما يجري حولها من لهجات أو رطانات، ومن ثم؛ كان للتلقي عنهم مسوغ، وهذا ما حدث حقاً وتناولته الروايات الكثيرة.

^١ يُنسب هذا البيت إلى رؤبة بن العجاج. انظر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠.

^٢ شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٥١.

وهناك مبدآن لجمع اللغة؛ السماع، والرواية، والمقصود بالسماع الأخذ المباشر من أصحاب اللغة بالاستماع إليهم، وهم ينطقون كلامهم نطقًا واقعيًا في مواقعهم الاجتماعية والبيئية المختلفة، أما الرواية أو المشافهة المباشرة؛ فتعني التلقي أو المشافهة بوساطة بين المرسل والمستقبل.

والفارق الأساس بين السماع والرواية هو الفاصل أو الفواصل بين المرسل والمستقبل، وإن كانت مسيرة هذه الفواصل تنتظم السماع، فالرواية تعد "سماعًا" غير مباشر فاقداً عنصر المشافهة المباشرة؛ لذا كنا في التلقي المباشر وغيره ثلاثة أشياء؛ أولها أن استقاء اللغة كان منوع المصادر بيئياً واجتماعياً وثقافياً، وثانيها أن الرواية لا تغيير فيها أو تعديلاً في الكلام المروي، أو روايته بمعناه لا بنصه، وثالثها أنهم أخذوا من الحواضر عن البدو النازلين فيها، أو عن أهلها المستقرين فيها، ومعنى هذه الثلاثة مجتمعة أن اللغة التي جمعوها لضبط قواعدها وتقنينها؛ لم تسلم من التنوع في بعض وجوهها أو ظواهرها التي ربما لاحظوها، ولكنهم عالجوها بطريقتهم؛ إما بالحكم عليها بأنها تُنسب إلى لهجة أو أنها شاذة، وإما بتحليلها تحليلاً خاصاً بالتأويل، وإما بحسبانها وجهًا جائزًا مرجوحًا أو ضعيفًا.

والأخذ بالرواية مُعرَّض لأن يقع فيه شيء من التجاوز، وبخاصة في الأداء الصوتي للمادة المروية؛ إذ إن لكل فرد منا خواصه الأدائية للكلام، وهذا مقرر معروف عند الثقات من الدارسين، فضلاً عن أن الراوي قد يأتي بروايته على وجه مقبول أو غيره مخالف نص المرسل الأصلي، ولعل هذا يفسر كثيراً من الأمثلة والشواهد التي تكثر فيها وجوه التحليل، كما يظهر ذلك مثلاً في إعراب:

كَمْ عَمَّةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَحَالَةٍ
فَدَعَاءٍ قَدْ حَلَبْتُ عَلَيَّ عِشَارِي^١

فقد جوز النحاة أن تكون (كم) استفهامية أو خبرية، ومن ثم أجازوا إعراب التمييز (عممة) وما عُطف عليه بالنصب أو بالجر، ويُروى الرفع أيضاً على توجيه مختلف، وهذا الإعراب كثير الأوجه، وإن أجازته العربية إذا أخذ الشاهد منزلاً عن مرسله ومقامه؛ يرجع إلى اختلاف الرواية الصوتية، أو إلى احتمال النظر في الشاهد مكتوباً خالياً من الضبط، ولا يمكن إرجاعه بحال إلى مصدره الأصلي؛ إذ إن نطقه في موقعه لا يمكن أن يقع إلا على وجه واحد، فإذا ما حدث ونُطق مرة أخرى بصورة موسيقية مختلفة؛ صار البيت بيتين، واختلف الإعراب، كما يختلف المعنى تبعاً لذلك.^٢

ثالثاً: الصمت

عالج الجاحظ في بعض مؤلفاته الصمت؛ لأنه ظاهرة اجتماعية من مثل الكشكشة، والعنونة، واللخلخانية، والطمطمانية، والكسكسة، وغيرها، وبيّن أن للصمت فضيلة خاصة لا عامة؛ حينما جاءته رسالة من صديق له يذكر فيها قائلاً: "قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت، وشرحت من مناقب السكوت، ولخصت من وضوح أسبأهما، وأحمدت من منفعة عاقبتهما، وجريت في مجرى فنون الأفاويل فيهما، وذكرت أنك وجدت الصمت

^١ الفرزدق، همام بن غالب، ديوان الفرزدق (بيروت: دار صادر، ١٩١٠م)، ج ١، ص ٣٦١.

^٢ انظر: بشر، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي، ص ٣٣.

أفضل من الكلام في مواطن كثيرة، وإن كان صواباً، وألفيت السكوت أحمد من المنطق في مواضع جمّة، وإن كان حقاً، وزعمت أن اللسان من مسالك الخنا (الفحش)، والجالب على صاحبه البلا".^١

ومن فضائل الصمت التي ذكرها الجاحظ أن الصمت سبب السلامة والمنجاة من النار، كما أنه أجمل من الكلام في غير وقته، وهو مدعاة إلى التثبّت في الأمور، وتبَيُّنها قبل الكلام عنها.

أما الجانب الاجتماعي الآخر في الصمت فهو ما ورد في القرآن الكريم من أنه تعالى أمر البشر بالكلام؛ للتعبير عن حاجاتهم ورغباتهم، وتحداهم بالقرآن الكريم، وأنه معجز ليس له نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [فصن: ٢٧]؛ لذا ذمّ الجاحظ الصمت، وفضّل الكلام عليه؛ لأن الكلام نفعه عام وخاص، والله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء بالكلام لا بالصمت، والكلام سمة البشر، أما الصمت فسبب طارئ؛ قال: "... ونفع الكلام يعمّ ويخصّ، والرؤا لم ترو سكوت الصامتين، كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه، لا بالصمت...".^٢

وقال بكر بن عبد الله المزني: طول الصمت حُبسة... وأية جارحة منعتها الحركة، ولم تمرّنها على الاعتمال؛ أصابها من التعقّد على حساب ذلك المنع، ولم قال رسول الله ﷺ للنابعة الجعدي: ((لا يفضّض الله فاك؟)).^٣

إذن؛ فضيلة الكلام عامة وخاصة؛ بينما فضيلة الصمت خاصة فقط، والكلام أفضل من الصمت؛ لأنه يعبر عن حاجات الإنسان، ورغباته، ومشاعره، وشكره للآخرين، وغيرها من المناقب الحميدة للكلام التي هي الأصل في الحياة الإنسانية.^٤

أسئلة ومراجعات

١. تحدث عن تنوع مصادر المادة وأثرها في استقاء المادة اللغوية لدرسها وتحليلها وضبط قواعدها وتقنين أحكامها.
٢. سلك علماء العربية في جمعها للدرس والتحليل والتفصيل؛ مسلك اللغويين الاجتماعيين للكشف عن الحقائق اللغوية في إطار المجتمع؛ بيّن ذلك مع الشرح.
٣. الصمت من الموضوعات التي عالجها الجاحظ في بعض مؤلفاته في الجانب الاجتماعي؛ اشرح هذا في ضوء البعد الاجتماعي للصمت.

^١ الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، شرحه وعلق عليه: محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م)، ج ٤، ص ١٧٧-١٧٨، ١٩٤-١٩٧.

^٢ الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٧، ١٩٩٨م)، ج ١، ص ٢٧٢-٢٧٣.

^٣ الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ)، ج ١٤، ص ٢٨٦، الحديث ٤٠٥٧.

^٤ رسائل الجاحظ، ج ٤، ص ١٧٩-١٨٠؛ الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٠٠-٢٠١.

المبحث الثاني ابن جني والنظرية الاجتماعية

الأبعاد الاجتماعية في كتاب "الخصائص" لابن جني^١

لم تنشأ المناهج والنظريات اللغوية قديمها وحديثها إلا لتعبّر عن مضمون اللغة ودلالاتها، وعند النظر إلى اللغة؛ يبقى الغرض المتأصل والهدف المتضمن في كل إنجاز معرفي عن اللغة - وبخاصة في حال التواصل - اكتشاف مقاصد المتكلم.

والنص المؤدى بسمة وظيفية معينة؛ يعبر عن مقتضيات اتصالية واقعية اجتماعية، ولكنها لا تمثل جوانب الدرس اللغوي كلها، وإن كانت هذه هي الغاية الأهم والأبرز فيه، ومن هذا المنطلق الوظيفي، وبمعزل عن المنطلقات التأسيسية النظرية والمنهجية الأخرى التي ربما يلمسها الباحث عند ابن جني وغيره من اللسانيين العرب الأفذاذ؛ كان كتاب "الخصائص" مبتغى الاستدلال الحقيقي؛ لتناوله ملامح الأبعاد الاجتماعية التواصلية، فقد تضمن التنبؤ المبكر بتلك الإمكانيات اللسانية في فرضيتها الوظيفية المسبقة، وفي جدتها وإثارتها القائمة على قدر كبير من التشابه في الشكل والمضمون.

١. اجتماعية اللغة من التكوين الوظيفي إلى السياق التواصلية:

اللغة نتاج اجتماعي، ويتحدد وضع التواصل بالبُعد الاجتماعي الاستعمالي بين المتخاطبين؛ لأنه حوار متبادل بين متكلم ينتج ملفوظاً متوجهاً نحو متكلم آخر، ومتلقٍ يتوخى الاستماع والإجابة، وبذلك يكون شعار النظرية الوظيفية ذا ارتباط بفكرة الاستعمال الاجتماعي للغة، وأن المعنى في النهاية هو الاستعمال نفسه؛ أي استخدام اللغة لتحقيق أغراض معينة من أفراد معينين في مجتمع معين؛ لأنها ترتبط وظيفياً بالنشاطات الحقيقية للإنسان؛ التي لا يمكن أن تتعين إلا بوصفها توصالاً مع الذات ومع الآخرين.

فاللغة في نظر الوظيفيين؛ لا يمكن أن تبقى جامدة، ولكن ينبغي لها أن تواكب هذا التنوع في الأغراض التواصلية؛ لذلك ينشأ الخلط والتوهم حين تكون اللغة أشبه ما تكون بالآلة الحاملة الساكنة، لا حينما تؤدي وظيفتها.^٢

^١ انظر: مصطفى، هيثم محمد، "ملامح من النظرية الوظيفية (التواصلية) عند ابن جني في كتابه (الخصائص)"، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، المجلد ٨، العدد ٢/١٥، ٢٠١٤م، ص ٧٧٧-٧٩٩، وقد تضمنت مصادر مفيدة وتعليقات جيدة استفدنا منها جداً.

^٢ انظر: غلفان، مصطفى، في اللسانيات العامة (بيروت: دار الكتاب الحديث، ٢٠١٠م)، ص ٨١.

واللغة في منظور الاتجاه الوظيفي أو النظرية الوظيفية؛ وسيلة اتصال يستخدمها أبناء المجتمع للوصول إلى أهداف وغايات محددة؛ لأن التواصل يمثل الوظيفة الرئيسة المهيمنة على سائر الوظائف؛ كالتعبيرية، والتمييزية، وغيرها؛ إذا أردنا أن نبحث عن صياغة منهجية تمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفي^١.

وإذا ما علمنا أن جذور استعمال أي لغة تمتدُّ حتمًا إلى البنى الاجتماعية بأشكالها وصيغها؛ لأن اللغة مؤسسة إنسانية على الرغم من اختلاف بنيتها من مجتمع لغوي إلى آخر؛ أدركنا القيمة الافتراضية والاستدلالية الوحيية التي ينطلق منها هذا الاتجاه؛ إذ تكون أساليب التخاطب اللغوي شاهدة في انحدارها نحو المقاصد المقامية المختلفة التي يلفظ في ظلها هذا النص وذاك التركيب،^٢ ومن ثمَّ؛ كان تأكيد هذه النظرية على أهمية التواصل المقصود؛ أي إننا لو استخدمنا لغتنا على وجه تواصل سليم؛ لتقوم ألفاظها وعباراتها بوظيفة قصدية كاملة؛ لَمَا نشأت لدينا مشكلات لسانية وغموض إفهامي يُذكر، وبذلك يتبين الاتجاه الوظيفي عن الاتجاهات والنظريات اللغوية الأخرى بأنه يربط اللغة بالوظيفة التي تؤديها من جانب، وبالبيئة الاجتماعية وتضافر العناصر من جانب آخر،^٣ وهذا الذي دُكر عن هذه النظرية يمكن من تلخيص سماتها فيما يأتي:^٤

- أنها تعد اللغة وسيلة للتواصل الاجتماعي؛ أي نسفًا رمزيًا يؤدي مجموعة من الوظائف أهمها التواصل.
- تعتمد فرضية أن بنية اللغات الطبيعية لا يمكن أن ترصد خصائصها إلا إذا ارتبطت بوظيفة التواصل.
- قدرة المتكلم (السامع) في رأي الاتجاه الوظيفي؛ معرفته الأصول والقواعد التي تمكنه من تحقيق أغراض تواصلية معينة بواسطة اللغة، فالقدرة إذن قدرة تواصلية (Competence Communicative)، وتشمل هذه القدرة القواعد الصوتية والتركيبية والدلالية والتداولية، وتتجاوز القواعد اللغوية الشكلية إلى استعمال اللغة في المجتمع.
- تظهر صيغ اللغة ومعانيها في سياقات اجتماعية، وتتغير باستمرار استجابة للمتغيرات الاجتماعية والثقافية.
- تسهم اللغة في ضوء النظرية الوظيفية في بناء الواقع الاجتماعي والثقافي، وإدراكنا وملاحظتنا التجارب الاجتماعية.
- تُكتسب اللغة في السياق الاجتماعي، ويُعدُّ اكتسابها من ملامح الانخراط في المجتمع والإدراك العام.
- يُستخلص المعنى من أفعال المشاركين التواصلية الحقيقية، ويُعدُّ طارئًا على الصيغ اللغوية، لا متأصلًا فيها؛ أي إنه قد يتغير بتغير السياق.

١ انظر: أحمد، يحيى، "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢، العدد ٣، ١٩٨٩م، ص ٧١.

٢ انظر: بوقرة، نعمان، اللسانيات: اتجاهاتها وقضاياها الراهنة (إريد: عالم الكتاب الحديث، ط ١، ٢٠٠٩م)، ص ١٠٠.

٣ انظر: أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص ٧٢.

٤ انظر: مكرثي، ميشيل، قضايا في علم اللغة التطبيقي، ترجمة: محمود عبد الجواد توفيق (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط ١، ٢٠٠٥م)، ص ٧٥-

وتميل النظرية الوظيفية إلى التأكيد دومًا على الخاصية الآلية للغة، وفهم وظيفة اللغة من حيث هي آلة؛ ينبغي لنا أن ننظر إليها من خلال عوامل رئيسة ثلاثة ينتظمها الموقف التخاطبي، وذلك بالاعتماد على كل من المتكلم، والسامع، والأشياء، والمقصود بهذه العوامل عناصر الموقف الخطابي وأوضاعها التي هي موضوع الكلام (النص والتركيب)،^١ والبُعد اللغوي في النظرية الوظيفية حاله كحال الأبعاد المقسمة في النظرية التداولية، بوصفهما جزأين من العملية التواصلية، لا يخرجان عن المكونات الثلاثة الرئيسة:^٢

المكون اللساني Composants Linguistic: يتمثل في اكتساب المتكلم الأمثلة الصوتية والمعجمية والتركيبية الخاصة بنظام اللغة.

- المكون الخطابي Composants Discussion: يتجلى في اكتساب المتكلم القدرة على توظيف مستويات مختلفة من الخطاب وفق وضعيات التواصل.

- المكون المرجعي Composants Reference: يكمن في إدراك المتكلم الضوابط والمعايير التي تحكم التفاعل الاجتماعي بين الأفراد حسب ثقافتهم.

ومعرفة التواصل اللساني (الاجتماعي) في إطار النظرية الوظيفية، والمحددات التي تحكم هذا التوجه؛ ظهرت ملامحه وتحدت أصوله متينة في فكر ابن جني، وربما كان تعريفه للغة من أبرز الإشارات إلى ذلك حين قال: "أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"^٣، وقد أشاد كثير من علماء اللغة المعاصرين بهذا التعريف، وذكروا أنه يقترب اقتربًا كبيرًا، ويوافق في أكثر جوانبه؛ أحدث ما توصلت إليه قرائح اللسانيات الحديثة.

وما دُكر عن هذا التعريف أنه "يتضمن أربعة عناصر أساسية لتعريف اللغة تمثل في نفس الوقت أربع قضايا يتناولها علم اللغة الحديث بالدراسة، وهذه العناصر أو القضايا هي من طبيعة اللغة من حيث إنها أصوات، ووظيفة اللغة من حيث إنها تعبير، والطابع الاجتماعي للغة، وارتباطها بالجماعة اللغوية، والطابع العقلي والنفسي الذي يتمثل في علاقة الفكر باللغة"^٤.

وفي إشارة أخرى إلى التعريف ذاته يعلق محمود فهمي حجازي، فيقول: "هناك تعريفات كثيرة للغة عرفتها الدوائر العلمية المختلفة في شتى الحضارات، ويعد تعريف اللغة عند ابن جني من التعريفات الدقيقة إلى حد بعيد"^٥. فالطبيعة الذاتية للغة بأنها أصوات، والوظيفة الاجتماعية للغة بأنها وسيلة تواصل وتفاهم، فضلاً عما توحىه كلمة (الغرض) من ألوان الدلالات النفسية والشعورية التي ينطلق منها المتكلم، ويكون سببًا في صناعة خطابه بهذه السمة من خلال ربط القصد بالغرض، ويليه الهدف الذي ينتجه ويصل إليه التعبير اللغوي.

^١ انظر: الموسى، حماد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث (بيروت: المؤسسة العربية، ١٩٨٠م)، ص ٨٥.

^٢ انظر: إبرير، بشير، دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي (إربد: عالم الكتاب الحديث، ٢٠١٠م)، ص ٧٤-٧٥.

^٣ انظر: ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٣٣.

^٤ حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص ٧٩.

^٥ حجازي، محمود فهمي، علم اللغة: مدخل تاريخي في ضوء التراث واللغات السامية (الكويت: وكالة المطبوعات، ط ١، ١٩٧٣م)، ص ١٩١.

ويلمح ابن جني إلى أننا يمكننا أن نزيل كل غموض في سلوكنا اللغوي والاجتماعي، ونجعل من تواصلنا بعضنا مع بعض أكثر إقبالاً وحضوراً، وأهدافنا أبلغ استرسالاً وشمولاً؛ إذا ما جعلنا خطابنا أكثر دقة، وضمن سياقاته المعتبرة، عند ذلك؛ يكون كلامنا بعيداً عن العماء والاشتباه من طرف المتلقي؛ أي إن الوظيفة التواصلية للغة لا يمكنها أن تتجاوز حدودها الطبيعية المنطبقة في مجالها العلمي، وأي خروج عن هذه التشكيلة يؤدي بالعبارة إلى الإلغاز والعدول عن نشاطها الإفهامي المتسق؛ لأن نظام التواصل اللغوي يبدأ أساساً من المتحدثين، فهم يقرون إصدار المعلومات بطريقة سلوكية معينة، وعندئذ يختارون إشارة معينة يعتقدون ملاءمتها، ثم يرسلونها إلى المتلقي، فللفظ (الأغراض) عند ابن جني تعلق واتصال لا بالمواضعة الاجتماعية فحسب، وإنما بالنشاطات العقلية للمتحدثين والمستمعين في أثناء عملية التواصل،^١ ومن ثم؛ كان تأكيده على أهمية التواصل المقصود وفق الشكل الوظيفي الذي ينتظم وينطلق فيه الكلام، والغاية والغرض المحددين اللذين يغييهما المتكلم، والسياق التواصلية الذي يعبر من خلاله إلى المتلقي؛ لذا تشير الرسالة اللغوية عند ابن جني إلى عنصري المحتوى الوظيفي، والسياق التواصلية.

وبوسعنا أن نتلمس المعاني والعناصر التي أشرنا إليها سابقاً في قول ابن جني: "أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر، فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه؛ استعطفه؛ ليقبل عليه، فيقول له: يا فلان أين أنت أرنبي وجهك، أقبل علي أحدثك؛ أما أنت حاضر يا هناه، فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه؛ اندفع يحدثه، أو يأمره، أو ينهاه، أو نحو ذلك، فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه؛ لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء له"،^٢ فقد اشتمل النص - فضلاً عن عناصر التواصل التقليدية الثلاثة؛ المرسل، والرسالة، والمستقبل - على العنصرين؛ المحتوى الوظيفي، والسياق التواصلية؛ اللذين تظهر خلالهما دلالة النص والتركيب بصورتها الإفهامية والغائية السليمة، فأبرزتا بقوة ما عرضه ابن جني في استشهاده الدال على التشكيل الاجتماعي للغة، والبعد الخارجي في التحليل الوظيفي، وأثره في توجيه الخطاب وجهة تواصلية ملائمة، فقوله: "يا فلان أين أنت أرنبي وجهك، أقبل علي أحدثك... إلخ"؛ يؤكد أن زاوية الاستيعاب لهذا النوع من التعبيرات يتخطى الإدراك الابتدائي للاستعمال البسيط للغة في مواقفه الأصلية المفهومة من العلاقات التركيبية، وإنما مستوى السياق التواصلية والبعد الوظيفي الذي يحمله الرسالة اللغوية؛ يشكّلان خطوة مهمة نحو فهم اللغة ووصفها وتحليلها وفق المنهج اللساني التفاعلي الاجتماعي الجامع بين شكل اللغة وسياق اتصالها الاستعمالي.

إن تعريف ابن جني السالف للغة؛ فيه إشارة جلية إلى أن وظيفة اللغة هي التواصل بالقدرة الاستعمالية المتوفرة لدى المخاطب؛ لأنه يتفق مع غالبية علماء اللغة المحدثين الذين يرون أن وظيفة اللغة هي التعبير أو التواصل أو التفاهم بالدرجة الأولى،^٣ وهذه الخلاصة اللسانية التي مهد لها ابن جني لما بعده من الدارسين غربيين وعرباً؛ تؤكد

١ انظر: يوسف، سيكولوجية اللغة، ص ٢٧.

٢ انظر: ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٣٣.

٣ انظر: حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص ٩١.

مدى إحاطة العلماء العرب القدامى بمفهوم اللغة، وإدراكهم عددًا من المسائل المهمة التي تختص بها أي لغة، وأن الفروق يسيرة للغاية فيما بينهم وبين العلماء الغربيين، على الرغم من البعد الزمني الكبير، وقلة وسائل البحث، واعتماد العلماء العرب على إمكانات ذاتية خاصة تتمثل في عمق إدراكهم، ودقة نظرهم، وتلك الإمكانيات والقدرات ينبغي لها أن تبعث فينا الحافر والهمة لإبراز هذه الجهود العظيمة؛ لتحظى بالمكانة اللائقة التي تستحقها.^١

أسئلة ومراجعات

١. تحدث عن الأبعاد الاجتماعية في كتاب "الخصائص" لابن جني.
٢. بيّن كيف تكون اجتماعية اللغة من التكوين الوظيفي إلى السياق التواصلية.
٣. لخص سمات النظرية الاجتماعية عند ابن جني.
٤. البعد اللغوي في النظرية الوظيفية حاله كحال الأبعاد المقسمة في النظرية التداولية، بوصفهما جزأين من العملية التواصلية، لا يخرجان عن مكونات ثلاثة رئيسة؛ ما هي؟

المبحث الثالث

التداولية في الدراسات العربية

أولاً: مظاهر التداولية في التراث العربي القديم

تعدُّ دراسة اللسانيات التداولية في التراث العربي مهمة؛ لبيان الامتدادات المعرفية للجهود العربية القديمة، وتقديم جانب من الأفكار الرائدة التي عرضها علماء العربية قديماً، ومن أهمّ المبادئ المنهجية في الفكر اللغوي العربي القديم تعريف اللغة بأنها وسيلة تواصل للتعبير عن الأغراض،^٢ وهو تعريف ابن جني المتقدم،^٣ ويمكننا أن نجد في هذا التعريف بعض القيم التداولية ذات القيمة النفعية والتعبيرية، وأن القدرة اللغوية لدى علماء العربية تحكمها ثلاث معارف تتمثل في معرفة لسانية تقتضي معرفة الدلالات والمعاني، ومعرفة لغوية تقتضي امتلاك المتكلم لقواعد لغته، ومعرفة خطابية تقتضي أن يملك قواعد إنتاج الخطاب، وكل منها تقتضي الأخرى.^٤

^١ انظر: البهناوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي العربي ونظريات البحث اللغوي، ص ١٩.

^٢ انظر: المتوكل، أحمد، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط ٢، ٢٠١٠م)، ص ٨٤.

^٣ عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: عبد الحكيم بن محمد (القاهرة: المكتبة التوفيقية، ١٩٩٨م)، ج ١، ص ٤٤.

^٤ انظر: عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٠م)، ص ٣٧-٣٨.

وقد تناول القدامى بعض المبادئ التداولية الحديثة التي قال بها علماء اللغة المعاصرون، ومن ذلك أن الكلام يتم لغايات وأهداف، أو إشباع حاجات، أو الحصول على فائدة، وتستعمل اللغة للأغراض ذاتها، ويُضفي المتحاورون على الملفوظات دلالات أخرى غير ظاهرة، ولم تُغفل البلاغة العربية ذلك، وإنما اعتمدت مبدأ "الكل مقال مقام".^١ وقد كثرت أشكال الاهتمام بدراسة الخطاب والإقناع عند العرب، فتناولوا نص الخطاب في ذاته، ودرسوا ما يرتبط بالمخاطب وطريقة أدائه، والمخاطب وطريقة تلقيه، ومطابقة الخطاب مقتضى الظاهر ومخالفته.

وما يدل على تناول العرب أصول هذا الاتجاه؛ أن النحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين؛ مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته علمًا وفلسفًا وتطبيقًا في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة.^٢

ويمكن تحديد مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب في علوم البلاغة، والنحو، والنقد، والخطابة، وما قدمه علماء الأصول حين ربطوا بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية؛^٣ إذ إن أهم ما يميز الدرس اللغوي العربي القديم أنه يقوم على دراسة اللغة في أثناء الاستعمال منذ بدايته، ومثال ذلك ما ذكره السيوطي أن اللغة تؤخذ استعمالاً لا قاعدة، وجعل مخرج كتابه "الاقتراح في علم أصول النحو" ما نطقت به العرب؛ بعدّه الأصل في كل ظاهرة؛ قال: "إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه"،^٤ ويظهر من قول السيوطي هذا قيمة الاستعمال وما تتداوله العرب في اللغة، وأهميته في تحديد أساليبها وطرق أدائها.

ويُعَدُّ التراث العربي من نحو، وبلاغة، وفقه، وأصوله، وتفسير، وقراءات؛ وحدة متكاملة في دراسة اللغة يمكن أن نميز من اتجاهاتها ما يهتم بوجه استعمال اللغة، وما يتصل بها من قرائن غير لفظية، نحو منزلة المتكلم وعلاقته بالسامع، وحالة كل منهما النفسية والاجتماعية والأدائية، وظروف التواصل الزماني والمكاني، مما يقدم لنا دراسة تداولية شاملة؛ حيث إن الإنتاج اللغوي القديم يؤوّل في مجموع نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره إلى المبادئ الوظيفية، ومن ملامح ذلك أن تخصّ العلوم المذكورة سابقاً القرآن الكريم؛ إذ إن الوصف اللغوي آنذاك لم يكن منصباً على الجملة المجردة من مقامات إنجازها بقدر ما نظر إلى النص بعدّه خطاباً متكاملًا، وكان الوصف اللغوي يربط بين المقام والمقال، وبين خصائص الجمل الصورية وخصائصها التداولية.^٥

^١ انظر: سويرتي، محمد، "اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح التداولي"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد ٢٨، العدد ٣، يناير/مارس ٢٠٠٠م، ص ٣٠.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ٣٠-٣١.

^٣ انظر: المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ص ٣٥؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨م)، ص ١١٦.

^٥ انظر: المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ص ٣٥.

ويميّز في الدراسات القديمة بين قسمين من البحوث؛ قسم يعتمد على الاهتمام بالخصائص التداولية تأويلياً؛ كمطابقة المقال لمقتضى الحال، والآخر يعتمد على الاهتمام به توليدياً؛ أي إن الخصائص التداولية ممثّل لها في الأساس ذاته؛ ويبرز في هذا المجال اهتمام النحاة والبلاغيين بدراسة أغراض الأساليب من دلالات حقيقية إلى دلالات أخرى يقتضيها المقام.

وهناك بعض التلاقي بين ما تناوله العلماء العرب القدامى وبين ما اقترحه الوظيفيون المحدثون وفلاسفة اللغة العادية؛ يمكن تتبعه في آراء بعض الباحثين من خلال دراسة ظواهر الإحالة، أو تحليل العبارات اللغوية حسب نوع إحالتها، والاهتمام بدراسة أفعال الكلام، ودراسة مجالات الترابط بين البنية والوظيفة، وأقل ما تعنيه مجالات اللقاء هذه بين الفكر العربي اللغوي القديم، وبين ما يقدّم حديثاً من بحوث في المجالات نفسها؛ أنه لا يمكن التأريخ لتطور الفكر اللغوي بإغفال حقبة من دون حقبة، ومن دون ذكر ما أسهم به اللغويون العرب في هذا المجال.^١

فدراسة عملية التواصل أو الاتصال قديمة تعود جذورها إلى الدراسات النظرية الأولى عند الجاحظ، والجرجاني، وابن قتيبة، وحازم القرطاجني، وغيرهم، ولكنها كانت ذات طابع معياري تهتم بالأثر الناتج مباشرة عن الرسالة، والشروط التي تجعل الخطاب ناجحاً، وفي هذا مظاهر للتداولية الحديثة، فكما ركز هؤلاء المنظرون على المرسل، والمتلقي، والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والقصد، ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام؛ يُعدّ ذلك جوهر النظرية التداولية.^٢

أما أهم علماء التراث العربي الذين تحدثوا عن التداولية بطريقتهم ومنهجهم، فهم كما يأتي:

١. الجاحظ (ت ٢٥٥هـ):

ذكر العرب القدامى بعض القضايا المتعلقة بعناصر التداولية ومفهومها، وعرف الجاحظ البيان بقوله: "البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محموله، كائنًا من كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسّامع؛ إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع...".^٣

^١ انظر: بوجادي، خليفة، "التفكير اللغوي التداولي عند العرب: مصادره ومجالاته"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف ٢، الجزائر، المجلد ٩، العدد ١٦، أكتوبر ٢٠١٠م. ص ٣١-٣٩.

^٢ انظر: السابق نفسه.

^٣ الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٦٠.

يركز الجاحظ في هذه العبارة على مقصد أدبي في إفهام المخاطب وإبلاغه محتوى الرسالة الأدبية من المرسل؛ لتحقيق المقصد المتمثل في البيان، وهو الغرض الأساس الذي تحرص التداولية المعاصرة على تحقيقه في الخطابات المنجزة، وعليه؛ يتوزع البيان في نظرية الجاحظ على مستويين؛ المستوى التداولي الإقناعي، والمستوى المعرفي.^١

ويرى الجاحظ أن البلاغة تكون في اللفظ وبالمستوى المعرفي الذي يختص بالمعاني بعامة؛ ومن ثم؛ عمل على حصر البيان في اللفظ، وربط الإقناع بالتداول، وقد توصل إلى هذا المستوى البلاغي في البيان انطلاقاً من الوظيفة التواصلية؛ إذ يقول في هذا التصور التداولي: "المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، المختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أمره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تخلص المتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشي مألوفاً، والغفل موسوماً، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان".^٢

يجل هذا النص على أسس العملية التواصلية بشتى وظائفها في إطار علم اللغة المعاصر، فالمعاني المستورة والخفية لا يُتعرّف إليها إلا بالاستعمال؛ أي بالألفاظ، وكذلك بالإخبار عنها؛ أي الإبانة أو البيان الذي أشار إليه في قوله، ويتوافق هذا التصور مع مفهوم الإبلاغ^٣ الذي تعنى به التداولية؛ إذ تصف وتفسر الخطاب بين مستعملي اللغة في علاقة الكلام المنجز بالسياق العام والخاص، ومدى تأثيره، من حيث هو سلسلة من الأفعال في المتلقي في مستوى الفهم والفائدة، وهذا ما ذهب إليه الجاحظ عندما عدّ الإخبار والاستعمال المسؤولين والمتحكمين بالمعاني،

^١ انظر: بوقرة، نعمان، "ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين"، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٠م، المجلد ١٤، العدد ٥٤.

^٢ الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٦٠.

^٣ يُطلق على مفهوم الإبلاغ مصطلح "الإعلامية" أو "الإخبارية" (Informativity)؛ أي ما تتسم به الوقائع النصية من توفُّع في مقابل عدم التوفُّع، أو المعرفة في مقابل عدم المعرفة، أي ما يتوفر في النص من عناصر الجدة أو التنوع الذي تُوصف به المعلومات، فكلما بُحِّد احتمال ورود هذه العناصر؛ ارتفع مستوى الكفاءة الإعلامية للنص، فتكون العلاقة طردية بين الجدة وعدم التوفُّع وبين الإعلامية حينما تزداد العناصر غير المتوقعة؛ إذ بتوفرها ترتفع الإعلامية، وبانخفاضها تنخفض الإعلامية؛ أما العلاقة العكسية فتكمن في مدى احتمال ورود العناصر النصية؛ فكلما ازداد احتمال ورودها قلَّت الإعلامية، وكلما قلَّ احتمال ورودها زادت درجة الإعلامية. انظر: إبراهيم، محمد عبد الرحمن، الإعلامية أبعادها وأثرها في تلقي النص: دراسة نظرية تحليلية (رسالة دكتوراة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠٠٧م)، ص ٢١-٢٢.

لذلك يُبرز لنا الجاحظ معالم التداولية عندما قسم البيان إلى ثلاث وظائف تمثل جانباً مهماً في التداوليات الحديثة؛ هي:^١

- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة الحياد؛ بإظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام).
 - الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف؛ بتقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب).
 - الوظيفة الحجاجية (حالة الخصام؛ بإظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار).
- فكل هذه الوظائف تمثل النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة؛ لأنها مقارنة تهتم بالتواصل في الدرجة الأولى، وبالإقناع والتأثير وإبصال المعنى وتقديم الفائدة.

٢. ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ):

تحدث ابن قتيبة عن تهمة المخاطب نفسياً؛ ليتقبل ما يقصد إليه الخطاب، والانفعال به انفعالاً ظاهراً،^٢ ورأى أن على الشاعر أن يسير في قصيدته وفق ما هو معهود في ذلك الوقت؛ إذ كان الشاعر يبدأ فيها بالنسيب، ويذكر مشاق السفر، ثم يصف ناقته، فيبثها أشجانه، ثم ينتقل إلى مدح صاحبه بعد أن يكون قد أثار انتباهه، وهياًه نفسياً إلى شعره؛ قال ابن قتيبة: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّد القصيد إنما ابتداءً فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها؛ إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدرِّ لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلاً وتتبعهم مساقط الغيث؛ حيث كان ثمَّ وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجود ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس لائتط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهرة، وسرى الليل وحر الهجير..."^٣، وقال في موضع آخر: "فالشاعر المجيد من سلك هذه

^١ انظر: العمري، محمد، *البلاغة العربية أصولها وامتدادها* (الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ط ١، ١٩٩٩م)، ص ٢٩٣، وفيه: "إن التداولية الحديثة بُعد جاحظي في أصله؛ لاهتمام الجاحظ وتركيزه على هذا المستوى في كتابه (البيان والتبيين)، وعلى عملية التأثير في المتلقي والإقناع، وقد سُميت هذه النظرية عنده - والتي تُعرف اليوم بـ"التداولية" - بـ"نظرية التأثير والمقام"، وتحظى نظرية التأثير والمقام حالياً بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثمَّ الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو (التداولية)".

^٢ انظر: بو بكر، راضية خفيف، "التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقارنة نظرية"، *مجلة الموقف الأدبي*، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ٢٠٠٤م، العدد ٣٩٩، ص ٦.

^٣ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، *الشعر والشعراء*، تحقيق: مفيد قمحية، محمد أمين الضاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م)، ص ٢٠. لائتط بالقلوب؛ أي عالق لها ومحجب إليها.

الأساليب، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطل فيملاً السامعين ولم يقطع، وبالنفوس ظمأ إلى المزيد".^١

٣. أبو هلال العسكري (ت ٤٠٠هـ):

تحدث عن الفرق بين الإرادة والمعنى، ورأى أن المعنى إرادة أن القول على ما هو موضوع له في أصل اللغة أو مجازها، فهو في القول خاصة، والإرادة تكون في القول والفعل،^٢ وميز بين القصد والإرادة، ورأى أن القصد يختص بفعله من دون فعل غيره، والإرادة عنده مختصة بأحد الفعلين من دون الآخر، والقصد إرادة الفعل في حال إيجاده فقط، وإذا تقدمته بأوقات لم يسم "قصدًا"؛ إذ رأى أنه لا يصح أن تقول في الكلام: قصدت أن أزورك غدًا.^٣

٤. ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ):

يقول: "والكلام يتعلق بالمعاني والفوائد والمواضع، لا لشيء من أحواله..."^٤ ويشير ابن سنان في هذا القول ضمناً إلى التداولية عند حديثه عن الفائدة التي نرجوها من الكلام، فهو يشترط في الكلام الصحيح الانتظام والفائدة، وإلا لا يمكن عدّه كلاماً إلا إذا حقّق الفائدة المرجوة منه؛ أي إن الكلام عنده يؤدي فائدة للمتلقّي، فضلاً عن حديثه عن المواضع والقصد واستعمال المتكلم له؛ أي استعمال اللغة في قصد.

وقال في موضع آخر: "إن المتكلم من وقع الكلام الذي بين حقيقته بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده، وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرًا"^٥، فنجد أنه يشير إلى عنصر المتكلم ووظيفته في نجاح العملية التواصلية، وتوجيهها، وتحديد مسارها التداولي، وهذا ما اعتنت به التداوليات الحديثة بالمتكلم والمخاطب انطلاقاً من الاعتقاد بأن الخطاب يتوجه من أحد الطرفين وإليه.

وقال في النثر: "فأما النثر فيجري على المنهاج ويحتاج إلى معرفة المواضع في الخطاب والاصطلاحات، فإن للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يستعمل في الإخوانيات، وللتوقيعات في الأساليب ما لا يحسن في التقاليد، والمواضع والاصطلاح في الخطاب يتغير بحسب تغير الأزمنة والدول، فإن العادة القديمة قد هُجرت ورفضت، واستجد الناس عادة بعد عادة..."^٦ ويتضح منه أن الأساليب الكتابية المستخدمة لدى الكتّاب والحكّام تختلف عن الأساليب المتداولة لدى العامة من الناس، واستخدام الناس للمصطلحات تتغير بتغير الزمان والمكان، وتبعاً لتطابق الكلام مقتضى الحال، وذكر أنه يحسن ألا يضمن الشاعر شعره، ولا كاتب الرسائل رسائله؛ ألفاظ المتكلمين

^١ السابق نفسه.

^٢ انظر: أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، الفروق في اللغة، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٢م)، ص ٢٠٤.

^٣ المصدر السابق، ص ٢٠٥.

^٤ ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد، سر الفصاحة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٧٦م)، ص ٤٣.

^٥ المصدر السابق، ص ٤٤.

^٦ المصدر السابق، ص ٣٠٢.

والنحويين والمهندسين ومعانيهم؛ لأنهما بذلك يخرجان على مقتضى الحال، ومن يخاطبناهم من أوساط الناس والحكام والوزراء.^١

٥. عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ):

قال: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل"، وقال في موقع آخر: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع الألفاظ الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله"، وقال: "لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حدودها، لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسب النظم"، وقال أيضاً: "إن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وإن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس".^٢

وقد بنى الجرجاني نظريته إلى اللغة التي تقول بوجود كلام خارجي لفظي، وآخر داخلي نفسي، ويستفاد من تناوله اللغة بقوله إنها: "نظام من العلاقات والروابط المعنوية التي تستنبط من المفردات والألفاظ اللغوية بعد أن يسند بعضها إلى بعض، ويعلق بعضها ببعض، في تركيب لغوي قائم على أساس الإسناد"^٣ إذ أشار في هذا النص إلى عملية التواصل، وركز على وضعية المخاطب تجاه النص، وتحدث عن المعنى وعمق وضوحه، ورأى أن التواصل المؤدي إلى الغرض يتم بوصول المعنى المراد في الذهن؛ لأنه الفائدة بالقصد، وهو يقع في نطاق التداولية التواصلية.

٦. السكاكي (ت ٦٢٦هـ):

قال: "مقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكل ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر...".^٤

يتضح من قوله هذا ضرورة مراعاة مقتضى الحال بين المتلقي والمقام، ووجوب الالتفات إلى تباين أغراض الخطاب، فالكلام الموجه إلى الذكي ليس نفسه الكلام الموجه إلى الغبي، وتغيير قصد المتكلم؛ تتعين حينها مقصدية الإفهام واستجابة المتلقي، وتتمركز نظرية الأفعال الكلامية في اهتمامها بالأساليب الإنشائية من حيث البنية، والدلالة، والغرض.

^١ انظر: زايد، عبد الرزاق أبو زيد، كتاب سر الفصاحة لابن سنان: دراسة وتحليل (القاهرة: مكتبة الشباب، ط ١، ١٩٧٦م)، ص ٨٧.

^٢ الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ط ٦، ١٩٦٠م)، ص ٤٩، ٥٠، ٥٥.

^٣ أبو زيد، أحمد، مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن (الرباط: دار الأمان، ١٩٨٩م)، ص ٣٢.

^٤ السكاكي، يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م)، ص ٧٣-٧٤.

ويُعد السكاكي مثلاً عربياً متميزاً يمكن أن تكون آراؤه أساساً نظرياً للسانيات تداولية عربية بعامة، ولنظرية الأفعال الكلامية بخاصة، وقد عني بالأفعال الطلبية التي جاوزت معناها المباشر إلى المعنى المقامي في سياق الإشارة إلى إمكان مخالفة ظاهر اللفظ لمراد المتكلم.^١

ويبين السكاكي أن موضوع علم المعاني هو "تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره..."^٢، ثم أوضح مفهومه لخواص تركيب الكلام؛ بقوله: "وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب، جاريًا مجرى اللازم له"^٣، فمفهوم كلامه أن دراسة العلماء العرب - ولا سيما علماء المعاني والمناطق والأصوليين - مقتصرة على التراكيب الدالة المفيدة؛ أي التي لها دلالات مباشرة حرفية أو غير مباشرة ضمنية، تُفهم منها أو ملازمة لها، والملاحظ أن العلماء عامةً يركزون على دعامة "الإفادة" في دراستهم للجملية والنص؛^٤ إذ هي مناط التواصل بين مستعملي اللغة، فقد كانت مراعاتها من العلماء العرب عنواناً لأي دراسة لغوية وظيفية جادة.^٥

١ انظر: المتوكل، أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط ١، ١٩٨٦م)، ص ٩٦-١٠٣؛ صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي (بيروت: دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٥م)، ص ٤٩، وقد بين فيه أن اقتراحات السكاكي تمتاز بالتحليل الذي يضبط علاقة المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقامياً، وتقعيده لفكرة الاستلزام التخاطبي داخل وصف لغوي شامل يطمح إلى تناول جميع المستويات اللغوية من أصوات وصرف ونحو ومعانٍ وبيان، فالاستفهام مثلاً يتحول إلى وجود جملة من القرائن المقالية والمقامية يختارها المتكلم لتحقيق قصد معين، كالعرض في قولنا: ألا تحب أن تنزل فتأخذ شيئاً؟ وانصرافه إلى الإنكار في قولنا: أمثلك يفعل هذا؟ لمن تراه يفعل فعلاً مشيناً، وهكذا تتعدد وظائف الاستفهام بحسب المقام الذي يُستعمل فيه، ولم يحصر السكاكي ارتباط تعدد الوظيفة التداولية للأفعال الطلبية في الاستفهام، فقد درس الأمر والنهي والتمني والنداء، كما تنلمس ملامح الفعل الكلامي، وارتباط الوضع بالقصد في أسلوب الحكيم والسائل بغير ما يطلب.

٢ السكاكي، مفتاح العلوم، ص ١٦١، وانظر تعليق: الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م)، ص ١٥.

٣ انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص ١٦١.

٤ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٥١-٥٣، وقد قال إنه يُحمل عليه مقصد سيبويه عندما صنف الجملة العربية دلاليًا أصنافاً ذكرها في قوله: "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، وما هو محال كذب"، فالملاحظ أن سيبويه لما تحدث عن صنف "المحال" لم ينعه ب: "مستقيم"، أو "حسن"، كما فعل مع الأصناف الأخرى، مما يدل على أن لا كفاية لهذا الصنف تواصلياً، ومن ثم؛ لا يُعتدُّ به تداولياً في اللسانيات العربية؛ انظر: سيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٢٥.

٥ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ١٨٦، ويراد بمبدأ الإفادة حصول الفائدة لدى المخاطب من الخطاب، ووصول الرسالة البلاغية إليه على الوجه الذي يغلب عليه الظن أن يكون هو مراد المتكلم وقصده، وهي الثمرة التي يجنيها المخاطب من الخطاب، والفرق بين الإفادة والغرض، فهو أن الإفادة أُلصق بالمخاطب وما يجنيه من فائدة تواصلية من خطاب المتكلم، وأما الغرض فمتعلق بالمتكلم؛ أي بالقصد والغاية اللذين يرمي إلى تحقيقهما؛ فالمتكلم والمخاطب هما الطرفان الأساس في عملية التواصل.

٧. حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ):

قال: "لما كان الكلام أول الأشياء بأن يجعل دليلاً على المعاني التي احتاج الناس إلى تفهمها حسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضاً على تحصيل المعاني وإزاحة المضار"،^١ ونجده لا يعتبر الكلام الذي لا يدل على معنى كلاماً، ويشير إلى فكرة القصد؛ إذ يجعل الفائدة المتداولة بالقصد؛ فالكلام الذي يكون دليلاً على المعنى، يشكل أساس الدراسات اللسانية الحديثة، والتفاهم الذي قصده تحقيق التواصل، وهذا يدخل في نطاق التداولية التواصلية؛ أي إنه كلام مرسل يحمل قصداً ومعنى وفائدة يريد المتكلم إيصالها إلى المتلقي، ويشير إلى البعد النفعي الذي ترمي إليه العملية البلاغية بصورة شاملة، والعملية الإبداعية ممثلة في المنجز الشعري بخاصة، الذي يقوم بخاصة على عنصر التأثير، وهذا ما تركز عليه اللسانيات التداولية في تحليل الخطاب، ملمحاً في السياق ذاته إلى ضرورة احترام مقاصد المتكلم، المتحكمة بدورها في الأثر الذي يسلطه النص في المتلقي.

وقال عن طرق العلم بأنحاء النظر في المعاني من حيث تكون قديمة متداولة أو جديدة مخترعة: "إن من المعاني ما يوجد مرتسماً في كل فكر، ومتصوراً في كل خاطر، ومنها ما يكون ارتسامه في بعض الخواطر دون بعض، ومنها ما لا ارتسام له في خاطر وإنما يتهدى إليه بعض الأفكار في وقت ما، فيكون من استنباطه؛ فالقسم الأول هو المعاني التي يقال فيها إنها كثرت وشاعت، والقسم الثاني ما يقال فيه إنه قلّ أو هو إلى حيز القليل أقرب منه إلى حيز الكثير، والقسم الثالث هو المعنى الذي يقال فيه إنه ندر وعدم نظيره".^٢

فالبعد التداولي للبلاغة يتولد من اهتمامها بمفهوم "المقام الخطابي" في سياق بحثها عن المقاصد، وقد ترتب عن توجه البلاغة نحو الأثر التداولي أن وضع المتلقي في مركز الاهتمام، وتنطلق البلاغة في ذلك من تصور يعُدُّ كل نص متضمن بالضرورة قدرًا من البلاغة، أو هو بلاغة بشكل من الأشكال؛ ما دام يمتلك وظيفة تأثيرية، وبهذا الاعتبار؛ تمثل البلاغة منهجًا للفهم النصي مرجعه التأثير، وعندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية؛ ننظر إلى النص من زاوية نظر المستمع والقارئ، ونجعله تابعًا لمقصدية الأثر.^٣

١ أديوان، محمد، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال الكلامية المعاصرة (الرباط: جامعة الرباط، كلية الآداب، د.ت)، ص ٢٥.

٢ القرطاجني، حازم بن محمد، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة (بيروت: دار الكتب الشرقية، ط ١، ١٩٦٤م)، ص ١٩٠-١٩١، ويراد بالقسم الأول مثل ما يتداوله الناس من تشبيه الشجاع بالأسد، والكريم بالغمام، والقسم الثاني ما قلت أنفسها أو بالإضافة إلى كثرة غيرها، منها أن يركب الشاعر على المعنى معنى آخر، ومنها أن يزيد عليه زيادة حسنة، ومنها أن ينقله إلى موضع أحق من الموضع الذي هو فيه، وأما القسم الثالث فكل ما ندر من المعاني فلا نظير له، وهذه المرتبة العليا في الشعر من جهة استنباط المعاني؛ لأن ذلك يدل على نفاذ الخاطر وتوقُّد الفكرة.

٣ انظر على الشابكة: الغرائي، مصطفى، "الأبعاد التداولية لبلاغة حازم"، موقع الحوار المتمدن، المطالعة في ٧ مايو ٢٠١٧م.

٨. ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ):

قال: "اعلم أن اللغة - في المتعارف عليه - هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة قارة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها".^١

وقال في موضع آخر: "اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها، وقصورها، بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال؛ بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة"،^٢ ويمكننا أن نجد مفاهيم تداولية في هذا النص تتمثل في الملكة اللغوية،^٣ والجودة، والقصور، والتعبير عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف، ومقتضى الحال، والتبليغ، والغاية من إفادة المقصود، والسامع، والبلاغة؛ وهذه القيم أشار إليها المعاصرون بمصطلحات من مثل الأداء، والكفاءة، والقصد، والتركيب، والسياق.

فالبلاغة قديماً تميز بين ثلاثة أنماط من المقصدية؛ هي:

- المقصدية الفكرية: تضم مكوناً تعليمياً وحجاجياً وأخلاقياً.
- المقصدية العاطفية: تضم مكونين أحدهما مقصود يكون هدف الإقناع فيه خارج النص، والآخر غير مقصود يكمن في إحالة النص إلى نفسه، مما يولد المتعة الجمالية، ومقصدية التهيج، وتكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة التي تسيطر على الجمهور لتحقيق تهيج عاطفي وقتي.^٤

أسئلة ومراجعات

١. تحدث عن التداولية ومظاهرها في التراث العربي القديم.
٢. هناك بعض التلاقي بين ما تناوله العلماء العرب القدامى وبين ما اقترحه الوظيفيون المحدثون وفلاسفة اللغة؛ كالجاحظ. بين ذلك مع الاستشهاد بأقوال الجاحظ والوظيفيين.

^١ مقدمة ابن خلدون، ص ١٠٥٦.

^٢ السابق نفسه.

^٣ الملكة اللغوية أو اللسانية لدى ابن خلدون؛ مقدرة تحصل للمتكلم للاستعمال الصحيح للغة، وهي ملكة غير شعورية، وصفة راسخة في النفس، وهي اجتماعية مكتسبة من الجماعة اللغوية بالتقليد والمران والتكرار، ولا علاقة لهذه الملكة بالجنس أو العرق، بل تتم بالنشوء والترعرع والنمو في المجتمع المستخدم لغة معينة، وتقاس نسبة التمام والجودة فيها بالعمر الذي ينتقل فيه الطفل إلى البيئة اللغوية. انظر: عبد السلام، اللغويات العامة، ص ١٤٣.

^٤ انظر: بليث، هنريش، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة: محمد العمري (الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، ١٩٩٩م)، ص ٢٩، وقد اقتنع بليث بإمكانية التأسيس لنظرية تداولية انطلاقاً من البلاغة إلى أقصى حدودها؛ عندما رأى أنه يمكن للتداولية النصية أن تأخذ من جديد مفهوم المقام النصي، والوظائف التي تحدد المقامات، وتدمج ذلك كله في نموذج نصي وظيفي.

٣. ذكر العرب القدامى بعض القضايا المتعلقة بعناصر التداولية ومفهومها، فقد عرف الجاحظ البيان، وأبرز معالم التداولية؛ عندما قسم البيان إلى ثلاث وظائف تمثل جانباً مهماً في التداوليات الحديثة، اذكر هذه الوظائف الثلاث.
٤. تحدث ابن قتيبة عن تهيئة المخاطب نفسياً ليتقبل ما يقصده الخطاب، والانفعال به انفعالاً ظاهراً؛ اشرح هذه القول.
٥. ما الفرق بين الإرادة والمعنى التي تحدث عنها أبو هلال العسكري (٤٠٠هـ)؟
٦. يشير ابن سنان ضمناً إلى التداولية، ما الأمور التي أشار إليها وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التداولية؟
٧. ما الفكرة التي بنى فيها عبد القاهر الجرجاني نظريته إلى اللغة؟
٨. ما وجهة نظر السكاكي في نظرية الأفعال الكلامية؟
٩. بم أشار حازم القرطاجني في كتابه إلى مفهوم التداولية في الكلام الاجتماعي؟
١٠. اذكر أقوال ابن خلدون عن مفاهيم التداولية مع الشرح.

المبحث الرابع

مظاهر التداولية

أولاً: المفسرون

قدم المفسرون وقفات أمام آيات قرآنية عكست تصوراتهم اللغوية؛ إن جمعت مع أفكار البلاغيين واللغويين وغيرهم؛ اقتربت بوضوح من رؤية اللسانيات التداولية الحديثة إلى اللغة بعدّها نشاطاً تداولياً، ومن وقفاتهم ما أورده الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالدعاء "بالحكمة"؛ أي المقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، وأشار إلى أن "الموعظة الحسنة" هي التي لا يخفى عليهم أن الشخص الذي يدعوهم إلى الحكمة يُناصِحُهُم بها، ويقصد ما ينفعهم فيها، وأما "وجادلهم بالتي هي أحسن"، فالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعسف؛^١ وبذلك قدّم الزمخشري أحوال التواصل، وحدّد مقامات الدعوة بالحكمة والموعظة وفق أغراض الحديث ومقاصده، ولذلك يُعد ما ذكره في تفسير هذه الآية وفق هذا المعنى؛ مجال اللسانيات التداولية الحديثة؛ إذ إن استحضار جميع مكونات الخطاب اللغوية والسياقية في عملية التفسير مهم لفهم معاني القرآن، وتجاهل أيّ عامل من العوامل المشكّلة للمعنى القرآني مدعاة إلى الوقوع في سوء الفهم والتقدير؛ لذا ألزم العلماء بمنهجيته على ضرورة استيفاء جملة من الشروط لمن يتصدى لتفسير القرآن وتأويله، تقتضي منه العناية بالجوانب الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والمعجمية،

^١ انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل (بيروت: دار المعارف، د.ت)، ج ٢، ص ٤٣٥.

والأسلوبية؛ التي تمثل اختيارات مقصودة موجهة نحو عموم الناس؛ لذا نجد المفسرين اهتموا بدور السياق في تحديد المعنى داخل النص، والأغراض التداولية للخطاب، فتحوّلت هذه الألفاظ المشكّلة للنص إلى أفعال كلامية على شكل أفعال الأمر والنهي، وعلى شكل سلوكيات؛ كالأخلاق، والإخباريات، والقصص، والأحكام من مثل أحكام الجزاء والعقاب، والتعهديات؛ كالترغيب، والترهيب.^١

فكل سورة تتضمن أفعالاً قولية وألفاظاً تؤدي دورها وتأثيرها في المتلقي، وتوجّه أفعاله، وتعدّل في سلوكه وقيمه ومعتقداته، فتلقّي آيات الرحمة والعذاب، والأحكام الشرعية، والإخبار بالغيب، والدعوة إلى فعل الخيرات، وتجنّب المحرمات؛ من الموضوعات التي تتمحور في الفعل الإنجازي الطلي بشتى أغراضه وسياقاته وشروط تحققه، وبذا تتحقق تداوليات الخطاب في النص القرآني.^٢

ثانياً: علماء القراءات القرآنية^٣

تساعد معرفة القراءات على كيفية النطق بالآيات القرآنية، وترجيح بعض الوجوه المحتملة في القراءات على بعضها الآخر، وقد اهتم المفسرون بهذا الجانب من علوم القرآن لهذه الأسباب، فضلاً عن دوره في إبراز الوجوه المختلفة في إعراب الآيات، والتعرف على الصيغ الصرفية للكلمات، وذلك للاتصال الوثيق بين القراءات المختلفة ولغات القبائل العربية المستوطنة في شبه جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم، ونطق بعض القراء ألفاظاً معينة منه يتفق مع نطق هذه القبائل على الرغم من أن القرآن أنزل بلغة قريش؛ ولكن لا يُعدّ الاختلاف في النطق خطأ؛ إذ إن القرآن أنزل على سبعة أحرف؛ تسهيلاً للتفاوت في منطق من يقرؤه.^٤

ومن هذا القبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾؛ من الآية: ﴿يَكَاذُ الْبُرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]؛ ففيه لغتان؛ يُقال: خَطِفَ يَخْطِفُ، وَخَطِفَ يَخْطِفُ، واللغة العالية التي عليها القراءة (خَطِفَ يَخْطِفُ)، وهذا الحرف (الكلمة) يُروى عن العرب والقراء، وفيه لغات، فيروى عن الحسن: "يَخْطِفُ"، بفتح الياء والحاء وكسر الطاء مشددة، ويُروى: "يَخْطِفُ"، بكسر الياء والحاء والطاء مشددة.^٥

ويمكن أن نقول إن النظرية التداولية عند المهتمين بالقراءات القرآنية تتحقق في ارتباطها بالعملية التفسيرية، وفي ضوء تأكيدهم ضوابط القراءة الجيدة، والترتيل المأثور عن قراءة الرسول ﷺ التي تراعي الإدغام، والقلب،

^١ انظر: بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، ص ١١.

^٢ انظر: السابق نفسه.

^٣ (القراءات) جمع (قراءة)، وهي في اللغة مصدر (قرأ)، يقال: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو قارئ، وفي الاصطلاح؛ علمٌ بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم من تخفيف، وتشديد، واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف. انظر: محيسن، محمد سالم، القراءات وأثرها في علوم العربية (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٤م)، ج ١، ص ٩.

^٤ انظر: السابق نفسه.

^٥ انظر: الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شليبي (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٨م)، ج ١، ص ٩٥.

والإخفاء، والتفخيم، والترقيق، والإمالة، والإشمام، وغيرها من صور الأداء وهيئة العملية التي تترك أثرًا متعدد الأبعاد في السامع الذي تتيح له إمكاناته اللسانية والجمالية والذوقية؛ التفاعل مع النص وأغراضه التواصلية، وهذا الاستنتاج ينظر إلى النص ومنتجه من حيث موقف المتلقي القارئ له، وتحقيق المعنى المقصود في ضوء القراءة القرآنية الواحدة.

ثالثًا: علماء الحديث

نجد أن علماء الحديث التزموا شروطاً خاصة في طرق أخذ الحديث الأصلية والفرعية ونقلها؛ للتدليل على تلك الدقة التي تكشف تلقي الحديث، فتميزه من حيث الصحة والضعف، ومما يُستنبط من هذه التصورات أن عملية التلقي قائمة على أهم ركائز التداولية في اللسانيات الحديثة عبر التعامل مع النص المنقول بوصفه خطابًا بين مخاطب ومخاطب؛ لا تتحقق أغراضه إلا إذا اكتملت شروط الصحة والسلامة والأهلية.

وقد اعتنى الرواة بمقتضيات الحديث ومستلزماته؛ بالعناية بنقل الإشارات والحركات الجسمية المصاحبة آراء الحديث، وفعل القول النبوي، ووصفها، والحرص على وصف التنغيمات المصاحبة؛ حفاظًا على مقاصد الرسول ﷺ، ومن أمثلة ذلك قولهم: "جلس، وقد كان متكئًا"، و"احمرّ وجهه"، و"أشاح بوجهه"، و"شَبَّكَ أصابعه"، و"أشار بإصبعه"... إلخ، وهذه الخصائص الحوارية السياقية في مخاطبات الرسول ﷺ لأصحابه تساعدنا على إدراك الفعل التواصلية عند النظر في حقيقة المتحاورين وما يربطهما، وكذلك الوضع الجسمي للأطراف المشاركة من حيث هيئة الجسم، وطبيعة الحركة، وتقاسيم الوجه في بعض الأحيان؛ ترفع دقة التوقعات التأويلية، وبمعرفة القناة أو كيفية الربط بين الأطراف المشاركة في الحدث الكلامي لفظًا أو كتابةً أو إشارةً، أو بمعرفة اللهجة أو الأسلوب المستعمل؛ كل هذه الخصائص تساعد على فهم الحدث التواصلية النبوي وإدراكه.^١

رابعًا: الأصوليون^٢

اجتهد الأصوليون في بيان وظائف المتكلم والمخاطب في عملية التواصل؛ إذ نجدهم لا ينظرون إلى الخطاب مجردًا عن صاحبه ومتلقيه، وعن وجوه العلاقة بين صاحب الخطاب والمخاطب، وإنما ينظرون إليه كما هو متداول طبيعيًا،

^١ انظر على الشاذلية: مقبول، إدريس، "السنة النبوية ومستويات التمام السياقي"، منتديات المكتبة العربية، المطالعة في ٣٠ أبريل ٢٠١٧م. للعلاقة بين المتكلم والمخاطب من حيث وجود المشاعر والأحاسيس بين المتخاطبين؛ دور في إستراتيجية الخطاب، وكذلك عامل السلطة التي قد يمتلكها أحد طرفي التخاطب عندما يعلو الآخر درجة أو درجات، وربما لا يمتلكها أي منهما عندما تتساوى درجتهم، أو عندما لا تربطهما أي علاقة، فكل ذلك من المؤثرات التي تؤثر في التخاطب، ومن ثم؛ لم تتضمن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم كلامه فحسب، وإنما تضمنت مخاطبات غيره من الصحابة بعضهم بعضًا، ومخاطباتهم الأعراب والمنافقين واليهود والكفار.

^٢ يهتم علم أصول الفقه بالدرجة الأولى بمنهج التلقي، وهو أدوات التلقي، بينما لم يحتف كثيرًا بغاية التلقي، وذلك لأن علم أصول الفقه غلبت عليه الصنعة الفقهية، فأصبح ينشُد وضع قواعد لتلقي النص؛ لأجل الوصول إلى الحكم الشرعي العملي لا غير، والمأمول من هذا العلم اليوم ألا ينحصر بهذه الغاية الخاصة، وإنما يتجاوز ذلك إلى وضع قواعد عامة لتلقي النص الديني؛ بصرف النظر عن البحث عن حكم شرعي، وبذلك يخدم هذا العلم كل متلقي للنص الشرعي ببيان المقصد الذي رسمه الشارع بدراسة المعنى الكامل للخطاب، والغاية من تلقي الخطاب بعامة والنص بخاصة. انظر: صالح، أمين، "تلقي النص الديني: دراسة أصولية مقاصدية"، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٤٠، ٢٠٠٥م، ص ١٦-١٧.

ومن ثمّ؛ لزمهم الاعتناء بشروط تحقُّقه طبيعيًا من وجود المخاطب (الحاكم)، والمخاطب (المكلف)، ومعرفة المكلف مقاصد المخاطب، وكذا وجود قضية أو فعل يكون مناط التواصل، وكان الهدف من ذلك ألا تتصادم الفتوى بمعنى من كتاب الله سبحانه، أو تتعارض مع سنة رسوله ﷺ، أو تناقض مقصدًا من مقاصد الشريعة التي تهدف إلى إقرار العدل بما يسائر المصلحة العامة.^١

ومن القضايا التي اهتم بها علماء الأصول؛ دراسة العلاقة بين اللفظ وما يحيل عليه،^٢ فقد نظروا إلى العبارات اللغوية مثلاً من حيث أفراد المحال عليه وتعدُّده، وميزوا بين عبارات عامة تحيل على معانٍ عدة، نحو: إنسان، وكل، و(من) الموصولة... إلخ، وعبارات خاصة تحيل على معنى مفرد، نحو: رجل، وقلم... إلخ، ونظروا إليها من حيث تعيين المحال عليه أو إطلاقه، وميزوا بين عبارات مطلقة لا يتعين فيها المحال عليه، وعبارات مقيدة تحيل على معنى معين، وهي الفكرة نفسها التي يعرضها اللغويون في باب "إطلاق الألفاظ وتقييدها".^٣

وقد ميّز الأصوليون بين الدلالة الأصلية المطلقة التي تتقاسمها جميع اللغات، والدلالة التابعة الخاصة بلغة بعينها التي تقبل النقل والترجمة، وأجمعوا على أن موضوع الدراسات اللغوية دراسة خصائص البنية وعلاقتها بالمقامات المنجزة فيها،^٤ والمنهج التداولي بعامه أهمّ ما يُستند إليه في تقويم الدراسة التراثية؛ لما يتميز به من قواعد محددة، وشرائط مخصوصة وآليات صورية.^٥

وكانت عناية الأصوليين منصبّة على إبراز خصوصيات الإعجاز النصي، وكيفية تلقي المكلفين الآيات القرآنية بوصفها جملة من الأفعال القابلة للإنجاز والعمل، وهذا ما يوافق آراء المحدثين في كيفية تحويل القول اللساني إلى فعلٍ منجز حقيقة.^٦

كما ظهر عند الأصوليين مفهوم الاقتضاء، والمقصود به دلالة اللفظ على المسكوت عنه؛ إذ يتوقف صدق الكلام عليه، أو يمتنع، أو يستحيل فهمه إلا به،^٧ ويعرفه الغزالي بأنه "ما يكون من ضرورة اللفظ؛ إما من حيث إن المتكلم لا يكون صادقاً إلا به، أو من حيث يمتنع وجود الملفوظ شرعاً إلا به، أو من حيث يمتنع ثبوته عقلاً إلا

^١ انظر: عبد الغفار، السيد أحمد، التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط ١، ٢٠٠٧م)، ص ١١٣.

^٢ انظر: المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ص ٣٥.

^٣ انظر: أحمد بن فارس، الصحاح في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، حققه وقدم له: مصطفى الشومبي (بيروت: مؤسسة بدران، ١٩٦٣م)، ص ١٩٤.

^٤ انظر: المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ص ٨٧.

^٥ انظر: عبد الرحمن، طه، تجديد المنهج في تقويم التراث (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، د.ت)، ص ٢٣٧، وقد قال: "لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز من غيره من طرق معالجة المنقول؛ باستناده إلى شرائط مخصوصة، يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي، فضلاً عن استناده إلى آليات صورية محددة".

^٦ انظر: بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، ص ١١.

^٧ انظر: المرجع السابق، ص ١٢.

به"،^١ وبعبارة أخرى إن دلالة اللفظ على لازم المعنى يتوقف عليها صدق الكلام، أو صحته عقلاً أو شرعاً،^٢ ويُعدُّ هذان المفهومان من أهم مفاهيم التداولية المعاصرة التي تعبر عن قدرة المتكلم على أن يفهم أكثر مما يعلن عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة، ويفسر كثيراً من النصوص التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد.^٣

وقد ميّز الأصوليون دلالة الاقتضاء وفق قواعد فقهية مخصوصة؛ منها:

١. المبدأ العام القائل إن الأصل في الكلام الحقيقة؛^٤ إذ الأصل في الكلام أن يكون ملازماً للحقيقة، فلا يعدل إلى المجاز إلا إذا تعدّرت أو قامت قرينة تدل إلى خلاف ذلك، فاللغة وسيلة للإبانة، ولا يُتوصل إلى ذلك إلا بالحقيقة.

٢. قوانين تطور اللغة؛ إذ إن من طبيعة اللغة التغير والتطور، فقد تتحول دلالة الألفاظ إلى معانٍ حادثة تغير ما استقرت عليه في الاستعمال اللغوي الأول؛ لتصبح مصطلحات تدل على حقل معرفي مخصوص، فيصبح لفظ مدلولان لغوي، واصطلاحى عربي؛ أي استعمالان حقيقي، ومجازي، ولما كان الشارع نقل بعض الألفاظ من معانيها اللغوية الأصلية إلى معانٍ شرعية خاصة، وأنزل ألفاظاً أخرى على معانيها المتعارف عليها في عهد النزول؛ فقد أصبحت هذه المعاني الجديدة هي المعاني الحقيقية لتلك الألفاظ وانقلبت المعاني اللغوية الحقيقية مجازاً حُكماً.^٥

٣. أن الأصل في الكلام الوضوح، فلا تتم عملية الاتصال بين المتخاطبين إلا إذا كانت الرسالة اللغوية واضحة المعنى لا تحتاج إلى تأويل أو تقدير، "فلا يجوز إضافة لفظ أو تقدير معنى زيادة على نص الشارع، إلا إذا خرج النص عن المقصد، فيتوجب عند ذلك إضمار معنى، أو زيادة لفظ على النص؛ حتى تستقيم الرسالة الإبلغية"^٦، فالهدف من التواصل اللغوي تبليغ المعنى من المتخاطب إلى المتلقي.

والاقتضاء لدى الأصوليين يتكون من ثلاثة عناصر؛ هي:^٧

- **المُقْتَضَى:** الخطاب الذي يتطلب قصداً مضمراً ومقدماً على القصد الظاهري؛ لضرورة استقامة معناه.

- **المُقْتَضَى:** القصد الضروري المقدر مقدماً الذي يطلبه الخطاب لاستقامته.

١ الغزالي، محمد بن محمد، المستصفي في علم الأصول (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م)، ج ١، ص ١٩٤.

٢ انظر: السبكي، عبد الوهاب بن علي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تحقيق: علي محمد معوض (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٩٩)، ج ٣، ص ٤٨٦.

٣ انظر: حسين، وليد، "دلالة الاقتضاء عند الأصوليين في ضوء نظرية التضمين التخاطبي عند جرايس"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، المجلد ١، العدد ٢، ٢٠١٠م، ص ٢.

٤ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر في قواعد وأصول الفقه، تحقيق: محمد حسن محمد إسماعيل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٥م)، ج ١، ص ١٣٥.

٥ انظر: الرازي، محمد بن عمر، الحصول في علم أصول الفقه، تحقيق: جابر فياض العلواني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧٩م)، ج ١، ص ٢٨٦.

٦ البوسنوي، شكري حسين، تعارض ما يخل بالفهم وأثره في الأحكام الفقهية (جدة: دار الأندلس، ط ١، ٢٠٠٠م)، ص ٤٥.

٧ انظر: الدريني، محمد فتحي، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي (دمشق: الشركة المتحدة، ط ٢، ١٩٨٥م)، ص ٢٧٧.

- الاقتضاء: استدعاء القصد الظاهري نفسه لذلك المقدر لحاجته إليه.

وللمقتضى ثلاثة أقسام:

(أ) ما يتوقف عليه صدق المتكلم في مخاطبه، ومثاله قول الرسول ﷺ: ((رُفِعَ عَنِّي الخَطَأُ والنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيَّ))،^١ فالمعنى الظاهر من الحديث أنه لا يقع الخطأ والنسيان وما استكره عليه الناس في أمة محمد ﷺ، وهذا المعنى الظاهر مخالف الحقيقة بدليل وقوع هذه العوارض من الأمة؛ لانتفاء العصمة عن أفرادها قطعاً؛ أي إن ظاهر الخطاب يطلب قصداً مضمراً لا يُنصح عنه الملفوظ، وهو "الإثم" أو "الحكم"، وبتقدير أحدهما يتحقق هدف الخطاب، واستقامة صحة الكلام، وإلا ترتب عليه كذب المتكلم، وهو لا يتفق مع مبدأ الصدق الذي هو أصل من أصول التخاطب التي لا يحصل تخاطب ناجح من دون افتراضه.^٢

(ب) ما يتوقف عليه صدق المتكلم عقلاً، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]، فالمعنى الظاهر من هذا الخطاب يُقصد به إلى أن السؤال موجه إلى القرية ذات الأبنية والحجارة والعير، ولكن هذا المعنى منافٍ للعقل؛ لأن الأبنية والحجارة والدواب لا يمكن أن تجيب السائل؛ أي إن ظاهر الخطاب يطلب قصداً مضمراً لا يبين عنه القصد الملفوظ "أهل القرية" و"أصحاب الدواب"،^٣ وبتقديرهما يتحقق هدف الخطاب وصحة الكلام واستقامته وتحقق مبدأ الوضوح.

(ج) ما يتوقف عليه صحة الكلام شرعاً، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، فالخطاب موجه إلى المؤمنين على التعيين، ويبين في ظاهره على أن الحرمة تنسحب على الميتة والدم ولحم الخنزير، فدوات الدم والخنزير والميتة هي المقصودة بالتحريم في ظاهر الخطاب، وهذا المعنى الظاهر غير مقصود للشارع، ولا يتعلق بمواده؛ وذلك لأن التحريم والتحليل ليسا صفة للأعيان، ولا يتعلقان بالدوات في مراد الشارع، وإنما يتعلقان بالأفعال المقدرة للمكلفين وتصرفاتهم من دون ذواتهم؛ أي إن في الخطاب قصداً مضمراً لا يكشف عنه ظاهره بآية استحالة نسبة الحرمة إلى الدوات المذكورة، وإنما الحرمة معقودة بإحالة مضمرة تقتضي تحريم الفعل؛ أي الأكل.^٤ وما أن الأصوليين عنوا بدراسة اللغة في سياقها التواصلية، فقد أفادوا من مجمل التصورات اللسانية والبيانية التي صاغها النحاة وعلماء البيان والمعاني، وفي ميدان الخبر والإنشاء تحديداً تجلّت قدراتهم التحليلية المتميزة في الربط

١ محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت)، ج ١، ص ٢٠٢، الحديث ٧٢١٩.

٢ انظر: الدبوسي، عبيد الله بن عمر، تقويم الأدلة في أصول الفقه (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١م)، ص ١٣٦.

٣ انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة: دار الشعب، د.ت)، ج ٤، ص ٣٤٧٥.

٤ انظر: حسين، دلالة الاقتضاء عند الأصوليين، ص ١٤، وقد أورد بعض الالتقاء بين نظرية جرایس في التضمن التخاطبي ودلالة الاقتضاء عند الأصوليين؛ منها اعتماد جرایس على إعمال العقل في فهم التضمن التخاطبي، في حين اعتمد الأصوليون على إعمال العقل في فهم خطاب الله عز وجل وخطاب رسوله صلى الله عليه وسلم، كما أسس جرایس نظريته على مبدأ التعاون؛ أما الأصوليون فأروا أن الخطاب يتأسس على امتثال المكلفين لأوامر الشارع، وأن استخدام جرایس لقصد المخاطب يقترب من استخدام الأصوليين لدلالة المنطوق، وبلتقي جرایس والأصوليون في قسمة الدلالات، فهي عند جرایس تنقسم إلى دلالات عرفية وغيرها، وأما عند الأصوليين فتتقسم إلى دلالة منطوق صريح وغيره.

بين المقال ومكوناته بالمقام التخاطبي،^١ في ضوء مسألتين مركبتين في التفكير الأصولي لا تكاد تحيد عنها كتاباتهم التأسيسية للعلم؛ تتعلق أولاهما بمباحث الدلالة اللفظية وقضايا الدليل والاستدلال؛ إذ جاءت رؤيتهم العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفسر، والنص والظاهر، ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة؛ أكثر ثراءً وغنى من طرح سائر اللغويين لها، وأما الثانية فجملة من المسائل النحوية المتصلة بالدلالة التركيبية، وما يمكن عدّه نحوًا للمعاني.^٢ وقد أثمر التصور التداولي عند الأصوليين نظرية متكاملة في الخبر والإنشاء تتجاوز في كثير من طروحاتها التحديد المنطقي لنظرية أفعال الكلام الغربية المعاصرة، بعد تجاوز التصورات الشكلية في عمومها الذي قدمته نظرية النحو العربي التراثية، فالمعنى بحسب الأصوليين متعدد بتعدد السياقات، وطرق الإنجاز، وأشكال الصياغة، وكيفية التقبل عند السامع الذي يكون منه إدراك المقاصد والغايات التي قد يُظهرها الخطاب إظهارًا مباشرًا أو غيره.^٣

أسئلة ومراجعات

١. تناول بالشرح مظاهر التداولية لدى المفسرين في فقرتين اثنتين.
٢. قدم المفسرون وقفات أمام آيات قرآنية عكست تصوراتهم اللغوية؛ إن جمعت مع أفكار البلاغيين واللغويين وغيرهم؛ اقتربت بوضوح من رؤية اللسانيات التداولية الحديثة إلى اللغة بعدّها نشاطًا تداوليًا، في ضوء هذا؛ هات أمثلة تؤكد ذلك.
٣. كيف تربط بين ما لدى علماء القراءات القرآنية ودوره في إبراز الوجوه المختلفة في إعراب الآيات، وبين مظاهر التداولية الحديثة؟
٣. التزم علماء الحديث شروطًا خاصة في طرق أخذ الحديث الأصلية والفرعية ونقلها، للتدليل على تلك الدقة التي تكشف تلقي الحديث، فتميزه من حيث الصحة والضعف، وما يُستنبط من هذه التصورات أن عملية التلقي قائمة على أهم ركائز التداولية في اللسانيات الحديثة؛ بيّن هذه العلاقة بينهما.
٤. من مظاهر التداولية لدى الأصوليين اجتهادهم في بيان وظائف المتكلم والمخاطب في عملية التواصل؛ اربط هذا التوجه لديهم بتحليل الخطاب تداوليًا.
٥. ما القواعد التي ميّز الأصوليون بها دلالة الاقتضاء وفق القواعد الفقهية المخصصة؟
٦. للاقتضاء لدى الأصوليين ثلاثة عناصر؛ اذكرها.

المبحث الخامس

عناصر التداولية والإشارات

^١ انظر: صحراوي التداولية عند العلماء العرب، ص ١٣٣.

^٢ انظر: بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، ص ١٥.

^٣ انظر: السابق نفسه.

اللغة العربية كغيرها من اللغات لا تخلو من العناصر الإشارية، فهي ألفاظ تحمل معنى الإشارة من دون أن تدل على معين؛ لذا سميت "الإشارات"، وأُطلق عليها أحياناً اسم "المبهمات"،^١ ومجال دراسة الإشارات هو علم النحو الذي نشأ للحفاظ على هذه اللغة من تفشي اللحن والفساد فيها، والحفاظ على النص القرآني.

والإشارة مفهوم لساني يجمع كل العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام من حيث وجود الذات المتكلمة، أو الزمان، أو المكان؛ إذ ينجز الملفوظ الذي يرتبط به معناه،^٢ ومن ذلك الضمائر وأسماء الإشارة التي هي من العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي، فليس لها معنى في ذاتها على الرغم من ارتباطها بمرجع؛ لأنها غير ثابتة، ويتفق النحاة جميعاً على أن من الأسماء المبهمة أسماء الإشارة.^٣

والمرجعية تمثل توجه الخطاب وهويته، ومن دونها لا يمكن للمرسل إليه فهم الرسالة الخطابية، وكل عنصر من هذه العناصر لا يمكن فهمه خارج سياقه الخطابي، فهي عناصر ملازمة الخطاب، وفهمها شرط أساس في تفسيره وتأويله، وهي عناصر في المعجم الذهني من دون ارتباطها بمدلول ثابت، فلا يتضح مدلولها إلا عبر التلطف في الخطاب في سياق معين،^٤ وتعدُّ هذه المبهمات عاملاً رئيساً في تكوين بنية الخطاب؛ لأن لها دوراً مهماً في الإحالة على المعلومات،^٥ وكل فعل لغوي يكون ناجحاً إذا علم المخاطب قَصْدَ العبارة وإحالتها، وإذا كان للمتكلم غرضٌ ينبغي بموجبه أن يشكل المخاطب هذه المعرفة.^٦

ويرى ولفنسون أن التعبيرات الإشارية تذكير دائم للباحثين النظريين في علم اللغة بأن اللغة الطبيعية وُضعت أساساً للتواصل المباشر بين الناس وجهاً لوجه، وتظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنا ما تشير إليه، فيسود الغموض، ويستغلق الفهم، ومن ثمَّ؛ كانت النظريات الدلالية الشكلية عاجزة عن معالجة هذه الإشارات،^٧ وظهر بذلك علم الدلالة المقامي، وإدخال الجوانب السياقية في التفسير الدلالي، فأصبحت الإشارات مجالاً مشتركاً بين علم الدلالة والتداولية.

^١ بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، ص ٨٠.

^٢ انظر: الزناد، الأزهر، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصّاً (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٣م)، ص ١١٦.

^٣ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٦٤.

^٤ انظر: المرجع السابق، ص ٧٩.

^٥ انظر: أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش (القاهرة: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٧م)، ص ٤.

^٦ انظر: دايك، فان، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني (الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م)، ص ٢٦٦.

^٧ انظر: نخلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (القاهرة: دار المعرفة الجديدة، ٢٠٠٢م)، ص ١٦.

Levinson, S.C. (1992) Deixis, in : Bright. W (ed) 1992. International Encyclopedia of Linguistics. Oxford University Press. P.344.

وتوزع الإشارات على خمسة أنواع؛ هي إشارات شخصية، وإشارات زمانية، وإشارات مكانية، وإشارات اجتماعية، وإشارات خطابية أو نصية.^١

أولاً: الإشارات الشخصية

تتجلى بخاصة في ضمائر الشخص الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب، وبما أن هذه الضمائر ظواهر لسانية تسهم في إنجاز العملية التواصلية؛ فستصبح مجرد فواعل نحوية إذا عُزلت عن مرجعيتها التي تمنحها بُعدها التداولي داخل الخطاب؛ لذا كانت أي إشارة إليها في هذا الميدان تتطلب البحث في مرجعيتها، وبمجرد التلفظ بمثل هذه الملفوظات تكون العملية التواصلية حينها أخذت بُعداً تداولياً؛ لما بين المتخاطبين من خبرات خاصة تحيل على الأبعاد الاجتماعية والثقافية والفكرية التي تُعدُّ قواسم مشتركة بينهما، وهذا ما يفسر قول التداوليين إن هذه المبهمات لا تحيل على أشياء موضوعية في العالم، أو الزمان، والمكان؛ بقدر ما تحيل على الخطاب ذاته، وتكون خارج هذا الإطار فارغة من أي دلالة.^٢

ولفظة (الضمير) لغةً تدلُّ على السر والإخفاء؛ قال الفيروز آبادي: "الضمير العنب الذابل، والسر داخل الخاطر، وأضمره أخفاه"،^٣ وقال ابن منظور: "الضمير السر داخل الخاطر، والاسم ضمير، والجمع ضمائر".^٤ والضمير والمضمر، والكناية والمكنى اصطلاحاً؛ مصطلحات للدلالة على أسماء مبنية دالة على المتكلم نحو: أنا، والمخاطب نحو: أنت، والغائب نحو: هو، والمخاطب تارة والغائب أخرى؛ نحو الألف والواو والنون في مثل: اسجدوا، ويسجدان، اسجدوا ويسجدون، اسجدن ويسجدن.^٥

والغرض من استعمال ألفاظ الضمائر هو الاختصار والإيجاز؛ لأننا نستغني بها عن تكرار اسم أو جملة، فإذا قلنا مثلاً: علي رأيت، فقد استثنيت بالضمير المتصل في الفعل (رأى) عن تكرير (علي). وتتفرع الضمائر في العربية حسب الحضور في المقام أو الغياب - أي حسب مشاركة الأشخاص المشار إليهم في عملية التلفظ أو غيابهم عنها - إلى فرعين كبيرين متقابلين؛ هما ضمائر الحضور، وضمائر الغياب؛ ثم تتفرع ضمائر الحضور إلى متكلم هو مركز المقام الإشاري، وهو الباث، ومخاطب يقابله في ذلك المقام، ويشاركة فيه، وهو المتقبل، وكل مجموعة منهما تنقسم بدورها حسب الجنس والعدد إلى أقسامهما المعروفة.^٦

^١ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ١٧.

^٢ انظر: بلخير، عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية (الجزائر: منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٣م)، ص ٩٦.

^٣ انظر: الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، إعداد: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ٢٠٠٣م)، مادة (ضمير).

^٤ انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ)، مادة (ضمير).

^٥ انظر: نهر، هادي، النحو التطبيقي (عمان: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٨م)، ج ١، ص ٤٠.

^٦ انظر: الزناد، نسيح النص، ص ١١٧؛ الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٦٤.

وأوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص هي ضمائر الحاضر، والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده، نحو: أنا، والمتكلم معه غيره، نحو: نحن، وهي دائماً عناصر إشارية؛ لأن مرجعها يعتمد اعتماداً تاماً على السياق الذي تُستخدم فيه.

أما ضمير الغائب فيدخل في الإشارات إذا كان حرّاً؛ أي لا يُعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عُرف مرجعه خرج من الإشارات، ولا يدخل في الإشارات الضمير غير الشخصي نحو (It rains) في الإنجليزية، فليس ضميراً حقيقياً (true pronoun) يشير إلى بعض الموجودات، وإنما هو في الحقيقة جذر نحوي (صرفية نحوية) شاغل موقعاً تتطلبه قواعد التركيب الإنجليزي.^١

وينبغي للإشارات أن تكون محددة المرجع بتحقق العلاقة الوجودية بين العلامة وما تدل عليه، ويدخل في الإشارة إلى الشخص النداء، وهو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتنبهه أو توجيهه أو استدعائه، وليست مدحجة فيما يليها من كلام، وإنما تنفصل عنه بتنغيم يميزها، وظاهر أن النداء لا يُفهم إلا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه.^٢

ثانياً: الإشارات الزمانية

كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التلفظ، فإذا لم يُعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية؛ التبس ذلك على السامع أو القارئ،^٣ فقولك بعد أسبوع؛ يختلف مرجعه إذا قلته اليوم أو بعد شهر أو سنة، فزمان التكلم وسياقه يحددان المقصود من الخطاب، ومثل ذلك كلمات: أمس، وغداً، والآن، والأسبوع الماضي ويوم الجمعة، والسنة المقبلة، ومنذ شهر... إلخ، فهي كلها لا يتضح معناها إلا بالإشارة إلى زمان بعينه بالقياس إلى زمان التكلم.

وقد تستغرق الإحالة إلى الزمن المدة الزمنية كلها؛ كأن يقال: اليوم الإثنين، وقد تستغرق مدة محددة من الزمان، كأن يقال: ضرب زيدٌ عمرًا يوم الخميس، فضربه إياه لا يستغرق يوم الخميس، وإنما يقع في جزء منه. وقد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان، فيتجاوز الزمان المحدد له عرفاً إلى زمان أوسع، فكلمة (اليوم) في قولنا: بنات اليوم؛ تشمل العصر الذي نعيش فيه، ولا يتحدد بيوم مدته أربع وعشرون ساعة، وإنما يُفهم (اليوم) حسب السياق الذي ورد فيه.

والعناصر الإشارية قد تكون دالة على الزمان الكوني الذي يفترض سلفاً تقسيمه إلى فصول وسنوات وأشهر وأيام وساعات... إلخ، وقد تكون دالة على الزمان النحوي، وقد يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمان النحوي عن الزمان الكوني، فُستخدم صيغة الحال للدلالة على الماضي،^٤ وصيغة الماضي للدلالة على الاستقبال،

^١ انظر: حلّة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ١٧-١٨.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ١٩.

^٣ انظر: أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ٤٢.

^٤ انظر: المرجع السابق، ص ٢١.

فينشأ بينهما خلاف لا تحلّه إلا معرفة سياق الكلام ومرجع الإشارة، فالزمن النحوي لا يطابق الزمان الكوني في كثير من أنواع الاستعمال.^١

ثالثاً: الإشارات المكانية

تشير إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم ووقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قريباً أو بُعداً أو وجهةً، ويستحيل تفسير كلمات من مثل: هذا، وذاك، وهنا، وهناك، وسائر ظروف المكان من مثل: فوق، وتحت، وأمام، وخلف؛ إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه.^٢

وعلاقة المكان بالمرجعية هي الحديث عن السياق الذي يجري فيه الكلام، فالدلالة المرجعية لا تتجلى إلا في النقطة المرجعية في الفضاء الذي يُجز في الكلام، فإذا كان إسهام الإشارات الزمنية في الخطاب يبدو عبر دلالتها على لحظة التلفظ؛ فإنها تحدد مواقع الانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بعامة انطلاقاً من التسمية أو الوصف أو التحديد،^٣ ومثاله (أل) التعريف التي تدخل في العناصر الإشارية؛ لأنها تقوم بالوظيفة التي يقوم بها اسم الإشارة، والفرق بينهما أن اسم الإشارة يدل عليها بالدلالة على القرب والبعد، أما (أل) فغير ذلك؛ لأن التعريف بذاته مفهوم إشاري، وقد تنقل عناصر الإشارة إلى المكان للإشارة إلى ما يسمى "المسافة العاطفية"، وتسمى عندئذٍ "الإشارة الوجدانية"، وهو ما يسمى في علم المعاني "التحقير بالقرب"،^٤ كقوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]،^٥ و"التعظيم بالبعد"، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢-١].

رابعاً: الإشارات الاجتماعية

الفاظ وتراكيب تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية أو غيرها؛ أي علاقة صداقة أو ألفة، والعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنّاً ومقاماً من المتكلم،

١ انظر: قاسم، حسام أحمد، تحويلات الطلب ومحددات الدلالة (القاهرة: دار الآفاق العربية، ط ١، ٢٠٠٧م)، ص ٣٥٩، ومن دلالة التعبير عن زمن باستخدام آخر؛ التعبير عن المستقبل بالماضي في نحو: ﴿أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ونحو: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، عند من قال إنه سينشق، وذلك للدلالة على حتمية الوقوع، فكأنه وقع بالفعل؛ انظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج ٣، ص ١٩٨.

٢ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٢١.

٣ انظر: الشهري، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجية الخطاب: مقارنة لغوية تداولية (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط ١، ٢٠٠٤م)، ص ٨٤.

٤ انظر: الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت)، ص ٦٢.

٥ ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكَّرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما، فتشمل الألقاب من مثل: فخامة الرئيس، وجمالة الملك، وسمو الأمير، والإمام الأكبر، وفضيلة الشيخ، والسيد، والسيدة، أما العلاقة غير الرسمية فتشمل النداء بالاسم المجرد. ومسألة تحديد نوع العلاقة الاجتماعية بين أطراف الخطاب مسألة نسبية تختلف من موقف إلى آخر، ومن حيث قرب الأطراف أو بُعدها، وةسواء أكان القرب أو البُعد مادياً، أم اجتماعياً، أم نفسياً.^١ وكذلك ثمة دلالات للإشارة الاجتماعية في دلالة استخدام بعض الألفاظ على طبقة اجتماعية بعينها، كاستعمال: حامل، وحبلى، وكنيف، ومرحاض، ودورة مياه، وحمام، وتواليت، ومنها استخدام: عقيلته، وقرينته، وحرمه، وزوجه، وامراته،^٢ والإشارات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي.^٣

خامساً: إشارات الخطاب

قد تتشابه إشارات الخطاب بالإحالة إلى سابق أو لاحق؛ ولكن الإحالة يتحد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يحيل عليه من مثل: زيدٌ كريمٌ وهو ابن كرام أيضاً، فالمرجع الذي يعود إليه (زيد) و(هو) واحد، أما إشارات الخطاب فلا تحيل على المرجع ذاته، وإنما تخلق المرجع، فإذا كنت تروي قصة، ثم ذكرتك بقصة أخرى؛ فقد تشير إليها، ثم تتوقف قائلاً: لكن تلك قصة أخرى، فالإشارة هنا إلى مرجع جديد، على أن هذا التمييز بين إشارات النص والإحالة على عنصر فيه؛ ليس حاسماً، وذلك لأن الإحالة في قصارها ضربٌ من إشارات النص، أو هي أساس فيها، وقد تُستعار إشارات الزمان والمكان لتستخدم للخطاب، فكما يُقال: الأسبوع الماضي؛ يمكن أن يقال: الفصل الماضي من الكتاب، أو الرأي السابق، وقد يقال: هذا النص للإشارة على نص قريب، أو تلك القصة إشارة إلى قصة بُعد بها القول.

وهناك إشارات للخطاب تُعدُّ من خواص الخطاب، وتتمثل في العبارات التي تُذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم، فقد يتحير في ترجيح رأي على رأي، أو الوصول إلى مقطع اليقين في مناقشة ما، فيقول: ومهما يكن من أمر، وقد يحتاج أن يستدرك على كلام سابق، أو يضرب عنه، فيستخدم: لكن، وبل، وقد يعنُّ له أن يضيف إلى ما قال شيئاً آخر، فيقول: فضلاً عن ذلك، وقد يعتمد إلى تضعيف رأي، فيذكره بصيغة: قيل، وقد يريد أن يرتب شيئاً على آخر، فيقول: ومن ثم... إلخ، وهذه كلها إشارات خطابية.^٤

^١ انظر: أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ٤٢.

^٢ انظر: عمر، علم الدلالة، ص ٧١.

^٣ انظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٢٦.

^٤ انظر: المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥.

أسئلة ومراجعات

١. مجال دراسة الإشارات هو علم النحو الذي نشأ للحفاظ على هذه اللغة من تفشي اللحن والفساد فيها والحفاظ على النص القرآني؛ اشرح هذه العبارة.
٢. تتجلى الإشارات الشخصية بخاصة في ضمائر الشخص الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب؛ هات أمثلة تؤكد ذلك.
٣. ما أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص؟
٤. وضح الإشارات الزمانية المتعلقة بالسامع أو القارئ.
٥. اربط الإشارات المكانية بالمخاطب أو السامع.
٦. بين نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين في الإشارات الاجتماعية.
٧. قد تتشابه إشارات الخطاب بالإحالة على سابق أو لاحق، ولكن الإحالة يتحد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يحيل عليه؛ هات أمثلة من التراث القديم.

المبحث السادس

المفارقة اللغوية

أولاً: مفهوم المفارقة لغة واصطلاحاً

المفارقة مصطلح غربي لم تعرفه العربية، ولم يدخل دراساتها إلا من وقت قريب عبر الترجمة، فهو مصطلح غامض شائك يثير الالتباس، وقد وردت في الأدبيات الأجنبية مترادفات عدة تعنيه (Irony, Paradox, Sarcasm)، ونجد صعوبة في تحديد الكلمة المناسبة للمصطلح (Irony)، فقد تُرجم في العربية إلى عدة معانٍ، منها التهكم، والسخرية، وغيرها.

والمفارقة فيها معنى الازدواجية في الاستماع من المخاطب الذي يُدرك أن ظاهر اللفظ لا يصلح له معنى وفق السياق الذي وردت فيه؛ أي إن لهذا التعبير معنى مناقضاً معناه الحرفي المعجمي.^١

^١ انظر: علي، عاصم شحادة، "المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي: دراسة في بنية الدلالة"، مجلة الأثر، العدد ١٠، الجزائر.

ومصطلح (Irony) مشتق من الكلمة اللاتينية (Ironia) التي تعني "التخفي تحت مظهر مخادع"، و"التظاهر بالجهل عن قصد"،^١ وهي عند ميوك "قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيراً واحداً، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المتغايرة".^٢

وفي النقد العربي نجد للمفارقة عدة تعريفات؛ منها أنها تعبير لغوي بلاغي يركز إلى العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية،^٣ ومنها أنها أداة أسلوبية مؤثرة للتهكم والاستهزاء.^٤ فالمفارقة صيغة تعبيرية تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع؛ أي إن المخاطب يدرك في التعبير المنطوق معنى عرفياً يكمن فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى يدرك أن هذا المنطوق في هذا السياق تحديداً لا يصلح معه أن يؤخذ على قيمته السطحية، فهذا المنطوق يرمي إلى معنى آخر يحدده الموقف التبليغي، وهو معنى مناقض عادةً هذا المعنى العرفي الحرفي.

والمفارقة نوع من التضاد بين المعنى المباشر المنطوق والمعنى غير المباشر،^٥ وهي أسلوب في يستخدمه الشاعر المعاصر؛ لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض،^٦ وهي فن بلاغي لم يعرفه بلغاء العرب على هذا النحو من التحديث الحديث له، وإن كانوا قد أحسوا بخصوصية الكلام الذي يراوغ ويهرب من تحديد المعنى، أو يقول شيئاً، ويعني شيئاً آخر، ومن هنا كان كلامهم على التهكم، والسخرية، ولطائف القول، والمدح بما يشبه الذم، إلى غير ذلك من الفنون البيانية التي تقوم على التلاعب باللغة بخاصة.^٧ وقد تعددت أشكال المفارقة، فمنها الدرامية، والرومانسية، والسقراطية، والبنائية، ومفارقة السلوك الحركي، ومفارقة النغمة.^٨

والمفارقة نوعان رئيسان؛ هما:^٩

- المفارقة اللفظية: يكون فيها المعنى الظاهري واضحاً، ولا يتسم بالغموض، وهي ذات قوة دلالية مؤثرة، وكثيراً ما يكون المعنى فيها هجومياً، وبخاصة في شعر الهجاء، ويتعمدها المتكلم ويخطط لها عبر التضاد بين المظهر والمخبر.

¹ The Shorter Oxford English Dictionary on Historical Principles, Prepared By William little, H. W. Fowler, J. Coulson, Revised and Edited by C.T. Onios, Oxford, At the Clarendon Press, Third Edition , 1975, P1113.

² انظر: ميوك، د. سي، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة (بيروت: المؤسسة العربية، ط١، ١٩٩٣م)، ص٤٤، ص٢٧.

³ انظر: شوقي، سعيد، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية (القاهرة: دار إيتراك، ط١، ٢٠٠١م)، ص٢٧.

⁴ انظر: العبد، محمد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة (القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٤م)، ص١٨.

⁵ انظر: المرجع السابق، ص١٥.

⁶ انظر: زايد، علي عشيري، بناء القصيدة العربية الحديثة (الكويت: مكتبة دار العروبة، د.ت)، ص١٤٧.

⁷ انظر: يوسف، حسني عبد الجليل، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي (القاهرة: الدار الثقافية، ط١، ٢٠٠١م)، ص١٢.

⁸ انظر: قاسم، سيزا، "المفارقة في القص العربي المعاصر"، مجلة فصول، القاهرة، المجلد ٢، العدد ٢، يناير/مارس ١٩٨٢م.

⁹ انظر على الشابكة: جاب الله، أسامة عبد العزيز، "جماليات المفارقة النصية: قراءة بدائية في ديوان (مجروح قوي) محمد صبحي"، موقع ديوان العرب، المطالعة في ٨ مايو ٢٠١٧.

- المفارقة السياقية: ليس فيها صاحب مفارقة، وإنما هناك ضحية أو مراقب، وتعتمد على حسن المتكلم الذي يرى به الأشياء والأحداث من حوله، وتصويرها بمنظور المفارقة، ويترك للمخاطب تحليلها واستنباط أبعادها الفلسفية والشعورية، وكشف خيوط تعارضها.

واختلاف بين المفارقتين اللفظية والسياقية في أن الأولى تعتمد في كشف حقيقتها أولاً على المخاطب، أما الثانية فتعتمد على المخاطب في استنباط التعارض بين المعنى الظاهري والخفي،^١ فالمفارقة اللغوية تكشف عن عنصر الإخفاء، وحقيقة أن المتخفي في التعبير المنطوق هو المقصود إظهاره.^٢

وفي العربية مرادفات للمفارقة في كثير من أنواع التعبير الفني؛ منها المجاز المرسل، والمجاز الاستعاري، والاستعارة، والتمثيل، والمثل، والكناية، والتعريض، والتلويح، والتورية، والتوجيه، والرمز، والإيماء، والتلميح، واللمز، والغمز، والإيماء، والوحي، والأحجية، والإشارة، والتضاد، والطباق، والمقابلة، والتهكم، والسخرية، والاستهزاء، والازدراء، والهجاء، والإثبات بالنفي، والنكته، والفكاهة، والمزاح، والمبالغة، والتفخيم، والانقلاب، وتجاهل العارف، وسوق المعلوم مساق غيره، والتشكك، والمدح بما يشبه الذم، والذم بما يشبه المدح، والجد في موقف الهزل، والهزل في موقف الجد، والكذب، وتخفيف القول، وتضخيم القول.^٣

ولا بُدَّ لهذا المفهوم من أن تتوفر فيه أربعة عناصر في نصه، وعنصر من فهمه؛ ليتوافق مع معطيات تعريف

المفارقة التي هي:^٤

١. ازدواج المعنى:

ازدواج المعنى عبارة تحتمل تأويلين، ولإقامة المفارقة لا بُدَّ من مستويين للمعنى في التعبير الواحد؛ المستوى السطحي للكلام على نحو ما يُعبر به، والمستوى الكامن الذي يُعبر عنه، وعليه؛ تفترض المفارقة في المخاطب ازدواج الاستماع؛ أي إن المخاطب يدرك في التعبير المنطوق معنى عرفياً يكمن فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى يدرك أن هذا المنطوق في هذا السياق تحديداً لا يصلح معه أن يؤخذ على قيمته السطحية، ومن ثمَّ؛ يُلحَّ القارئ لاكتشافه إثر إحساسه بتضارب الكلام.

١ انظر: السابق نفسه.

٢ انظر: العبد، المفارقة القرآنية، ص ١٧.

٣ انظر: شوقي، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، ص ٣٥.

٤ انظر: علي، المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي، ص ٤.

وإقامة عنصر ازدواج المعنى في مكونات بناء المفارقة يتطلب أن يجعل فنوناً أخرى تطلبه منها؛ كالمجاز والاستعارة، والكناية، ومعنى المعنى عند الجرجاني، واللمز وغيره من الفنون؛ لأنها مستويات للمعنى؛ سطحياً كان أم عميقاً، خلافاً للأسلوب الحقيقي الذي يحيل على مستوى ظاهري واحد.^١

٢. تنافر الإدراك:

أن تكون العلاقة بين المستويين اللفظي والعميق على أساس التضاد، وبذا يخرج من ساحة المفارقات مصطلحات كالمجاز، والاستعارة، والتمثيل، والمثل، والكناية، والتعريض، والتورية، والتوجيه، والتلويح، والوحي، واللغز، والأحجية، ومعنى المعنى، وغيرها من العناصر التي لها تراكيب خاصة بينها.

ويشترط في التضاد أن يكون من النوع المتدرج،^٢ بأن تعبر الكلمة الواحدة عن معنيين بينهما علاقة، ويرتبط بالتضاد التقابل، والتعريض، والكذب، والإثبات بالعكس، وذلك لأن فنون القول المجازية - وإن كانت تعتمد في بنائها على توليد الدلالة المجازية من خلال الاحتكاك بين مستويين - لا تعتمد في جوهرها على أن يكون المستويان في حالة تضاد، وهذا ما تحدث عنه سيرل حين فرّق بين أشكال القول في تقسيمه الأفعال الكلامية إلى مباشرة وغيرها في عملية الاتصال التداولي.^٣

٣. خداع الأداء:

لتنجح المفارقة في تحقيق التنافر حين الانتقال بين المستويين؛ لا بُدَّ من أن تسلك طريق الخداع، وذلك من خلال وظيفتين هما:

(أ) **المراوغة:** مفارقة لغوية يتمثل عملها في استخدام صانعها كل الحيل اللغوية الممكنة بأسلوب المراوغة، وهو نوع من أنواع اللعب الذهني، وتكون عندما تتعمد شيئاً وتعني شيئاً آخر تماماً، وعندما تثبت حقيقة ثم ما تلبث أن تلغيها، ويحدث ذلك من خلال المهارة الفائقة في تحريك اللغة.^٤

^١ انظر: شوقي، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، ص ٣٨.

^٢ هناك ما يسمى "التضاد الحاد" أو "التضاد غير المدرج"، مثل: مَيّت حي، ذكر أنثى، وهذه المتضادات تقسم عالم الكلام بحسم من دون الاعتراف بدرجات أقل أو أكثر، ونفي أحد عضوي التقابل يعني الاعتراف بالآخر، وهناك ما يسمى "التضاد المتدرج"، ويقع بين نهمايتين لمعيار متدرج أو بين أزواج من المتضادات الداخلية، وإنكار أحد عضوي التقابل لا يعني الاعتراف بالعضو الآخر؛ أي إن شيئاً ربما لا ينطبق عليه أحدهما؛ إذ بينهما وسط، فقولنا: الحساء ليس ساخناً؛ لا يعني الاعتراف بأنه بارد، وهذا النوع من التضاد نسبي، فقولنا: الحساء ساخن، يعني أنه ساخن بالنسبة إلى درجة الحرارة المعينة للحساء؛ انظر: عمر، علم الدلالة، ص ١٠٢.

^٣ الأفعال غير المباشرة ينتقل فيها المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي، وهي أفعال تحتاج إلى تأويل لإظهار قصدها الإنجازي، كاستعارة، والكناية؛ إذ تجيز المستمع من الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسند المتكلم إلى قوله؛ انظر: دلاش، الجليلي، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ترجمة: محمد يحياتن (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت)، ص ٢٩.

^٤ انظر: شوقي، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، ص ٥٦.

(ب) **المغافلة:** مفارقة الموقف، ويتمثل عملها في إضفاء صفة الغفلة على الشخصوس التي تنخرط في أداؤها، وهي وظيفة تفيد معنى الخداع، ويلجأ إليها كتاب المسرح، وذلك يعود إلى أسباب فنية من التعبير الاستعاري والأحداث اللغوية غير المباشرة مع ما بينها من فروق واختلافات، من مثل الانتقال من الآلية والمباشرة والحرفية إلى الحركية والتعبيرية وشد عرا الخطاب.

٤. ضحية الأثر:

يُبنى نصُّ المفارقة بتقديم ضحية الأثر، وذلك بتوفر شيئين؛ أولهما حيز لضحية أثر المفارقة، وثانيهما طريقة للتأثير في حيز ضحية الأثر، وذلك لتنجح المستويات الثلاثة في أداء فعل ينال من حيزه في سبيل بناء المفارقة، ولا بُدَّ لها من أن تعيد صقل فنون القول؛ السخرية، والهجاء، والنكته، والضحك، والمبالغة، والتقليد الساخر، وتخفيف القول، وتضخيمه؛ على طريقتها الخاصة في أداء فعلها.^١

٥. الذات المفارقة:

ليس للعمل الأدبي وجود إلا عبر قارئ، ومن ثمَّ؛ تكون عملية القراءة هي التشكيل الجديد لواقع مشكّل من قبل العمل الأدبي نفسه، وتقوم المفارقة بوظائف متنوعة؛ منها دعوة القارئ إلى ربط نفسه بها، وذلك لتفسيرها تفسيراً مقبولاً، وفهم النص وتركيبه، وهي عبارة خاصة للعلاقة بين المقال والمقام، وعامل من عوامل التطور الدلالي للغة.

مما سبق نستنتج أن للمفارقة اللغوية علاقة بالتداولية من حيث ارتباطها بفهم المقصود من المعنى المراد، فالمفارقة تتصف بعنصر إخفاء المعنى الحقيقي، فقد تكون تعبيراً غير مباشر على سبيل التهكم، أو السخرية، أو التعريض، وعلى المتلقي البحث والتفكير؛ لفهم المعنى المتخفي من وراء قصد المتكلم، ولا يفهم المنطوق من معناه الظاهر فقط، وإنما ينبغي له أن يدرك المعنى الخفي، وهذا يتفق مع نظرية الحدث الكلامي من حيث المعنى المباشر وغيره، فالمعنى المباشر أن يلفظ المتكلم الكلام ويقصد ما يقوله تماماً، والمعنى غير المباشر أن للمتكلم معنى مستتراً للمنطوق من دون أن يصرح به للمتلقي، ولتحقق نجاح التواصل التداولي لا بُدَّ له من تحقُّق مبدأ التعاون، وذلك من أجل وضوح المعنى والمقصد، وقد يلجأ المتكلم عمداً إلى خرق المبدأ التعاوني لحاجة في نفسه يريد إيصالها إلى المتلقي؛ لذا يتقصّد في خطابه استخدام أسلوب المفارقة بأن يلمّح إلى المستمع معنى لا يُصرح به في ظاهر خطابه، وإنما يكون ظاهر الكلام مغايراً ما يقتضيه المتكلم من السامع إبلاغه.

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٧٧.

ثانيًا: الافتراض السابق

يذهب براون ويول إلى أن المعرفة التي نملكها مستعملين اللغة، وتعلق بالتفاعل الاجتماعي بواسطة اللغة؛ ليست إلا جزءًا من معرفتنا الاجتماعية الثقافية، وهذه المعرفة العامة للعالم لا تدعم تأويلنا الخطاب فقط، وإنما تدعم أيضًا تأويلنا كل مظاهر تجربتنا، فالإنسان يملك معرفة موسوعية قابلة للتزايد والنمو تبعًا لتجاربه في الزمان والمكان.^١ وينطلق المتخاطبون عند كل عملية من عمليات التبليغ من معطيات أساس معترف بها معروفة، وهذه الافتراضات السابقة (Presupposition) لا يُصرح بها المتكلمون، وإنما تشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية التواصلية، وهي متضمنة في القول سواء تُلْفِظَ بهذا القول إثباتًا أم نفيًا.

وقد برزت دراسة الافتراض السابق بداية الثمانينيات من القرن الماضي عندما بدأت الشروحات التداولية تؤخذ جدًّا بدائل للشروحات الدلالية في دراسة المعنى، ومن الناحية التاريخية؛ يرتبط الافتراض المسبق بأعمال الفيلسوف ستراوسن الذي أعاد تقديم المفهوم الذي طرحه العالم فريج؛ إذ بدأ الموضوع بوصفه مسألة تتعلق بعلم الدلالة المعتمد على شروط الحقيقة، فعندما نطق جملة من مثل: يعرف عمر أن الأرض كوكب شمسي؛ نفترض مسبقًا أن الأرض كوكب شمسي.^٢

والافتراض المسبق نمطٌ من متضمنات القول، وهو مفهوم إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب،^٣ فيوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس ما يفترض سلفًا أنه معلوم له، فإذا قال رجل لآخر: أغلق النافذة، فالمفترض سلفًا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مسوعًا يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وأن المتكلم في منزلة الأمر، وكل ذلك موصول بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب.^٤

والنمط الثاني من متضمنات القول هو الأقوال المضمرة، وترتبط بوضعية الخطاب ومقامه؛ على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية، ومثاله: إن السماء ممطرة، فإن سامع هذا الملفوظ قد يعتقد أن القائل أراد أن يدعوه إلى المكوث في بيته، أو الإسراع إلى عمله؛ لئلا يفوته الموعد، أو ينتظر حتى يتوقف المطر، أو ينسى مظلته عند الخروج، وقائمة التأويلات مفتوحة مع كثرة السياقات والطبقات المقامية التي يُنجز ضمنها الخطاب، فالأقوال المضمرة وليد السياق الكلامي، بينما الافتراض المسبق وليد ملابسات الخطاب.^٥

^١ انظر: خطاي، محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠م)، ص٣١١.
Brown, G. and George Yule. (1983). *Discourse Analysis*. C.U.P. London P233.

^٢ انظر: دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص٢٦.

^٣ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص٣٠.

^٤ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٦.

^٥ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص٣٢.

وفي دراسة الافتراض السابق؛ يلزم التمييز بين الاستعمال العام للفظ الافتراض السابق في لغة الحياة اليومية، والاستعمال الاصطلاحي في الدرس التداولي الذي هو أصبغ من الاستعمال العام، فمن الاستعمال العام أن يقال مثلاً: كتب زيدٌ رسالةً إلى عمرو، فيفترض السامع سلفاً أن (عمراً) يقرأ، وأما الاستعمال الاصطلاحي فمقيد باستدلالات تداولية بعينها تحملها تعبيرات لغوية معينة، ويمكن الوصول إليه ببعض الاختبارات اللغوية.^١

- وقد ميّز بعض الباحثين في العقد السابع من القرن العشرين الميلادي بين نوعين من الافتراض السابق؛ هما:
- الافتراض المنطقي أو الدلالي: مشروط بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت (أ) صادقة كان من اللازم أن (ب) صادقة، فإذا قلنا مثلاً: إن المرأة التي تزوجها زيدٌ كانت أرملة، وكان هذا القول صادقاً؛ أي مطابقاً الواقع؛ لزم أن يكون القول: زيد تزوج أرملة؛ صادقاً أيضاً؛ إذ إنه مفترض سلفاً.
 - الافتراض التداولي: لا صلة له بالصدق والكذب، فالقضية الأساس يمكن أن تُنفي من دون أن يؤثر ذلك في الافتراض السابق، فإذا قلت مثلاً: سيارتي جديدة، ثم قلت: سيارتي ليست جديدة، فعلى الرغم من التناقض في القولين؛ لا يزال قائماً في الحالين الافتراض السابق، وهو أن لك سيارة.^٢

وميّز الباحثون أيضاً بين الافتراض الدلالي السابق والافتضاء الذي هو علاقة بين جملتين أو قضيتين صدق أولاهما من صدق الثانية، فإذا كانت الجملة: أرى حصاناً؛ صادقة؛ لزم أن تكون الجملة: أرى حيواناً؛ صادقة أيضاً، فلا نستطيع قبول الأولى ورفض الثانية.

وقد أصبح الافتضاء في الدراسات الدلالية المتأخرة مقابلاً الافتراض الدلالي السابق على أساس من أن كذب إحدى الجملتين يؤدي إلى نتيجة مختلفة، فإذا كان قولك: أرى حصاناً كاذباً؛ فإن مفهوم الافتضاء يوجب أن يكون قولك: أرى حيواناً؛ إما صادقاً، وإما كاذباً، ولكن مفهوم الافتراض الدلالي السابق يقتضي أنه إذا كانت الجملة الأولى كاذبة؛ فإن الثانية صادقة، فقولك مثلاً: توقّف زيدٌ عن ضربِ عمرو؛ يفترض سلفاً أن (زيداً) كان يضربُ (عمراً)، وتظل هذه الجمل صادقاً إن كذبت الأولى، وظاهر الالتباس بين المفهومين لا يكون إلا في الجمل الخبرية المثبتة، فالافتضاء مقيد بها، في حين أن الافتراض السابق لا يتقيد بذلك، فضلاً عن أنه قد يكون إنشاءً، أو أمراً، أو استفهاماً، أو تعجباً، أو غير ذلك.^٣

وقد يرتبط الافتراض السابق بألفاظ وتراكيب تدل عليه، فقولنا مثلاً: زيد أُغتيل سنة ١٩٨٧م، يتضمن افتراضاً سابقاً بأن (زيداً) كان شخصية مبرزة؛ بسبب من الفعل (اغتيال)، ولا يتحقق هذا الافتراض في قولنا مثلاً: زيدٌ قُتل سنة ١٩٨٧م.

^١ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٢٨، ومن أمثلة الاستعمال الاصطلاحي للافتراض السابق في أن بعض وكلاء النيابة والمحامين يستخدمون هذه الخاصية في استجواب المتهمين والشهود، فإذا سأل وكيل النيابة المتهم: وأين كنت تبيع الكوكابين؟ فذكر المتهم مكاناً ما؛ ثبتت عليه التهمة؛ لأن تحديد مكان لبيعه يتضمن افتراضاً سابقاً بالمتاجرة به.

^٢ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٢٨-٢٩.

^٣ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٢٩-٣٠.

ومثله قولنا: هل توقفت عن التدرب على المصارعة؟ يتضمن افتراضاً سابقاً بأن المخاطب كان يتدرب على المصارعة؛ بسبب من الفعل (توقفت)، ولا يتحقق هذا الافتراض في قولنا: هل حاولت أن تتدرب على المصارعة؟ وأيضاً قولنا: لم يتمكن أحد من حمل الصخرة حتى زيد؛ يتضمن افتراضاً سابقاً بأن (زيداً) أقوى من غيره ممن حاولوا حمل الصخرة وأشد، أو أنه متميز من دونهم بقدرته على رفع الأثقال؛ بسبب من حرف العطف (زيد)، ولا يتحقق هذا الافتراض في قولنا: لم يتمكن عمرو ولا زيد من حمل الصخرة.

وكذلك قولنا: لو كان العامُ عامَ سلامٍ ما أريقَت هذه الدماء؛ يتضمن افتراضاً سابقاً بامتناع أن يكون العام المراد عام سلام؛ بسبب من استخدام حرف الشرط (لو)، ولا يتحقق هذا الافتراض في قولنا: إذا كان العام عام سلام فلن تراق دماء.

ومثله أيضاً قولنا: أرجوك أن تتجاوز عن الخطأ الذي وقع مني أمس؛ يتضمن افتراضاً سابقاً أن هناك خطأ محددًا وقع؛ بسبب من استخدام تعريف (الخطأ) ب(أل)، ولا يتحقق هذا الافتراض في قولنا: أرجوك أن تتجاوز عن أي خطأ يقع مني.

وأخيراً قولنا: أنهت زينب بحثها بعد أن ماتت؛ يتضمن افتراضاً سابقاً أن من المستحيل أن ينجز المرء عملاً بعد الموت؛ بسبب من استخدام (بعد) مع الفعل (مات)، ولا يتحقق هذا الافتراض في قولنا: أنهت زينب بحثها بعد أن عادت من أوروبا.

والافتراض السابق مفهوم تداولي تتضمنه العبارة في المقام الذي ترد فيه من حيث المعلومات المشتركة والمعروفة سابقاً لدى المتكلم والمخاطب،^١ فسؤال من مثل: ما سبب تحطم الطائرة الصينية؟ يفهم منه أن طائرة صينية تحطمت، وأن المتكلم والمخاطب على علم بهذا الحدث، وكذلك السائل والمسؤول في نحو: هل يصح رمي الجمرات قبل الزوال غداً؟ فالمتكلم والمخاطب يعلمان أن الموقف موقف حج، وأن المكان ربما يكون في منى، وأن لرمي الجمرات موعداً تحدده الشريعة الإسلامية، وأن لهذا الموعد علاقة بوقت الزوال؛ كل هذه المعلومات مشتركة بين المتكلم والمخاطب، كما قد يفهم من العبارة أن المتكلم ربما يكون أقل إلماماً من المخاطب في الفقه.

ولهذا الموضوع علاقة بما يسمى "وجهة النظر" في القص الروائي التي تشمل مدى أهلية الراوي، ودرجة حضوره، وطريقة مشاركة القارئ في القصة أو القضية المعروضة،^٢ فنلاحظ أن افتتاحية القصة أو الرواية تسعى إلى إيجاد عالم مشترك من حيث الزمان والمكان والأشخاص بين الراوي والقارئ أو المستمع، ويختلف الروائيون في أساليب تكوين هذا العالم المشترك، فمنهم من لا يفترض معلومات مسبقة، مريحاً بذلك المتلقي من عناء التقصي، ومنهم من يضمّن افتتاحية القصة قدرًا من المعلومات المشتركة بين الراوي والقارئ.^٣

^١ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٧٦.

^٢ انظر: المرجع السابق، ص ١٧٧.

^٣ انظر: المرجع نفسه، ص ١٧٧-١٧٨.

وينطبق ذلك على الشعر، فالشاعر يعمد إلى إيجاد خلفية مشتركة بينه وبين القارئ أو السامع، ومثاله مطلع معلقة زهير بن أبي سلمى؛ إذ استعمل فيه التنكير والتعريف لتحديد ما بينه وبين شعور القارئ، وعالج الزمان والمكان والشخص في هذا الإطار، فقال:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةَ الدَّرَاجِ فَالْمِثْلَمِ
 وَدَارٍ هَـا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَهْـا مَرَاجِيْعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
 هَـا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهُـا يَنْهَضْنَ مِنْ كُـلِّ
 وَقَفْتُ هَـا مِنْ بَعْدِ عِشْرَيْنِ فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ^١

افتتح زهير معلقته بكنية المحبوبة (أم أوفى)، فشخصها، وهذا معروف للقارئ، فقد أراد الشاعر جزءاً من المعرفة المشتركة بينه وبين المتلقي؛ أي إن (أم أوفى) في شعور المتلقي، ثم جاءت كلمة (دمنة) نكرة؛ لأنها لا يفترض الشاعر أنها في شعور المتلقي، ثم ولي ذلك ذكر المكان وتفصيلاته، فحومانة الدراج، والمثلم، والرقمتين؛ كلها مواضع يُفترض أنها معروفة للمتلقي، ثم يذكر الشاعر "دار لها"؛ ليُدخلها إلى وجدان المتلقي بالوصف والتشبيه البلاغي، ويذكر بعضاً من الحيوانات البرية المعروفة؛ كالعين، والآرام، والأطلاء، إلى أن يأتي إلى عامل الزمن في البيت الرابع محدداً المدة الزمنية لآخر عهد له بالمكان بعشرين عاماً، وللمتلقي أن يتخيل ما يمكن أن يكون قد حدث للشاعر والمحبوبة والمكان من تغيرات في هذه المدة الطويلة نسبياً، والشاعر يعبر عن طول هذه الحقبة ضمناً بالنسبة إليه؛ إذ لم يتعرف على الأطلال إلا بعد معاناة ومشقة^٢، فهذا هو العالم المشترك الذي بناه الشاعر بينه وبين المتلقي، وبهذا الترتيب لعناصر الشخص في المكان ثم الزمان.

ويرى التداوليون أن للافتراضات السابقة أهمية قصوى في عملية التواصل والإبلاغ، ففي مجال التعليم اعترف بدورها منذ زمن طويل، فلا يمكن تعليم الطفل معلومة جديدة إلا بافتراض سابق يُطلق منه ويُبنى عليه، أما مظاهر سوء التفاهم المنصوية تحت التواصل السيئ؛ فلها سببٌ أصلي مشترك هو ضعفُ أساس الافتراضات السابقة الضرورية لنجاح كل تواصل كلامي^٣.

^١ انظر: الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، تقديم وتعليق: ياسين الأيوبي، صلاح الدين الهوارى (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٢م)، ص ١٣٧، وقد قال زهير معلقته هذه بمدح فيها الحارث بن عوف وهرم بن سنان؛ لحقنهما الدماء بين قبيلتي عبس وذبيان، بدفعهما ديات القتلى.

^٢ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٧٩.

^٣ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٢، فالطفل يتعلم التراكيب اللغوية عن طريق تقدير فرضيات (Hypothesis) معينة مبنية على النماذج اللغوية التي يسمعها، ثم وضع هذه الفرضيات موضع الاختبار في الاستعمال اللغوي وتعديلها عندما يتضح له خطأها تعديلاً يؤدي إلى تقريبها تدريجياً من تراكيب الكبار، إلى أن تصبح تراكيبه مطابقة لتراكيبهم؛ أي إن الطفل يستخلص قاعدة لغوية من النماذج التي يسمعها، ثم يطبق هذه القاعدة، وبعد ذلك يعدلها إلى أن تطابق القاعدة التي يستعملها الكبار، فالطفل العربي مثلاً يستخلص قاعدة التأنيث في العربية من مثل: كبير وكبيرة، طويل

فعملية الاتصال الإنساني نسقٌ كلي يتكون من عنصرين أساس؛ هما المرسل، والمستقبل، ويتبادلان الأدوار الاجتماعية عبر عملية اعتماد متبادل بينهما، "فأي عملية اتصال إنساني وتحليلها تركز إلى محاولة عزل أطراف نسق الاتصال في لحظة معينة عند نقطة افتراضية لكل من البداية والنهاية، حتى يمكن فهم وتحليل كافة عناصرها؛ إذ إنها عملية دينامية يثيرها التواصل الإنساني، وتدفع الاتصال عبر اللغة وأساليب التعبير اللفظي وغير اللفظي".^١ ونستنتج من ذلك أن الافتراض السابق مفهوم تداولي يتعلق بالمعلومات المشتركة بين المتكلم والمخاطب في لغة الحياة اليومية، وهذا المفهوم متعلق بالمقام الذي ترد فيه.

ثالثاً: الحدث الكلامي

أصبح من الضروري تعريف الحدث الكلامي لأنه الصورة الحقيقية للغة المنجزة في التواصل الاجتماعي؛ موضوعاً رئيساً ومركزياً في نظرية التواصل، وتتوجه إليه أنظار الباحثين مسلطين عليه مقارباتهم المنهجية الرامية إلى تحليل المعنى في السياقات المختلفة.^٢

وقد أوضح الفيلسوف أوستن أن الكلام لا يؤدي معنى دلاليًا عقليًا فحسب، وإنما يصنع حدثاً في كثير من الأحيان،^٣ فنحو: أعدك بالحضور؛ يصنع وعداً؛ أي إن المتكلم عندما ينطق بالفعل (أعد) فإنما يلتزم بوعده يقطعه على نفسه بمجرد النطق بالكلمة، ويسمي أوستن الفعل (أعد) وما أشبهه في الوظيفة "أفعال أداء" (Performative verbs)؛ إذ يصنع المتكلم باستعمال هذه الأفعال أحداثاً كلامية؛ كالوعد، والرفض، والقبول، والاعتذار، والموافقة، والاعتراض، وغيرها.^٤

والحدث الكلامي يعني التصرف أو العمل الاجتماعي الذي ينجزه الإنسان بالكلام، ويراد به "الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة"،^٥ ومن أمثله الأمر، والنهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة؛ كما يضح في الأمثلة الآتية:

- أوافق على القرار.

- أعترض على القرار.

وطويلة... إلخ، فيطبقها على (أحمر)، فيقول: أحمر، ثم يكتشف خطأ هذا التطبيق في المثال في حقبة لاحقة، فيعدل القاعدة لتتنطبق على مجموعة من الأسماء والصفات، وتُستثنى أخرى؛ انظر: عبده، داود، دراسات في علم اللغة النفسي (الكويت: مطبوعات الجامعة، ط ١، ١٩٨٤م)، ص ٧٤.

١ جابر، سامية محمد، الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث النظرية والتطبيق (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٩٨٣م)، ص ٦٩.

٢ انظر: بوقرة، نعمان عبد الحميد، "التداولية منهج جديد في تحليل الخطاب"، في كتاب: الألسنية المعاصرة واتجاهاتها، تحرير جمع من المحررين (كوالالمبور: مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ط ١، ٢٠١١م)، ص ١٠٥.

٣ أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ٩٦.

٤ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٧٩-١٨٠.

٥ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ١٠.

- أُعلن انسحابي من المسابقة.
- أرفض هذا الاتهام.
- أفوضك بمتابعة هذه المهمة بالنيابة عني.
- أعتذر عمّا بدر مني.
- أهنيك بالنجاح.

كل فعل من أفعال الأداء يصنع حدثاً، فالفعل (أوافق) صنع حدث الموافقة، والفعل (أعترض) صنع حدث الاعتراض، والفعل (أعتذر) صنع حدث الاعتذار، وهكذا.^١

ونلاحظ أن هذه الأفعال جميعها مضارعة مثبتة، وفاعلها المتكلم نفسه، وهكذا يُصنع الحدث، فعندما نقارن بين الجملة (أ) أعتذر عما فعلت، والجملة (ب) غداً يعتذر الطالب لأستاذه؛ نجد أن في (أ) فعل أداء مضارعاً مثبتاً فاعله المتكلم، وبنطقه يحصل الاعتذار وجهاً لوجه، أما في (ب) فالفعل يعتذر لا يشكّل فعل أداء، والجملة في هذه الحالة لا تعدو أنها إخبار من طرف ثالث عما سيفعله الطالب غداً تجاه أستاذه، والاعتذار محتمل وقوعه، وربما لا يقع.

وثبت في إطار نظرية الحدث الكلامي أن دلالة جمل اللغات الطبيعية تشمل:^٢

- محتواها القضوي Propositional Content، أو مجموع دلالات مكوناتها مضمونة.
 - قوتها الإنجازية Illocutionary Force التي يمكن أن تكون إخباراً، أو استفهاماً، أو وعداً.
- والقوة الإنجازية لجمل اللغات الطبيعية بالنظر إلى مقامات إنجازها قوتان؛ قوة إنجازية حرفية هي المعبر عنها في الجملة بالتنغيم، أو أداة الاستفهام، أو صيغة الفعل، أو فعل من الأفعال الإنجازية؛ كالأفعال: سأل، وقال، ووعد، وقوة إنجازية مستلزمة هي التي تستلزمها الجملة في طبقات مقامية معينة.^٣
- ويأتي فعل الأداء في اللغة العربية على صيغة الفعل الماضي أحياناً، وعلى صيغة اسم الفعل أحياناً أخرى نحو: زوّجتك موكتي، وجملة: وأنا قبلتُ زواجها، فهاتان العبارتان في مجلس العقد الشرعي يشكل الفعلان الواردان فيهما (زوجتك) و(قبلت)؛ فعلي أداء يتم بلفظهما في هذا المقام التزويج والقبول.
- وهكذا تُسمى أفعال الأداء الفعل أو الحدث في أثناء أدائه،^٤ ولكن لو قال شخص: منذ عشرة أسابيع زوّجني هذه الفتاة أبوها، وكنت قبلتُ زواجها على مهر معين، والآن تطالبي بزيادة المهر؛ فإن الفعلين (زوّجني) و(قبلتُ) يدلان على حدثين ماضيين، وليسا فعلي أداء في هذا المقام.^٥

^١ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٨٠-١٨١.

^٢ انظر: المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص ١٠٥.

^٣ انظر: المرجع السابق، ص ١٠٦.

^٤ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ١٨١.

^٥ انظر: المرجع السابق، ص ١٨٢.

وقد وقع الاختلاف بين العلماء في تصنيف "ألفاظ العقود"؛ أهى أخبار، أم إنشاءات غير طلبية؟ فمن الفقهاء من قال إنها في الأصل أخبار نُقلت إلى معنى الإنشاء،^١ ومن فقهاء الأحناف من قال إنها أخبار بقيت على أصلها اللغوي.^٢

وبمعايير سيرل والتداوليين المعاصرين تُعدُّ ألفاظ العقود والمعاهدات ضمن الأفعال الكلامية، بل توضع ضمن الأفعال المتضمنة في القول، وتحديدًا ضمن "الإيقاعيات"، أو تلك الصيغ الإيقاعية العربية التي تتم أفعالها المتضمنة في القول من طرف واحد، ولا يُشترط إيقاعها من طرفين اثنين،^٣ أما اسم الفعل فيكون أحيانًا للأداء؛ أي إنه يصنع حدثًا، نحو: حذار، ولبيك اللهم، وكذلك الحال بالنسبة إلى المصدر، فيمكن أحيانًا أن يكون للأداء، نحو: سبحان الله، وسمعًا وطاعةً.

وقد ميّز علماء اللغة بين العبارة الخبرية وعبارة الأداء، فالعبارة الخبرية فيها قضية صحيحة أو خاطئة، نحو: الكتاب على الرف، ونجح الطالب، فكل من العبارتين تُبنى عن خبر يحتمل الصدق والكذب، وهما عبارتان وصفيتان، أم عبارات الأداء فلا تخضع للصدق والكذب، وإنما يؤدي قائلها فعلاً حين ينطق بها، نحو: أُسِّبِي هذا المولود محمدًا، وأعترف بالخطأ.^٤

ونجد علماء النحو العربي والبلاغة العربية أدركوا منذ عدة قرون شيئًا من نظرية الحدث الكلامي المنسوبة إلى أوستن؛ حين قسموا الجملة العربية إلى خبرية وإنشائية، ووضعوا لكل منهما وصفًا نحويًا وبلاغيًا،^٥ ويمكن التمييز بين الأسلوبين بتصوير مفاده أن الخبر "هو الخطاب التواصلية المكتمل إفاديًا، والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تُطابق نسبته الخارجية، والإنشاء هو الخطاب التواصلية المكتمل إفاديًا، والذي يريد المتكلم من نسبته أن تُوجد نسبته الخارجية".^٦

^١ انظر: القراني، أحمد بن محمد، أنوار البروق في أنواء الفروق، تحقيق: محمد سراج، علي جمعة (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠١م)، ج ١، ص ٢٨.

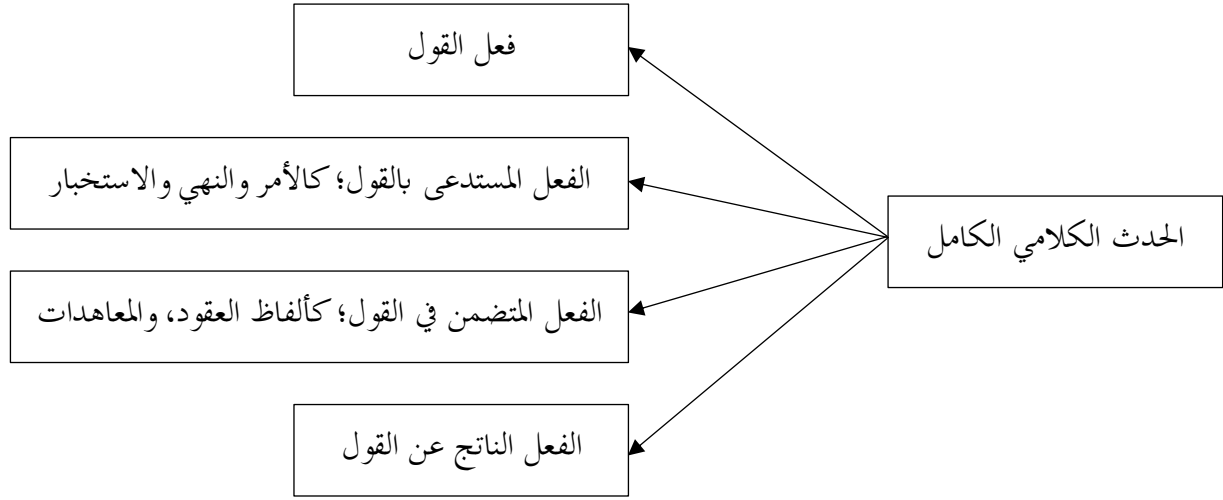
^٢ انظر: التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، في كتاب: شروح التلخيص (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٤م)، ج ٢، ص ٢٣٦.

^٣ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ١٢٤، ومثال ذلك أن يتلفظ المدير مخاطبًا مرؤوسه في ظروف وملابسات معينة مثلاً: أنت مكلف بتسيير مصلحة كذا؛ ليكون قد أوقع هذه التسمية في المنصب الجديد، أما إذا كان الفعل الإيقاعي من صنف العقود والمعاهدات التي تستدعي مشاركة طرفين أو فاعلين، ولا ينعقد العقد إلا بإيجاب وقبول، كالزواج الإسلامي مثلاً، فهو يقتضي أخذًا وردًا من الزوج والزوجة، أو وليَّيهما، فإذا قالت المرأة أو وليُّها للزوج: زوجتك نفسي (أو ابنتي) بشرط كذا، فيكون هذا الإيجاب - بتعبير الفقهاء - مقدمة لحصول القبول بأن يتلفظ الزوج: قبلتُك زوجة لي، فيكون ذلك قبولًا.

^٤ انظر: المرجع السابق، ص ٥٨-٦١.

^٥ انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٠٦-١٠٧؛ شروح التلخيص، ج ١، ص ١٦٥؛ ج ٢، ص ٢٣٤.

^٦ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٨١-٨٢، وبمعايير سيرل يكون الخبر مندرجًا ضمن صنف التقارير، والغرض المتضمن في القول لهذه المجموعة الكلامية هو التقرير، أو هو إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به، والشرط الافتراضي الذي تقوم عليه التقارير هو امتلاك الأسس القانونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها، أما الإنشاء فمندرج ضمن الأصناف الكلامية الأخرى التي بحثها سيرل، فمن الإنشاء ما يندرج ضمن الأموريات كالأمر والنهي والاستفهام، ومنه ما يندرج ضمن الإيقاعيات كالألفاظ العقود، ومنه ما يندرج ضمن البوحيات كالمدح والذم والتمني.



وتجدر الإشارة هنا إلى أن فعل القول في الحدث الكلامي؛ فعلٌ إنتاج لساني، ويتضاد مع المقول الذي هو محصلة هذا الإنتاج، ومن الممكن تحديد فعل القول بأنه تحقيق الجمل في وضع معين.^١ وتقوم النظرية السابقة على فرضية أساس مفادها أن الجمل في اللغات الطبيعية لا تنقل مضامين مجردة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السياقات والمقامات؛ كأن تفيد طلباً، أو وعداً، أو سؤالاً، أو غيرها مما يحقق السلوك اللغوي من فعل.^٢

ويمكن إيجاز القول في أهم ما ورد عن الحدث الكلامي كما يأتي:

(أ) الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وللقوة الإنجازية دليل يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه الجملة، ويتمثل في الإنجليزية في نظام الجملة، والنبر، والتنغيم، وعلامات الترقيم في اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل، وما يسمى "الأفعال الأدائية".^٣

(ب) الحدث الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط بالعرف اللغوي والاجتماعي،^٤ فالحدث الكلامي كلُّ ملفوظ يقوم على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويُعدُّ نشاطاً مادياً نحوياً يؤدي إلى أفعالٍ قولية لتحقيق أغراض إنجازية؛ كالطلب، والأمر، والوعد... إلخ، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي؛ كالرفض، والقبول، ومن ثمَّ؛ كان فعلاً يهدف إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً؛ أي ذا تأثير في المخاطب اجتماعياً، وغايته إنجاز شيء ما.

^١ انظر: فابر، بول؛ كريستيان، بايلون، مدخل إلى الألسنية، ترجمة: طلال وهبة (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٢)، ص٦٦.

^٢ انظر على الشابكة: إسماعيلي علوي، عبد السلام، "التداوليات"، المطالعة في ٣٠ أبريل ٢٠١٧م.

^٣ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٤٧.

^٤ انظر: المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص١٠٩، نقوم بفعل تلفظي حين نطق بعبارة (كلمات أو جمل)، ونقوم بفعل قضوي حين نحيل على شيء أو شخص أو حدث أو واقعة ونحمل عليه عبارة ما، ونقوم بفعل إنجازي حين نسأل أو نحبر أو نعد، ونقوم بفعل تأثيري حين يخلف فعلنا أثراً لدى المخاطب.

رابعاً: الاستلزام الحواري

يُعد الاستلزام الحواري (Conversational implicature) من أهم الجوانب في الدرس التداولي؛ إذ ترجع نشأة البحث فيه إلى المحاضرات التي دعا إليها جرایس ليُقدم الأسس المنهجية التي يقوم عليها هذا الجانب من الدرس، ويُقصد به أيضاً تضمُّن المحادثة؛ أي إن المعنى المقصود من العبارة يُبنى على الاستنتاج، والمعنى المستنتج غير معروف للمخاطب مُسبقاً.^١

ولوصف هذه الظاهرة يقترح جرایس نظريته المحادثية التي تنص على أن التواصل محكوم بمبدأ عام هو مبدأ التعاون بين المخاطبين، ويقوم هذا المبدأ على فكرة مؤداها "أن اللغة نشاط عقلي يمارسه الفرد في عملية الاتصال، تهدف إلى التعاون بين المتخاطبين"،^٢ وهو يتجسد في أربع قواعد سلوكية عامة؛ هي:^٣

١. قاعدة الكمية أو مسلّمة القدر (maxim of quantity): تنص على أن يكون إسهام المتخاطبين بالقدر الكافي من دون زيادة أو نقصان.

٢. قاعدة النوعية أو مسلّمة الكيف (maxim of quality): تنص على أن يتصف إسهام المتخاطبين بالصحة، فلا يحتوي أفكاراً أو شيئاً لا تعززه الشواهد.

٣. قاعدة الصلة أو مسلّمة الملاءمة (maxim of relevance): يكون الإسهام في الحديث مناسباً للمقام.

٤. قاعدة الهيئة أو مسلّمة الجهة (maxim of manner): يكون الإسهام في الحديث موجزاً منتظماً خالياً من الغموض والتلاعب بالألفاظ.

وقد يعتمد المتكلم إلى خرق قواعد المبدأ التعاوني؛ لحاجة في نفسه يريد إيصالها للمتلقي، وذلك بأن يتقصد في خطابه أن يُلَمِّح إلى المستمع بمعنى لا يصرح به في ظاهر خطابه، وإنما يكون ظاهر الكلام مغايراً ما يقتضي المتكلم من السامع إبلاغه، فلو أخبر أحدهم في سياق موقف ما أنه رجل أمين وهو موضع ثقة مع أنه يخفي في باطنه نقيض ذلك، فما صرح به المتكلم لا يتطابق مع ما يفكر به، وإنما يفترض المستمع أن المتلفظ لم يرفض مبدأ التعاون في الحديث، وأراد أن يوصل شيئاً مناقضاً ما صرَّح به، فلو فرضنا أن شخصاً يسأل عن وجود الأستاذ في المدرسة؛ هل الأستاذ في المدرسة؟ ويأتيه الجواب: نعم، فإن كان الأستاذ في المدرسة حقاً فالجواب الحاصل يفني بمبدأ جرایس للتعاون وقواعد السلوك المذكورة؛ الكمية، والنوعية، والصلة، والهيئة، أما إذا كان الجواب: هذه سيارته في موقف المدرسة، فهذا الجواب لا يحقق المبدأ التعاوني المشار إليه، وإنما فيه مخالفة واضحة لقواعد السلوك الأربع،

^١ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراهماتية، ص ١٦٨؛ صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٣-٣٤.

^٢ حسين، دلالة الاقتضاء عند الأصوليين، ص ٥.

^٣ انظر: دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان (القاهرة: عالم الكتب، ط ١، ١٤١٨/هـ ١٩٩٨م)، ص ٤٩٥.

^٤ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٣.

فمن حيث الكمية المعلومات غير كافية، ومن حيث النوعية لا يعني بالضرورة أن الأستاذ في المدرسة لوجود سيارته في موقفها، فالشواهد غير كافية، وكذلك لا يفني الجواب بقاعدتي الصلة والهيئة؛ لأن فيه غموضاً، وقد يستنتج السائل أن الأستاذ في المدرسة على الرغم مخالفات القواعد في جواب المسؤول؛ لأنه فهم المعنى من استقراء ما يتضمنه الخطاب في إطار المبدأ التعاوني، لا من مدلول الكلمات، فالمسؤول هنا يعلم أن الأستاذ في المدرسة، ولكنه لجأ إلى خرق قواعد المبدأ التعاوني عمدًا، ولم يقل الإجابة صراحةً، فهو بذلك استخدم أسلوب المفارقة.

ومثال آخر في حوار بين زوجين؛^١ يقول الزوج: أين مفاتيح السيارة؟ فيأتيه جوابها: على المائدة، ويبدو لنا أن المبدأ التعاوني والمبادئ الحوارية التي تتفرع منها متحققة كلها في هذه المحاور، فقد أجابت الزوجة إجابة واضحة (الهيئة)، صادقة (الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات من دون زيادة (الكم)، وأجابت إجابة ذات صلة بالسؤال (الصلة)؛ لذا لم يتولد عن قولها أي استلزام؛ لأنها قالت ما تقصد.

وقد لاحظ جرياس أن هذه المبادئ التي يجري عليها الحوار كثيرًا ما تُنتهك، فانتهاك مبادئ الحوار هو الذي يولد استلزام ملاحظة أن الإخلاص كان للمبدأ التعاوني؛ أي أن يكون المتكلم حريصًا على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، وأن يبذل المخاطب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم، وألا يريد أحدهما خداع الآخر أو تضليله،^٢ وعليه؛ إذا انتهك المتكلم مبدأ من مبادئ الحوار؛ أدرك المخاطب اليقظ ذلك، وسعى إلى الوصول إلى هدف المتكلم من هذا الانتهاك، ومن أمثلة ذلك حوار بين أمٍّ وابنها؛^٣ تقول الأم: هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة؟ فيجيبها: اغتسلت، ففي هذا الحوار انتهاك لمبدأ الكم؛ لأن الأم سألته عن أمرين، فأجاب عن أحدهما، وسكت عن الآخر؛ أي إن إجابته أقل من المطلوب، ويستلزم هذا أن تفهم الأم أنه لم يضع ثيابه في الغسالة، وأنه لم يُرد أن يجيب (نعم)؛ لثلاث أسباب: الإجابة شيئًا لم يقدّم به، ولم يُرد أن يواجهها بتقاعسه عن وضع ثيابه في الغسالة. ومثال آخر حوار بين تلميذ وأستاذه؛ إذ يسأل التلميذ: كوالالمبور في لندن؛ أليس هذا صحيحًا يا أستاذ؟ فيأتيه الجواب: طبعًا، وسنغافورة في أمريكا، فقد انتهك الأستاذ مبدأ الكيف الذي يقتضي ألا يقول إلا ما يعتقد صوابه، وألا يقول ما لا دليل عليه، وقد انتهكه الأستاذ عمدًا؛ ليُظهر للتلميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله بشيء كهذا، والتلميذ قادر على الوصول إلى مراد الأستاذ؛ لأنه يعلم أن سنغافورة ليست في أمريكا، وذلك يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئًا غير ما تقوله كلماته، وهو أن قول التلميذ غير صحيح.

ومن الأمثلة أيضًا حوار بين رجلين؛ يسأل أحدهما: أين نور حاليذا؟ فيجيبه الآخر: ثمة سيارة حمراء تقف أمام منزل نظيرة، فما أجابه به بمعناه الحرفي ليس إجابة صحيحة عن السؤال، وقد انتهك مبدأ الصلة؛ ولكن السامع في ضوء المبادئ الأخرى للتعاون يسأل نفسه: ما العلاقة الممكنة بين وقوف سيارة حمراء أمام منزل نظيرة وسؤاله

^١ انظر: الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية، ص ٣٥.

^٢ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٣٥-٣٦.

^٣ السابق نفسه.

عن مكان نور حاليًا، ثم يصل إلى أن المراد بهذا القول إبلاغه رسالة مؤداها أنه إذا كانت لنور حاليًا سيارة حمراء فلعلها عند نظيرة.

وكذلك حوار آخر بين رجلين؛^١ يسأل الأول: ماذا تريد؟ فيأتيه الجواب: قم واتجه إلى الباب، وضع المفتاح في القفل، ثم أدركه ناحية اليسار ثلاث مرات، ثم ادفع الباب برفق، ولا شك في أن هذا الجواب انتهاك لمبدأ الطريقة؛ إذ كان يكفي أن يقول: افتح الباب، وإذا نظرنا إلى هذا القول في ضوء تحقق مبادئ الحوار الأخرى كان لا بد من أن يحاول به المتكلم وجهًا غير ما يظهر؛ قد يكون مؤاخذته على ما يتميز به بين بطاء وتكاسل.

وللاستلزام الحوارية عند جرائس خواص؛ هي:

١. يمكن إلغاء الاستلزام بإضافة قول يسدّ الطريق أمامه، أو يحول دونه، فإذا قالت قارئة لكاتب مثلاً: لم أقرأ كل كتبك، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها بقولها: الحق أي لم أقرأ أي كتاب منها، فقد ألغت الاستلزام، وإمكان الإلغاء هذا أهم اختلاف بين المعنيين الصريح والضمني، وهو الذي يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه.^٢

٢. لا يقبل الاستلزام الانفصال عن المحتوى الدلالي؛ أي إن الاستلزام الحوارية متصل بالمعنى الدلالي لما يقال، لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها، وهذه الخاصية تميز الاستلزام الحوارية من غيره من أنواع الاستدلال التداولي من مثل الافتراض السابق، ففي نحو:^٣

(أ) لا أريد أن تتسلي إلى غرفتي على هذا النحو.

(ب) أنا لا أتسلل؛ ولكن أمشي على أطراف أصابعي خشية أن أحدث ضوضاء.

على الرغم من تغيير الصياغة في قول (ب)؛ لا يزال قائماً ما يستلزمه القول من رفض هذا السلوك.

٣. الاستلزام متغير؛ أي إن التعبير الواحد يمكن أن يؤدي إلى استلزامات مختلفة في سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلاً يحتفل بيوم ميلاده مثلاً: كم عمرك؟ فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبي عمره خمس عشرة سنة؛ فقد يستلزم السؤال مؤاخذه له على نوع من السلوك لا ترضاه له، وإذا سألت السؤال نفسه لفتى يُمنع من اتخاذ قرار لا يخرج عن تعاليم الدين ومواضع الأخلاق والأعراف؛ فقد يعني ذلك أنه ناضج كفاية ليتخذ قراره ويتحمل عواقبه.^٤

٤. يمكن تقدير الاستلزام؛ أي إن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة للوصول إلى ما يستلزمه الكلام، فإذا قيل مثلاً: مارغريت تاتشر صُنعت من حديد؛ فإن القرينة تُبعد السامع عن قبول المعنى اللفظي، فيبحث عما وراء الكلام من معنى، فيقول لنفسه: يريد المتكلم أن يلقي إليّ خبراً بدليل أنه ذكر جملة خبرية، والمفروض في

١ انظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٣٧.

٢ انظر: المرجع السابق، ص ٣٨.

٣ انظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٣٨.

٤ انظر: المرجع السابق، ص ٣٩.

هذا أن المتكلم ملتزم بالمبدأ التعاوني؛ أي إنه لا يريد بي خداعاً ولا تضليلاً، فماذا يريد أن يقول؟ لا بُدَّ من أن يخلع على رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر بعض صفات الحديد؛ كالصلابة، والمتانة، وقوة التحمل، وهو يعرف أنني أستطيع أن أفهم المعنى الحرفي؛ فلجأ إلى هذا التعبير الاستعاري.^١

ويمثل الاستلزام الحواري نظرية متكاملة قريبة جداً مما ورد في التراث اللغوي العربي عند البلاغيين وعلماء أصول الفقه،^٢ وقد اقترح جرایس تنميطةً للعبارة اللغوية يقوم على المقابلات الآتية التي تنقسم الحمولة الدلالية للعبارة على أساسها إلى معانٍ صريحة وضمنية:^٣

(أ) **المعاني الصريحة**: هي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، وتشمل ما يأتي:^٤

- المحتوى القضوي: هو جمع معاني مفردات الجملة بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.
- القوة الإنجازية الحرفية: هي القوة الدلالية المشار إليها بأدوات تصوغ الجملة صيغة أسلوبية ما؛ كالاستفهام، والأمر، والنهي، والتوكيد، والنداء، والإثبات، والنفي.

(ب) **المعاني الضمنية**: لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكن للسياق صلة في تحديدها والتوجه إليها، وتشمل ما يأتي:

- المعاني العرفية: هي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطاً أصيلاً، وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين، من مثل معنى الاقتضاء.^٥

- المعاني الحوارية: تتولد وفق المقامات التي تُنجز فيها الجملة، من مثل الدلالة الاستلزامية.^٦ ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، فالشاهد هو: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾، فمعناه الصريح متمثل في محتواه القضوي وقوته الإنجازية،^٧ والمحتوى القضوي ناتج من ضم معاني مكونات الجملة؛ أي الرجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد الموت، وأما قوتها الإنجازية الحرفية المشار إليها بالأداة (هل)؛ فهي الاستفهام، وينتج معناها الصريح من ضم محتواها القضوي إلى قوتها الإنجازية الحرفية، أما المعنى الضمني فيتألف من معنيين جزئيين؛ عرفي هو الاقتضاء؛

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٣٩-٤٠.

^٢ انظر: المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص ٩٣-١٠٣، وقد استطاع أن يقدم دراسة حاول فيها أن يستكشف المعالم الرئيسة للوصف العربي القديم لهذه الظاهرة معتمداً على ما قدمه السكاكي في "مفتاح العلوم"؛ لأنه وجد تناوله يتجاوز الملاحظة المجردة إلى التحليل الملائم للظاهرة الذي يضبط علاقة المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقامياً، ويصف آلية الانتقال من الأول إلى الثاني بوضع قواعد استلزامية واضحة.

^٣ انظر: بلانشيه، فيليب، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الجباشة (اللاذقية: دار الحوار، ط ١، د.ت)، ص ١٥٠.

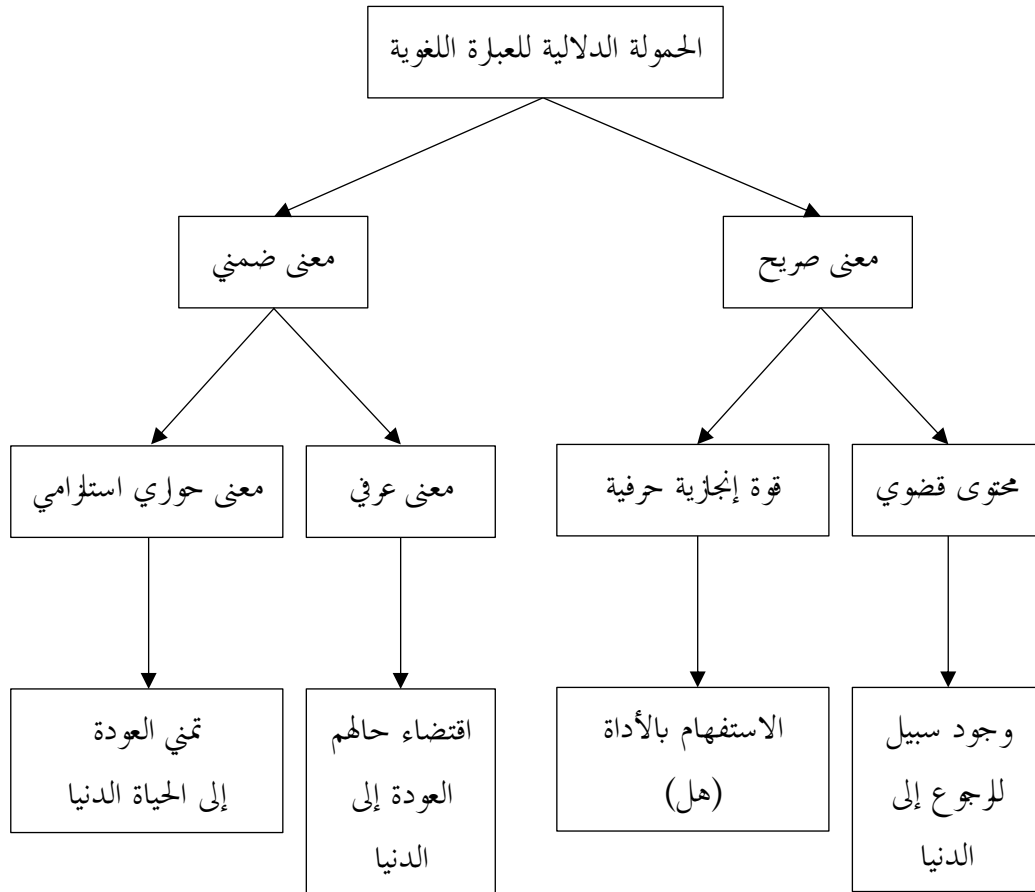
^٤ انظر: المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص ١٠٩.

^٥ انظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٤.

^٦ المرجع السابق، ص ٣٥.

^٧ انظر: السابق نفسه.

أي اقتضاء حالهم الرجوع إلى الحياة الدنيا، وحواري استلزامي هو تمني المتكلمين من المخاطب (الله تعالى) أن يردهم إلى الدنيا، ويمكن توضيح ذلك كما يأتي:



وقد عقد ابن جني في "الخصائص" باباً في التفسير على المعنى من دون اللفظ، مؤكداً معنى هذا الاستلزام الخطابى التداولي من خلال استشهاده وتحليله آية قرآنية في أثناء حديثه عن حرف الاستفهام (هل)، وأنه يبقى محتفظاً بدلالاتها الاستفهامية على الرغم من استعماله المجازي غير المباشر، ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ك: ٣٠]؛ قال ابن جني: "قالوا معناه: قد امتلأت، وهذا أيضاً تفسير على المعنى دون اللفظ، و(هل) مبقاة على استفهامها، وذلك كقولك للرجل لا تشك في ضعفه عن الأمر: هل ضعفت عنه؟ وللإنسان يجب الحياة: هل تحب الحياة؟ أي: فكما تحبها فليكن حفظك نفسك لها، وكما ضعفت عن هذا الأمر فلا تتعرض لمثله، مما تضعف عنه، وكان الاستفهام إنما دخل هذا الموضع؛ ليتبع الجواب عنه بأن يقال: نعم، فإن كان كذلك، فيحتج عليه باعترافه به، فيجعل ذلك طريقاً إلى وعظه أو تبيكته، ولو لم يعترف في ظاهر الأمر به؛ لم يقو توقيفه عليه، وتحذيره من مثله؛ قوته إذا اعترف به؛ لأن الاحتجاج على المعترف أقوى منه على المنكر أو المتوقف، فكذلك قوله سبحانه: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾، فكأنها قالت: لا، فقليل لها: بالغي في إحراق المنكر كأنه لك، فيكون هذا خطاباً في اللفظ لجهنم، وفي المعنى للكفار، وكذلك جواب هذا من قولها: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، أي: أتعلم

يا ربنا أن عندي مزيداً؟ فجواب هذا منه سبحانه وتعالى: لا؛ أي: فكما تعلم أن لا مزيد، فحسبي ما عندي، فعليه قالوا في تفسيره: قد امتلأت، فتقول: ما من مزيد، فاعرف هذا ونحوه".^١

فهذا النص بنية سياقية تداولية واضحة من ابن جني، وهو ينبه إلى الخطوات الضرورية التي يُنتجها المتكلم في إبلاغ مقاصده، والسبل التي يتذرعهما في إفهام ما يريد إيصاله، والنص القرآني المذكور الذي استعان به في هذا المقام حذا حذو هذا التخير التداولي من خلال مفهوم الاستلزام؛ ليدلنا على أثر مراعاة هذا الأسلوب في نفسية المتقبل، وتحقيق الهدف التواصلية المرجو منه.

خامساً: البعد التخاطبي للغة

تعكس اللغة وظيفة التفاعل الاجتماعي للمتكلم، والمعايير التي يحتكم إليها في إظهار هذا التفاعل تطابقاً وتبايناً مع المخاطب، فالعلاقة الاجتماعية تحدد كثيراً مما نقوله فيما بيننا ونوصله، فالتفاعل اللغوي بالضرورة تفاعل اجتماعي،^٢ والخطاب اللغوي بطبيعته يخضع لظروف إنتاجية خاصة، ومعايير تنزع إلى استعمال أساليب تهيئية تتوفر على عوامل تؤسّم البعد الاجتماعي النوعي بين المخاطبين، وهذه الأساليب تقوم على صفة لغوية مميزة مناسبة ينتظم المتكلم خلالها ويحرص على صيغتها الشكلية الملاءمة؛ لتصل إلى المتحدث إليه برموزها اللغوية الاعتبارية المطلوبة، وبوسائل بنائية موظفة؛ لأن مقاصد المتحدث ونمط بناء أسلوبه يتغير وفق هذه التوجهات المقامية الفارقة بينه وبين المخاطب.^٣ من هذا المنطلق الوظيفي التواصلية للغة الذي يسعى دائماً إلى الانتظام والاتساق والتناسب في الاستعمال؛ انصبت عناية ابن جني على معنيي "التوجيه" و"التضامن" في الخطاب اللغوي، فكانت وُكْدُهُ وغايته في تقديم وصفٍ وتحليل تفاوت من خلالهما إمكانية التواصل وفق ما تقتضيه مستويات المخاطبين ومكاناتهم، وهو ما يبدو تصوُّراً اجتماعياً مسبقاً عند ابن جني سيطر على تفكيره اللساني؛ سعياً نحو تحقيق مقصد التنوع الخطابي للعربية.

وتعود نظرية التوجيه (Directive) والتضامن (Implicature) إلى كل من براون وفورد في تناولهما مصطلحات التخاطب في نطاق العمل وبعض المواقف الاجتماعية الأخرى للأفراد، وقد توصلا إلى اختلاف وتباين كبيرين في مستويات اللغة المستعملة على حسب الموقف الاجتماعي ومقامات المخاطبين، ونوعية الصيغ المتداولة في هذا النوع من التواصل وفق المركز الاجتماعي لكل من المتحدث والمخاطب.^٤

ومن المعلوم أن الكلام يكاد يكون فعلاً اجتماعياً، وأن كثيراً من الاختلاف بين المتكلمين يمكن رصده على أنه متعلق بالظواهر الاجتماعية الأخرى، فالأفراد مثلاً لا يختلف أحدهم ببساطة يمكن رصدها فحسب، ولكنهم يختلفون بوصفهم أعضاء في المجتمع على أساس من الجنس، والدين، والمكانة، والمهنة، وتُمَيِّزُون من خلال

^١ انظر: ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٢٦٣-٢٦٤.

^٢ انظر: علوان، محمد السيد، المجتمع وقضايا اللغة (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م)، ص ١٢٥.

^٣ انظر: بورديو، بيري، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي (الدار البيضاء: دار توبقال، ط ٢، ١٩٩١م)، ص ٦٦.

^٤ انظر: الشهري، إستراتيجية الخطاب، ص ٢٥٦-٢٥٧.

المركز الاجتماعي والتعليم ومجالات فنية وفكرية أخرى،^١ ولا شك في أن للتواصل اللغوي مستواه المؤثر في تنظيم هذه الظواهر والأوضاع الاجتماعية وتقييمها؛ لكشف العلاقات والمقامات عبر اختيار الكلمات التي تكافئ كل طبقة أو لا تكافئها، وللاكثر وجهة، أو الأقل، وهذه الحثيات الاستعمالية مرهونة جميعها بذوات المتحدثين ونفوذهم؛ إذ تلزم الصيغ المؤدبة في الطلب والجواب، وتضامنهم بما يتطلب الصيغ الاعتيادية للتجاوب والتساؤل.^٢

إذن؛ هذا هو الأصل التخاطبي المتعارف الذي جاءت به نظرية التوجيه والتضامن، وهو أن صاحب الواجهة أو مالك المركز الاجتماعي المشع نفوذه؛ تتفاوت درجته التخاطبية عن الآخرين بالعلاقة غير المتكافئة التي تجمعهم مع المخاطب، وفي المقابل؛ تظهر عملية التضامن في الخطاب عندما تتكافأ تلك العلاقة الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب، فيكون الأداء التخاطبي بينهما تواصلياً معتدلاً غير مبالغ فيه، ولكننا نجد - فضلاً عما ذكر - أن بين هذين الصنفين تناسباً عكسياً؛ إذ يتضامن المتكلم مع المخاطب، أو يكون لديه الاستعداد المرغوب للتضامن معه، وذلك عندما تتدنى درجة سلطته، فيتكافأ مع المخاطب، وفي المقابل؛ ربما لا يتضامن المتكلم، أو لا يرغب في التضامن؛ مع المخاطب، وذلك عندما تعلو سلطته عليه، وتبرز، وتغلب وجاهته، فنجد عند ذلك يفضل أن يتعامل مع المخاطب بأسلوب رسمي ونوعية خطابية؛ ليؤكد رغبته في إبقاء الفرق وعامل الرتبة بينهما، إلا أن هذه الرغبة لا تدوم أحياناً مع المتكلم، ولا يميل إلى الحفاظ على استمرارها وإطلاقها؛ إذ قد يسعى - على الرغم من سلطته - إلى التضامن مع المخاطب وتغيب إستراتيجية الواجهة اللغوية بينهما.^٣

وعلى هذا تكون التفرقة ما بين التوجيه والتضامن هي الحاصلة في اللغة ما بين الاستعمال المتماثل في مقابل الاستعمال غير المتماثل في شكل الخطاب اللغوي، فيكون الاستعمال غير المتماثل مؤشراً على اعتبار حضور السلطة أو الرتبة ما بين المتخاطبين كما ذكرنا، في حين يصبح الاستعمال متماثلاً في غياب هذه السلطة وتلك الرتبة، وتكون الإستراتيجية التضامنية في العلاقات اللغوية مؤشراً على التواصل المتكافئ ما بين أطراف عملية التخاطب.^٤ وينبغي في إطار هذه النظرية بيان أن لكل اللغات وسائلها الخاصة في الدلالة على الاختلافات الاجتماعية التي تدل على أي من عنصري التوجيه والتضامن، أو كليهما، كما يمكن تفسير ذلك أيضاً بقول إن التوجيه والتضامن من أهم العوامل المؤثرة في عملية الاتصال الاجتماعي المباشر بين الأفراد، ويعبران عن حاجة الفرد إلى تحديد رؤيته في طبيعة هذه العلاقات.^٥

ومن دواعي التوجيه في الخطاب اللغوي أيضاً ذكر اللقب والاستغناء عن الدال الاسمي للشخص، وهو مستوى تفعيلي في الكلام يلاحظ دومًا في السلوك الأدائي المتداول بين المتخاطبين، فيلجأ المتحدث إلى تناؤل

^١ انظر: المرجع السابق، ص ٢٧١.

^٢ انظر: همدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص ٢١١.

^٣ انظر: السيد، علم اللغة الاجتماعي، ص ١٦٥-١٦٦.

^٤ انظر: ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ١٨٤.

^٥ انظر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٥.

اللقب في كلامه إكباراً وإجلالاً أو تقديراً وامتناناً لسلطة المخاطب ووجهته، وهي إحدى الممارسات الملحوظة في الحياة الاجتماعية بكثرة.

وعوداً إلى استقراء كتاب "الخصائص"؛ لنلتمس فيه أصول هذه النظرية وتفعيلها في المستوى التخاطبي؛ نجد فكرة التوجيه والتضامن الوظيفية تتجذر جلياً في المقام التواصلية بين المتخاطبين، ويتمثل ذلك في إشارة ابن جني الصريحة إلى صيغ الوجاهة الحاضرة في مخاطبة الملوك من خلال الاستعانة بوسائل لسانية خاصة، وأسلوب في المناادة من غير ذكر الأسماء؛ إجلالاً للمكانة، وإقراراً للنفوذ؛ يقول: "إن أصغر الناس قدراً قد يخاطب أكبر الملوك محلاًً بـ(الكاف) من غير احتشام منه، ولا إنكار عليه، وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الكبير: قد خاطبت ذلك الرجل، واشتريت تينك الفرسين، ونظرت إلى ذينك الغلامين، فيخاطب الصاحب الأكبر بـ(الكاف)، وليس الكلام شعراً فتُحتمل له جرأة الخطاب فيه، كقوله: لقينا بك الأسد، وسألنا منك البحر، وأنت السيد القادر، ونحو ذلك".^١ ويحاول ابن جني إظهار تعليل لهذه المجاوزة الخطابية غير المعتادة بين طبقات الأفراد، مسوغاً ذلك بالمكانة والمركز والسلطة، فضلاً عن النفوذ الاجتماعي؛ يقول: "وعلة جواز ذلك عندي أنه لم يخاطب الملوك بأسمائهم إعظماً لها؛ إذ كان الاسم دليل المعنى، وجارياً في أكثر الاستعمال مجراه، حتى دعا ذلك قومًا إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى، فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم؛ تحاموا عن ابتداء أسمائهم التي هي شواهدهم، وأدلة عليهم؛ إلى الكناية بلفظ الغيبة، فقالوا: إن أرى الملك أدام الله علوه، ونسأله حرس الله ملكه، ونحو ذلك، وتحاموا: إن أريت، ونحن نسألك، فلما خلصت عن هذه (الكاف) دلالة الاسم، وجردت للخطاب البتة؛ جاز استعمالها؛ لأنها ليست باسم، فيكون في اللفظ به ابتداءً له، فلما خلعت هذه (الكاف) خطاباً البتة، وعريت من معنى الاسم؛ استعملت في خطاب الملوك لذلك".^٢

وبما أن الضمائر أبرز حالات المفارقة الخطابية في المجتمع التواصلية، وسبيل أسلوب الإعظام والإجلال الحاصلين والمتفاوتين من فرد إلى آخر، فقد بحث ابن جني هذه المسألة أيضاً من باب الإيغال والعمق في النظرية المتناولة، متسائلاً عن جواز مخاطبة الملوك والعظماء بالضمير (أنت) في غير الشعر مثلاً حيث (التاء) كـ(الكاف) تُستعمل للخطاب أيضاً، والاثنتان مجردان عن الدلالة الاسمية، وبعد التساؤل والشرح والبيان يلقي ابن جني تعليله للمسألة بمنع قبول الخطاب بـ(التاء) و(الكاف) معاً، ومن ثم لا تساوي بينهما في عملية التوجيه التواصلية؛ يقول: "قيل: التاء في (أنت) وإن كانت حرف خطاب، لا اسماً؛ فإن معها نفسها الاسم، وهو (أن) من (أنت)، فالاسم على كل حال حاضر، وإن لم تكن (الكاف)، وليس كذا قولنا: ذلك؛ لأنه ليس للمخاطب بـ(الكاف) هنا اسم غير (الكاف)، كما كان له مع التاء في (أنت) اسم للمخاطب نفسه، وهو (أن)، فاعرف ذلك فرقاً بين الموضوعين".^٣

^١ انظر: ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ١٨٤.

^٢ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٥.

^٣ السابق نفسه.

أسئلة ومراجعات

١. حدّد مفهوم المفارقة لغة واصطلاحًا.
٢. عرّف مفهوم ازدواج المعنى في التأويل.
٣. ما المقصود من تنافر الإدراك في اللفظ والتضاد؟
٤. كيف تنجح المفارقة في فعلها في التنافر في خداع الأداء واللعب الذهني؟
٥. يُبنى نص المفارقة بتقديم ضحية الأثر، وذلك بتوفر شيئين؛ منهما حيز ضحية الأثر؛ اشرح ذلك.
٦. بيّن طبيعة الذات المفارقة في العمل الأدب.
٧. تحدث عن الحدث الكلامي بوصفه صورة فعلية للتواصل الاجتماعي في صفحة واحدة.
٨. بيّن مفهوم الاستلزام الحوارية مع التمثيل.
٩. ما البعد التخاطبي للغة وتفاعله الاجتماعي؟

مراجع أولية للمطالعة

- أحمد، يحيى، "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، *مجلة عالم الفكر*، المجلد ٢، العدد ٣، ١٩٨٩م.
- بوجادي، خليفة، "التفكير اللغوي التداولي عند العرب: مصادره ومجالاته"، *مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية*، جامعة سطيف ٢، الجزائر، المجلد ٩، العدد ١٦، أكتوبر ٢٠١٠م.
- حسين، وليد، "دلالة الاقتضاء عند الأصوليين في ضوء نظرية التضمنين التخاطبي عند جرايس"، *مجلة الدراسات اللغوية والأدبية*، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، المجلد ١، العدد ٢، ٢٠١٠م.
- سويرتي، محمد، "اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح التداولي"، *مجلة عالم الفكر*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد ٢٨، العدد ٣، يناير/مارس ٢٠٠٠م.
- مصطفى، هيثم محمد، "ملاحم من النظرية الوظيفية (التواصلية) عند ابن جني في كتابه (الخصائص)"، *مجلة كلية العلوم الإسلامية*، جامعة الموصل، العراق، المجلد ٨، العدد ٢/١٥، ٢٠١٤م.

مراجع متقدمة للمطالعة

أديوان، محمد، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال الكلامية المعاصرة (الرباط: جامعة الرباط، كلية الآداب، د.ت).

حجازي، محمود فهمي، علم اللغة: مدخل تاريخي في ضوء التراث واللغات السامية (الكويت: وكالة المطبوعات، ط ١، ١٩٧٣م).

صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي (بيروت: دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٥م).

المتوكل، أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط ١، ١٩٨٦م).

الموسى، نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث (بيروت: المؤسسة العربية، ١٩٨٠م).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم، محمد عبد الرحمن، الإعلامية أبعادها وأثرها في تلقي النص: دراسة نظرية تحليلية (رسالة دكتوراة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠٠٧م).

إبرير، بشير، دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي (إريد: عالم الكتاب الحديث، ٢٠١٠م).

ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، تحقيق: أحمد شاکر (القاهرة: طبعة المعارف، ١٩٤٦م).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٩٧٨م).

ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد، سر الفصاحة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٧٦م).

ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص (القاهرة: طبعة بولاق، ١٩٥٨م).

ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: دار الكتب، د.ت).

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قمحية، محمد أمين الضاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م).

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ).

أبو الفرج، محمد أحمد، مقدمة لدراسة فقه اللغة (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٦م).

أبو زيد، أحمد، مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن (الرباط: دار الأمان، ١٩٨٩م).

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، الفروق في اللغة، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٢م).

أحمد بن فارس، الصحاحي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، حققه وقدم له: مصطفى الشويحي (بيروت: مؤسسة بدران، ١٩٦٣م).

أحمد، يحيى، "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢، العدد ٣، ١٩٨٩م.

الأخطل، غياث بن غوث، ديوان الأخطل، شرح: مهدي محمد ناصر الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٩٤م).

أديوان، محمد، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال الكلامية المعاصرة (الرباط: جامعة الرباط، كلية الآداب، د.ت).

أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش (القاهرة: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٧م).

- الأشقر، عمر سليمان، نحو ثقافة إسلامية أصلية (عمان: دار النفائس، ط ٦، ١٩٩٧م).
- امرؤ القيس بن حجر الكندي، ديوان امرئ القيس، شرح: حسن السندوي، ضبط: مصطفى عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٥، ٢٠٠٤م).
- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م).
- باي، ماريو، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر (القاهرة: عالم الكتب، ط ٨، ١٩٩٨م).
- البريدي، عبد الله، التخطيط اللغوي: تعريف نظري ونموذج تطبيقي (الرياض: الملتقى التنسيقي للجامعات، ٢٠١٣م).
- بشر، كمال محمد، التفكير اللغوي بين القديم والجديد (القاهرة: مكتبة الشباب، ٢٠٠٥م).
- بشر، كمال محمد، دراسات في علم اللغة (القاهرة: دار المعارف، ط ٦، ١٩٨٠م).
- بشر، كمال محمد، مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م).
- البقري، أحمد ماهر، اللغة والمجتمع (الإسكندرية: د.ن، ١٩٨٣م).
- بلانشيه، فيليب، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة (اللاذقية: دار الحوار، ط ١، د.ت).
- بلخير، عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية (الجزائر: منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٣م).
- بليث، هنريش، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة: محمد العمري (الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، ١٩٩٩م).
- بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين (القاهرة: دار الفكر، ط ٤، ١٩٨٤م).
- البهناوي، أحمد، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث في مجالي: مفهوم اللغة والدراسات النحوية (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م).
- بو بكري، راضية خفيف، "التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقارنة نظرية"، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ٢٠٠٤م، العدد ٣٩٩.
- بو عزيز، محسن، السيميولوجيا الاجتماعية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠م).
- بو قره، نعمان، اللسانيات: اتجاهاتها وقضاياها الراهنة (إربد: عالم الكتاب الحديث، ط ١، ٢٠٠٩م).
- بوجادي، خليفة، "التفكير اللغوي التداولي عند العرب: مصادره ومجالاته"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف ٢، الجزائر، المجلد ٩، العدد ١٦، أكتوبر ٢٠١٠م.
- بورديو، بيير، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي (الدار البيضاء: دار توبقال، ط ٢، ١٩٩١م).
- البوسنوي، شكري حسين، تعارض ما يخل بالفهم وأثره في الأحكام الفقهية (جدة: دار الأندلس، ط ١، ٢٠٠٠م).
- بو قره، نعمان عبد الحميد، "التداولية منهج جديد في تحليل الخطاب"، في كتاب: الألسنية المعاصرة واتجاهاتها، تحرير جمع من المحررين (كوالالمبور: مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ط ١، ٢٠١١م).

- بوقرة، نعمان، "ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين"، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٠م، المجلد ١٤، العدد ٥٤.
- بونتيج، كارل ديتر، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة: سعيد حسن بحيري (القاهرة: مؤسسة المختار، ط ٢، ٢٠٠٦م).
- التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، في كتاب: شروح التلخيص (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٤م).
- توفيق، محمد شاهين، علم اللغة العام (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١، ١٩٨٠م).
- توماسيلو، ميشيل، الثقافة والمعرفة البشرية، ترجمة: شوقي جلال (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٦م).
- جابر، سامية محمد، الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث النظرية والتطبيق (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٩٨٣م).
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٧، ١٩٩٨م).
- الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، شرحه وعلق عليه: محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م).
- جاسم، زيدان علي، دراسة في علم اللغة الاجتماعي (كوالالمبور: بوستاكا أنتنارا ماليزيا، ١٩٩٥م).
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ط ٦، ١٩٦٠م).
- جفري سامبسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة: محمود زيادة كبة (الرياض: د.ن، ١٩٩٧م).
- جوزيف، جون، اللغة والهوية، ترجمة: عبد النور خراي (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٧م).
- الجبالي، محمد عزيز، تأملات في اللغو واللغة (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م).
- حجازي، محمود فهمي، علم اللغة: مدخل تاريخي في ضوء التراث واللغات السامية (الكويت: وكالة المطبوعات، ط ١، ١٩٧٣م).
- حسام الدين، كريم زكي، أصول تراثية في علم اللغة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، ١٩٨٥م).
- حسام الدين، كريم زكي، اللغة والثقافة: دراسة أنثولوجية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية (القاهرة: دار غريب، ط ٢، ٢٠٠١م).
- الحسن، شاهر، علم الدلالة: السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية (عمان: دار الفكر، ط ١، ٢٠٠١م).
- حسين، صلاح الدين صالح، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن (الرياض: دار العلوم، ١٩٨٤م).
- حسين، طه، مستقبل الثقافة في مصر (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ط ٢، ٢٠١٢م).
- حسين، وليد، "دلالة الاقتضاء عند الأصوليين في ضوء نظرية التضمنين التخاطبي عند جرايس"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، المجلد ١، العدد ٢، ٢٠١٠م.
- الحسيني، محمد علي، علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق (طهران: سلسلة كتاب التوحيد، ط ١، ١٩٩٧م).

حماد، أحمد عبد الرحمن، **العلاقة بين اللغة والفكر** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م).
حمودة، عبد الوهاب، "أنساب العرب في الميزان"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة القاهرة، المجلد ١٤٦، الجزء ١، مايو
١٩٥٢.

الحناش، محمد، **النبوية في اللسانيات** (الدار البيضاء: دار الرشد، ١٩٩١م).
خرما، نايف، **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصر** (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨م).
خطابي، محمد، **لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٠م).
الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، **الإيضاح في علوم البلاغة** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م).
الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، **التلخيص في علوم البلاغة**، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي (بيروت:
دار الكتاب اللبناني، د.ت).

خليفة، عبد الكريم، "الألوان في معجم العربية"، **المؤتمر الثالث والخمسين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة**، ١٩٨٧م.
الخولي، محمد علي، **الحياة مع لغتين: الثنائية اللغوية** (عمان: دار الفلاح، ٢٠٠٢م).
الخولي، محمد علي، **علم اللغة النظري: إنجليزي عربي، عربي إنجليزي** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط ١،
١٩٨٢م).

الخويسكي، زين، **معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٢م).
دايك، فان، **النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي**، ترجمة: عبد القادر قنيني (الدار
البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م).

الدبوسي، عبيد الله بن عمر، **تقويم الأدلة في أصول الفقه** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١م).
دراج، أحمد عبد العزيز، **الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية** (القاهرة: مكتبة الرشد، ١٩٨٢م).
الدريني، محمد فتحي، **المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي** (دمشق: الشركة المتحدة، ط ٢،
١٩٨٥م).

دلاش، الجليلي، **مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها**، ترجمة: محمد يحياتن (الجزائر:
ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت).

دوركاييم، إميل، **قواعد المنهج في علم الاجتماع**، ترجمة: محمود قاسم (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م).
دي بوجراند، روبرت، **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة: تمام حسان (القاهرة: عالم الكتب، ط ١،
١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

دي سوسير، فرديناند، **دروس في الألسنية العامة**، ترجمة: صالح الفرماوي، محمد عجينة، مجيد النصر (طرابلس:
الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥م).

دي سوسير، فرديناند، **فصول في علم اللغة العام**، نقله من الإنجليزية: أحمد نعيم الكراعين (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م).

دي سوسير، فرديناند، **محاضرات في علم اللسان العام**، ترجمة عن الفرنسية: عبد القادر قنيني، مراجعة: أحمد حبيبي (الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ١٩٨٧م).

الراجحي، عبده، **النحو العربي والدرس الحديث** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨م).

الراجحي، عبده، **علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م).

الراجحي، عبده، **فقه اللغة في الكتب العربية** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م).

الرازي، محمد بن عمر، **المحصل في علم أصول الفقه**، تحقيق: جابر فياض العلواني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧٩م).

الرديني، محمد علي عبد الكريم، **فصول في علم اللغة العام** (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٢م).

ريشل، مارك، **اكتساب اللغة**، ترجمة: كمال بكداش (بيروت: المؤسسة الجامعية، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

زايد، عبد الرزاق أبو زيد، **كتاب سر الفصاحة لابن سنان: دراسة وتحليل** (القاهرة: مكتبة الشباب، ط ١، ١٩٧٦م).

زايد، علي عشيري، **بناء القصيدة العربية الحديثة** (الكويت: مكتبة دار العروبة، د.ت).

الزجاج، إبراهيم بن السري، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شليبي (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٨م).

زكريا، ميشال، **الملكمة اللسانية في مقدمة ابن خلدون** (بيروت: المؤسسة الجامعية، ١٩٨٦م).

زكريا، ميشال، **بحوث ألسنية عربية** (بيروت: المؤسسة الجامعية، ١٩٩٢م).

الزحشيري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل** (بيروت: دار المعارف، د.ت).

الزناد، الأزهر، **نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٣م).

الزوزني، الحسين بن أحمد، **شرح المعلقات السبع**، تقديم وتعليق: ياسين الأيوبي، صلاح الدين الهواري (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٢م).

السبكي، عبد الوهاب بن علي، **رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب**، تحقيق: علي محمد معوض (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٩٩م).

السكاكي، يوسف بن محمد، **مفتاح العلوم**، ضبط وتعليق: نعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م).

سكر، ماجد رجب العبد، **التواصل الاجتماعي؛ أنواعه، ضوابطه، آثاره ومعوقاته: دراسة قرآنية موضوعية** (رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١١م).

- سويقي، محمد، "اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح التداولي"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد ٢٨، العدد ٣، يناير/مارس ٢٠٠٠م.
- سيوييه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م).
- السيد، صبري إبراهيم، تشومسكي وفكره اللغوي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م).
- السيد، صبري إبراهيم، علم اللغة الاجتماعي: مفهومه وقضاياها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م).
- السيد، محمود أحمد، اللغة تدريسيًا واكتسابيًا (الرياض: دار الفيصل، ط ١، ١٩٨٨م).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر في قواعد وأصول الفقه، تحقيق: محمد حسن محمد إسماعيل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٥م).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨م).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها (القاهرة: مكتبة دار التراث، ط ٣، د.ت).
- شتا، السيد علي، علم الاجتماع اللغوي (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٦م).
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجية الخطاب: مقارنة لغوية تداولية (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط ١، ٢٠٠٤م).
- شوشار، بول، اللغة والفكر، ترجمة: صلاح أبو الوليد (باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٧٣م).
- شوقي، سعيد، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية (القاهرة: دار إيتراك، ط ١، ٢٠٠١م).
- صالح، أيمن، "تلقي النص الديني: دراسة أصولية مقاصدية"، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٤٠، ٢٠٠٥م.
- صالح، عبد الرحيم، تطور اللغة عند الطفل وتطبيقاته التربوية (عمان: دار النفائس، ١٩٩٢م).
- صحراوي، عز الدين، "اللغة بين اللسانيات واللسانيات الاجتماعية"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خير صكرة، الجزائر، العدد ٥، ٢٠٠٤م.
- صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي (بيروت: دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٥م).
- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ).
- ظاظا، حسن، اللسان والإنسان (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م).
- عارف، نصر محمد، الحضارة، الثقافة، المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٩٨١م).
- عبابنة، يحيى؛ الزعبي، آمنة، علم اللغة المعاصر: مقدمات وتطبيقات (إربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥م).

- عبد الرحمن، طه، تجديد المنهج في تقويم التراث (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، د.ت).
- عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٠م).
- عبد السلام، أحمد شيخو، مقدمة في علم اللغة التطبيقي: موضوعات مختارة وقضايا إسلامية (كوالالمبور: مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ط ٢، ٢٠٠٦م).
- عبد السلام، أحمد شيخو، اللغويات العامة: مدخل إسلامي وموضوعات مختارة (كوالالمبور: دار التجديد، ط ٢، ٢٠٠٦م).
- عبد الغفار، السيد أحمد، التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط ١، ٢٠٠٧م).
- العبد، محمد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة (القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٤م).
- عبد، داود، دراسات في علم اللغة النفسي (الكويت: مطبوعات الجامعة، ط ١، ١٩٨٤م).
- عثمان بن جني، الخصائص (القاهرة: الدار المصرية للكتب، ط ١، ١٩٩١م).
- عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: عبد الحكيم بن محمد (القاهرة: المكتبة التوفيقية، ١٩٩٨م).
- عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٢-١٩٥٦م).
- علوان، محمد السيد، المجتمع وقضايا اللغة (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م).
- علي، عاصم شحادة، "الأسماء الماليزية ودلالاتها: دراسة تأصيلية"، مجلة البصائر، جامعة البتراء، المملكة الأردنية الهاشمية، مارس ٢٠١٠م، المجلد ١٣، العدد ٢.
- علي، عاصم شحادة، "المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي: دراسة في بنية الدلالة"، مجلة الأثر، العدد ١٠، الجزائر.
- علي، عاصم شحادة، اللسانيات الميسرة: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م).
- علي، عاصم شحادة، علم اللغة النفسي للدراسات الجامعية: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م).
- علي، عاصم شحادة، وآخرون، اللسانيات التطبيقية الحديثة للمتخصصين في العربية وآدابها: مدخل وصفي (كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٦م).
- عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩١م).
- عمر، أحمد مختار، علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، ط ٥، ١٩٩٨م).
- العمرى، محمد، البلاغة العربية أصولها وامتدادها (الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ط ١، ١٩٩٩م).
- الغزالي، محمد بن محمد، المستصفى في علم الأصول (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م).

- غلفان، مصطفى، في اللسانيات العامة (بيروت: دار الكتاب الحديث، ٢٠١٠م).
- فاير، بول؛ كريستيان، بايلون، مدخل إلى الألسنية، ترجمة: طلال وهبة (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١، ١٩٩٢).
- فاسولد، رالف، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة: إبراهيم بن صالح بن محمد الفلاي (الرياض: جامعة الملك سعود، ٢٠٠٠م).
- فتيح، محمد، في علم اللغة التطبيقي (القاهرة: دار الفكر، ١، ١٩٨٩م).
- الفرحان، إسحاق أحمد، أزمة التربية في الوطن العربي من منظور إسلامي (عمان: دار الفرقان، ١، ١٩٨٦م).
- الفرزدق، همام بن غالب، ديوان الفرزدق (بيروت: دار صادر، ١٩١٠م).
- فضل، عاطف، مقدمة في اللسانيات (عمان: دار الرازي، ٢٠٠٥م).
- فندريس، جوزيف، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م).
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، إعداد: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢، ٢٠٠٣م).
- قاسم، حسام أحمد، تحويلات الطلب ومحددات الدلالة (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١، ٢٠٠٧م).
- قاسم، رياض زكي، المعجم العربي: بحوث في المادة والمنهج والتطبيق (بيروت: دار المعرفة، ١، ١٩٨٧م).
- قاسم، سيزا، "المفارقة في القص العربي المعاصر"، مجلة فصول، القاهرة، المجلد ٢، العدد ٢، يناير/مارس ١٩٨٢م.
- قدور، أحمد محمد، مبادئ اللسانيات (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦م).
- القرافي، أحمد بن محمد، أنوار البروق في أنواء الفروق، تحقيق: محمد سراج، علي جمعة (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠١م).
- القرطاجني، حازم بن محمد، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة (بيروت: دار الكتب الشرقية، ١، ١٩٦٤م).
- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة: دار الشعب، د.ت).
- القضمان، رضوان، علم اللسان (بيروت: دار الكتاب الحديث، ١٩٨٤م).
- كثير عزة، عبد الرحمن بن الأسود، ديوان كثير عزة، شرح وتحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٠م).
- كرم الدين، ليلي أحمد، اللغة عند الطفل: تطورها ومشكلاتها (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٠م).
- الكشو، صالح، مدخل في اللسانيات العربية (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥م).
- كوبر، أ. روبرت ل. التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي، ترجمة: خليفة أبو بكر الأسود، مراجعة لغوية: الطاهر خليفة القراضي (القاهرة: مجلس الثقافة العام، ٢٠٠٦م).
- كوبر، آدم، الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة: تراجي فتحي، مراجعة: ليلي الموسوي (الكويت: سلسلة علم المعرفة، ٢٠٠٨م).

لويس، م. م.، اللغة في المجتمع، لويس، م. م.، ترجمة: تمام حسان، إبراهيم أنيس (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٩٥٩م).

ماكرثي، ميشيل، قضايا في علم اللغة التطبيقي، ترجمة: محمود عبد الجواد توفيق (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط ١، ٢٠٠٥م).

المتوكل، أحمد، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط ٢، ٢٠١٠م).

المتوكل، أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط ١، ١٩٨٦م).

محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).

محسن، محمد سالم، القراءات وأثرها في علوم العربية (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٤م).

المصري، عباس؛ أبو حسن، عماد، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية (جنين: الجامعة العربية الأمريكية، ٢٠١٤م).

مصطفى، هيثم محمد، "ملاحم من النظرية الوظيفية (التواصلية) عند ابن جني في كتابه (الخصائص)"، مجلة كلية

العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، المجلد ٨، العدد ٢/١٥، ٢٠١٤م.

الموسى، نهاد، "نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية"، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الجزء ٤، العدد ١،

معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨٥م.

الموسى، نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث (بيروت: المؤسسة العربية، ١٩٨٠م).

ميوك، د. سي، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة (بيروت: المؤسسة العربية، ط ١، ١٩٩٣م).

نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (القاهرة: دار المعرفة الجديدة، ٢٠٠٢م).

نهر، هادي، اللسانيات الاجتماعية عند العرب (إربد: دار الأمل، ط ١، ١٩٩٨م).

نهر، هادي، النحو التطبيقي (عمان: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٨م).

هدسون، رتشارد أنتوني، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة: محمود عياد، مراجعة: نصر حامد أبو زيد، محمد أكرم سعد

الدين (القاهرة: عالم الكتب، ط ٢، ١٩٩٠م).

وافي، علي عبد الواحد، اللغة والمجتمع (القاهرة: دار نفضة مصر، ١٩٧١م).

يوسف، جمعة سيد، سيكولوجية اللغة: والمرض العقلي (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٠م).

يوسف، حسني عبد الجليل، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي (القاهرة: الدار الثقافية، ط ١، ٢٠٠١م).

على الشابكة:

"لغة التنوع"، المطالعة في ٢ مايو ٢٠١٧م.

إبراهيم، شيماء، "لكل من الرجل والمرأة لغته: فمن يفهم الآخر؟"، موقع سيدتي، المطالعة في ٣٠ أبريل ٢٠١٧م.

إسماعيلي علوي، عبد السلام، "التداوليات"، المطالعة في ٣٠ أبريل ٢٠١٧م.

جاء الله، أسامة عبد العزيز، "جماليات المفارقة النصية: قراءة بدائية في ديوان (مجروح قوي) محمد صبحي"،

موقع ديوان العرب، المطالعة في ٨ مايو ٢٠١٧.

الغرافي، مصطفى، "الأبعاد التداولية لبلاغة حازم"، موقع الحوار المتمدن، المطالعة في ٧ مايو ٢٠١٧ م.

المشرف، عبد الإله، "بين اللغة والثقافة"، المطالعة في ٢ مايو ٢٠١٧ م.

مقبول، إدريس، "السنة النبوية ومستويات التمام السياقي"، منتديات المكتبة العربية، المطالعة في ٣٠ أبريل

٢٠١٧ م.

المصادر الأجنبية:

- Anotny, Edward M, Toward a Redefinition of Applied Linguistics. In Kaplan, Robert B. (ed), 1980. *On the scope of Applied Linguistics*, Newbury House Publishers, Inc.
- Brown, G. and George Yule. (1983). *Discourse Analysis*. C.U.P. London.
- Edwards, John. 1994. *Multilingualism*, Routledge, London.
- Fasold, Ralph. 1984. *The Sociolinguistics of Society*, first published, Basel Black well Ltd, UK.
- Ferguson, Charles. 1959. Diglossia. *Journal Word*. In Giglioli, Pier Paolo (ed.). 1972. *Language and Social Context*. Harmonds worth, England: Penguin Book; Fasold, Ralph. 1984. *The Sociolinguistics of Society*.
- Fishman, Joshua. 1972. *Societal Bilingualism: Stable and Transitional*. Section VI of the *Sociology of Language*. In Roeley, MA: Newbury House.
- Haigen, Einar. 1965. "Construction and Reconstruction in Language Planinng: Ivar Asen's Grammar". *Word*, 21 (2).
- Hamers, Josiane F and Michel H. A. Blanc. 2000. *Bilinguality and Bilingualism*, Secnd Edtion, Cambridge University Press.
- Hj Omar, Asmah. 1987. *National Language and Communication In Multilingual Societies*, Dewan Bahasa Dan Pustaka, Kuala Lumpur.
- Hoffman, Charlotte. 1991. *Introduction to Bilingualism*, Longman, London.
- Holmes, Janet. 1992. *An Introduction to Sociolinguistics*, Longman, London, New York, First published.
- Levinson, S.C. (1992) Deixis, in : Bright. W (ed) 1992. *International Encyclopedia of Linguistics*. Oxford University Press.
- Longman Active Study Dictionary*. 1998. Edinburgh Gate, England.
- Melebek, Abdul Rashid Daing and Amat Juhari Moain. 2011. *Sociolinguistik dan Bahasa Melayu*.
- O'Grady and John Archibadld, Mark Aronoff, Janie Rees-Miller. 2005. *Contemporaray Linguistics: An Introduction*, Fifth Edition, Bdford/St. Martin's, Boston, Newyork.
- The Shorter Oxford English Dictionary on Historical Principles, Prepared By William little, H. W. Fowler, J. Coulson, Revised and Edited by C.T. Onios, Oxford, At the Clarendon Press, Third Edition , 1975.
- Trudgill, P. 1984. *Applied Sociolinguistics*. New York, Academic Press.
- Versteegh, Kees. 1984. The Pidiginization and Creolization Theory: The Case of Arabic, *Current Issues In Linguistic Theory*, Vol.33.

Wolfram, W. A. 1969. *A Sociolinguistics Description of Detroit Negro Speech*. Washington, DC: Centre for Applied Linguistics.

Yaacob, Zulkeflee. 2011. *Sociolinguistik: Wacana PPSMI dan Yang Indah Bahasa*, Penerbit Percetakan ST Sdn Bhd., Kelantan, Malaysia.